# وهم الوهم

## Delusion of Delusion

تعقيب حول كتاب

## { وهـم الإله }

لـ "ريتشارد دوكنز"

The GOD Delusion

بقلم : سيفي سيفي

2017م

**من المؤسف و المحزن.. ومع شديد الأسى..**

**أن يقضي إنساناً ثلاثين أو أربعين عاما في البحث والدارسة والتعلّم ..**

**ثـم .. يعتنق الإلحـاد.. وينكر وجود الله ..**

**بينما.. تكتشف ذلك بكل بساطة**

**بقية المخلوقات الدانية**

**دون جهد أو تعب وهي لا تعرف كيف تفتح كتاباً أو تقرأ كلمة!!**

# مدخل

طالما بحث حكماء وفلاسفة العالم عن حلول لأزمات شعوب الأرض ورفع المظالم وتخفيف الآلام عنهم، بينما بدا للبعض أن في انتشار فكرة الإلحاد حلاً مناسباً لذلك، كما صوّرها السيد "دوكنز" في كتابه "وهم الإله"، بعدما ظنَّ ان الأديان تحمل أفكاراً رجعية تسبب التخلف وتخدير العقول، وظنَّ أيضاً أن مصدر الأخلاق والأعمال الحسنة نابع من عقلية الإنسان وفكره وليس من الأديان السماوية؛ ومع أن إثبات خطأ هذه الفكرة يبقى بحاجة الى أدلة علمية وتاريخية وإنثروبولوجية قد يطول البحث فيها والتحقق منها، لكن ذلك لا يعني بالضرورة السماح للأفكار غير الطبيعية والمدمرة بالسيادة على عقول البشر، فكم من فكرة عبثية تمكنت من استغلال جهل البشر وغفلتها لتستولي على عقول الكثير منهم، فما كان من نتائجها إلا حروباً عالمية ونفوس وحشية تحمل كل معاني الظلم والقسوة، فتُنتهك بذلك مبادئ العدل والرحمة والإنسانية عندما تتبناها مجموعة من بشرية تشق طريقها مستغلة الفوضى الفكرية لتؤسس صرح دول تقوم على أعمدة إحتقار الإنسان وعقله تحت شعارات جميلة تسوقها بمختلف الحجج الواهية؛ والنتيجة كانت في كل مرة خراب العباد والبلاد، ومن ثم تختفي تلك الجموع لتظهر أخرى. إن مثل هذه الأفكار المدمرة أشبه بجرموز ذئب أو فرغل ضبع تغري للعب والمرح معها دون إدراك لما يجر من أخطار مستقبلية. وتذكرنا مثل هذه الأفكار الخطرة بما كان من تجارب البشر مع مبادئ العرق الأفضل والدين الحق والوطن المقدس وسيادة الدولة العلية وفداء القائد الأوحد وفاشية الحزب القائد وغيرها الكثير من الأفكار التي خرجت لتدمر على مر التاريخ، وكانت خير مثال لما حاق البشرية من فضائع وبلايا على مرّ التاريخ. فطالما لم ينضج عقل طفل البشرية بعد، فسيبقى هناك مجال لظهور مثل هذه الأفكار الحِصرمية وستجد من يتبناها، وفي كل مرة تكون النتيجة كارثية في دمار الأمم والأوطان. فليس صانعو المخدرات ومخترعو الأسلحة الفتاكة ومثيرو الفتن ومشعلو أوار الحروب هم الأشرار فقط، بل الأخطر منهم مبتكروا جراثيم الأفكار وفايروسات النظريات المدمرة للعقل والروح البشري.

كان تأثير تدمير خبيث الأفكار للعقول جزئياً في قديم الزمان، لكنه إزداد شراسة وعنفاً في القرنين التاسع عشر والعشرين مع إزدياد سبل الاتصالات والطباعة والنشر وكذلك بعد اختراع آلات الأسلحة الجهنمية، فشاهدنا كيف عمَّ الأرض الدمار وتصاعدت أرقام الضحايا لتصل الى عشرات الملايين.

أما اليوم وبعد ازدياد موجة التطور التصاعدية المركبة وانتشار الأسلحة النووية، فلن يكون بالمقدور حصر الخسائر وحجم الدمار، فهذا أمر سيكون ليس بالاستطاعة حصره، وسيكتفى فقط بتعداد المتبقي فقط لقلة أعدادهم.

لا يسعني هنا إلا تقديم الإحترام للاستاذ بسام البغدادي على ترجمته كتاب "وهم الآلهة" وإظهاره من تحت غطاء اللغة الأجنبية الى نور اللغة العربية، مما مكَّن شريحة المتتبعين للاطلاع على طريقة تفكير دعاة الفكر الإلحادي، وفي نفس الوقت أثني على قدراته في ترجمة ومسايرة اسلوب المؤلف "المعقد" في طرح فكرته الضبابية ومحاولة طلائها بصبغة المنطق والعلم بعدما أكثر من ضرب أمثلته الفردية الخاصة واعتبارها قواعد عامة تؤخذ بقياساتها ونتائجها، وكذلك حين استشهاده بأقوال بعض الكتـّاب ممن لا بد وان تعرف عليهم بحكم مجال عمله كعالم أحياء لتأليف كتابه. فمثل هذا الإنجاز الأدبي لا بد وان تطلب منه إضافة الى الذكاء والنباهة، سعة الإطلاع على مفردات وتعابير اللغة ناهيك عن المصطلحات العلمية الحديثة، ولا يخلو الأمر من الحاجة الى قوة الذاكرة في تتبع مفاصل المواضيع المبعثرة وما بذله من تأملات في حسن ترتيبها إضافة الى ما صرفه من جهد مضني مع كتاب يعتبر بالقياسات الأدبية الطبيعية كبير الحجم.

**سيفي سيفي**

# مقدمة

تناولت في الردود والإجابات آراء المؤلف وأفكاره الخاصة فقط، وحاولت قدر الإمكان تجنبت ما أورده من أقوال الآخرين وتصريحات من استشهد بأقوالهم وما نشر عنهم في المجلات والصحف وفي المقابلات واللقاءات والمناظرات، باعتبارها مداخلات جانبية بعيدة عن جوهر الموضوع غير ملزمة للمؤلف ومن السهل تراجعه عنها وقتما شاء وقد يدعي أنه:- (قدمتها من باب التذكير والعلم بالشيء، وما عليكم إلا مناقشة أفكاري فقط). فمن السهل نسبتها الى مداخلات تشويقية وحشو الكلام ومجرد تذكير بآراء آخرين تناولوا ذات الموضوع. لذلك حاولت قصر الردود على ما كان من آراء المؤلف قدر الإمكان.

فمما استعان به "دوكنز" على سبيل المثال ما نقله من كلام وتصريحاتهم وكتب غيره كدلائل منقولة عن غيره في إثبات وجود الله أو العكس، مما لا يرقى أن يدوّن في كتاب علمي، وكان من الأنسب تناولها في جلسة مسامرة وترفيه لقضاء الوقت. ومع ذلك فلقد أجبت على ما جاء به من أفكار غيره، لأنه كان يعود في كل مرة ويتناول مكرراً ذات النقاط. فعلى سبيل المثال قال متهكماً عن دلائل المؤمنين بوجود الله:- (تحطمت طائرة وقتل 143 من ركابها وطاقمها. وطفل صغير نجا بحروق من الدرجة الثالثة. ولذلك الله موجود). وكذلك:- (فلان شخص مات ملحداً، والآن أدرك خطأه. ولذلك الله موجود). كذلك:- (الله يحبك. كيف يمكن أن تكون جاحداً لهذه الدرجة ولا تؤمن به؟ ولذلك الله موجود).[1] ومثل هذه الآراء لا يمكن اعتبارها أدلة علمية أو دينية ترقى لذكرها في كتاب علمي، وكان الأولى به ذكرها في ندوة خاصة.

ركّز "ريتشارد دوكنز" في كتابه (وهم الإله)، على فكرة استحالة وجود الله وعدم القدرة على إثبات وجوده. ومما قاله أن الفلاسفة والحكماء قد اتفقوا على أن إثبات معرفة الله ووجوده هو أمر عسير ومحال، فلم يستطع ذلك أحد منهم، وأنهم جميعاً أقروا بذلك. فإذا كان بهذه الثقة العالية من جوهر الموضوع، فلماذا أتعب رأسه في تناول فكرة عجز عن الوصول اليها من أهم أذكى وأوسع منه علماً؟ ألا يعتبر عجز الفلاسفة دليلا يسند فكرة المؤلف ويغنيه عن كتابة مؤلفه؟

ولقد بقي طوال صفحات كتابه يتهكم على المؤمنين بالله ويتحدى إثباتهم لوجود ، وكان الأولى به تقديم جواب لسؤال أبسط من ذلك بسبعة مليار مرة، أكرر .. سبعة مليار

---

[1] - الصفحة 87

مرة، أي بعدد سكان الأرض؛ ويثبت لنا أين هو مكان العقل في جسده الذي أوجد كل هذه العلوم وصنع جميع هذه المبتكرات والمخترعات واستعان به لتأليف كتابه؟

أتمنى لو أثبت للقراء الكرام ـ الذين حاول إظهار اهتمامه بهم ـ وجود "العقل" في كتاب آخر، وليستعن بجميع ما كتبه علماء النفس والطب والفسلجة والأعصاب والانثروبولوجيا والفلاسفة من الملحدين والماديين والطبيعيين من مؤلفات وبحوث وحتى الاستعانة بمؤلفات المؤمنين من ذوي الإختصاص. وسننتظر كتابه.

سأحاول في هذا الكتيب الرد باسلوب (توافق الدين والعلم) على جميع ما أورده الكاتب من ملاحظات واعتراضات، وسأفصل الكتاب حسب تسلسل فصول كتابه.

ومما ورد في مقدمة كتابه:- (لأن تنظيم الملحدين سيكون أشبه بمحاولة انشاء قطيع من القطط، شيء مستحيل حيث هم معتادون على التفكير المستقل وعدم الانصياع لأي نوع من السلطات الفكرية).[1]

فهل نفهم من هذا إذا.. أن الهدف النهائي من كتابه هو نشر الفوضى بين البشر؟ وهل الهدف هو ترك ما ينظم حياة البشر من قوانين وتشريعات والتوجه نحو الفوضى؟ إذ لا بد لأي شريحة أو مجموعة أو شعب من وضع نظام يتبنوا قواعده وأحكامه ليحافظوا على حقوق الأفراد فينا بينهم، وهذا أمر مثبت تاريخيا منذ بداية ظهور وعي الانسان. أم المقصود منها تجربة أخرى جديدة مكررة كما حدث في الستينات مع موجة انتشار "الهيبيز" وفوضاها وإختفائها؟

ثم يقول واثقًا:- (إذا كان فعل هذا الكتاب كما أتصوره أنا، فان القارئ المُتدين الذي يفتح هذا الكتاب سينهيه وقد أصبح مُلحدًا).[2]

ما زلنا في بداية صفحات مقدمة كتابه، وسنقرأ حتى النهاية منتظرين الدخول في حالة التغيير الإلحادية. وفي نفس الوقت نمسك بالقلم لتسجيل الملاحظات والأجوبة الفورية حتى لا يضطرنا الأمر الى إعادة قراءة كتابه من جديد، فالوقت من ذهب. فإما معه أو ضده.

في إحدى صفحاته يدعو:- (للتحرر من رجال الدين).[3]

وهذا مبدأ سليم وهدف عصري، أوافقه الرأي، فأفكار رجال الأديان القديمة بأتمها تنبع من كتب تجاوزت أعمارها آلاف السنين ولم تعد تصلح لهذا الزمان المتقدم، بعدما نضجت عقول البشر وتوسعت معارفهم وهم ليسوا بحاجة لمن يعلمهم كيف يدخلون الحمام وكيف يغتسلون وكيف يتقارب الزوجان.. والى غير ذلك من الأمور الصغيرة التافهة.

---

[1] - صفحة 8.
[2] - صفحة 9.
[3] - صفحة 10.

# الفهرس

المقدمة

الفصل الأول : غير مؤمن بعمق

الفصل الثاني : فرضية الإله

الفصل الثالث : الدليل على وجود الله

الفصل الرابع : لماذا الاحتمال الأكبر هو عدم وجود الله

الفصل الخامس: جذور الدين

الفصل السادس: منشأ الأخلاق: لماذا نحن صالحون؟

الفصل السابع : الكتاب (الصالح)

الفصل الثامن : ما هي مشكلة الدين؟ ما سبب كل هذه العدوانية؟

الفصل التاسع : الطفولة

الفصل العاشر : الفجوة المهمة جداً

الخاتمة :

# الفصل الأول

# (غير مؤمن بعمق)[1]

جاء عنوان فصله الأول: (غير مؤمن بعمق)، ثم ينقل عن المفكر "كارل ساغان" قوله:- (لو أن ديناً ما قديما أو حديثًا قد أصر بشدة على الدهشة بعظمة الكون كما كشفه العلم الحديث لحصل ربما على قدر كبير من التقديس).[2]

من المعلوم أن الانسان كائن روحاني في جسد مادي، لذلك اهتمت الأديان بالدرجة الأولى بالأخلاق والروحانيات والأيمان وبالدرجة الثانية تنظيم حياة المجتمع وإدارته، أما الأمور العلمية والاختراعات فهي من شأن العقل البشري، ولقد اتفق علماء الحضارات وعلم الاجتماع (Sociology) أن أصل مبدأ العلوم الطبيعية والمادية جاء من الطواطم والآلهة/الأنبياء والكهنة والسحرة الأقدمون. (دليل على بداية العلم من الآلهة).

قال:- (كل نهايات كتب ساغان تصيب نهايات الأعصاب وتسبب دهشة متعالية).[3]

هذا أمر صحيح لا يختلف عليه اثنان، لكن تَدخُّل عالم الفلك ساغان في الشؤون الدينية فيه نوع من التجاوز من حيث نوع الاختصاص، وكل الظن أن ساغان بنفسه لن يسمح لكاهن أو رجل دين بالتقرب من اختصاصه.

قال:- (كتبي كذلك تطمح لنفس الشيء).[4]

هل نفهم من عبارته هذه أن دافع التأليف هو إما الحسد أو الشهرة؟ فالاثنان أمران يزولان ولا نفع فيهما لصاحبها بعد موته، فهنالك ملايين الكتب غير المفيدة أهملت بعد فترات قصيرة من زمن تأليفها وغالبيتها استفاد بائعي الأكشاك من أوراقها. فالعبرة من وجود المفكر ، هي فائدة الناس والمجتمع، أما متع الحياة فجميعها قصيرة وزائلة، ولا بد للإنسان من البحث عن متعة دائمة.

قال:- (الله. كلمة تدل على خالق من عالم ما وراء الطبيعة).[5]

هذا ليس بالأمر الميتافيزيقي الوحيد ، فالكثير من أمور الفيزياء الطبيعية حولنا لا تعرف أو تقاس بالحواس، منها كيفية مسار الكواكب والأفلاك خارج مدى رؤية أجهزة التلسكوب حيث يكتفي علماء الفلك بالاستنتاج العلمي والتصورات العقلية، كما أن ألوان

---

1 - الصفحة 12
2 - صفحة 14.
3 - صفحة 14
4 - صفحة 14.
5 - صفحة 15.

الطيف وأنواع الأشعاعات وأطوال موجات ذبذبات الأصوات لا ترى ولا تسمعها الأذن البشرية، فهل يمكن نكرانها؟ وهل يمكن نكران "الفكرة" المجردة قبل ترتيبها داخل العقل وقبل تبلورها وبزوغها.

يقول:- (إن الكون مادي بحت فإن العقل والجمال والعواطف والقيم الأخلاقية... قد انبثقت منه).[1]

حتى يشعر الانسان بالموجودات المادية عليه باستعمال حواسه الخمس، فإن لم يتمكن من خلالها باستشعارها، فهذا يعني أنها أمور معنوية غيبية لا تخضع لمقاييس الحواس المادية، حيث لا يمكن رؤية أو تذوق أو قياس العواطف المتباينة، مثل: المحبة والحنان والرحمة والقيم الأخلاقية، كما لا يمكن معرفة أبعاد زوايا العقل ومداه؟ فالعجز عن معرفة هذه الأمور غير الحسية المادية دليل على وجود أمور معنوية لا تخضع للقياسات المادية. وطالما يعلم الانسان بوجودها ويتعامل معها، فهذا دليل عقلي يثبت وجودها، رغم أنها مشاعر وأحاسيس لا تلمسها الحواس أو تشعر بها. فهل يمكن تقديم حفنة من المحبة الى الزوجة أو الى الأولاد.

معتمداً على رأي أحد المفكرين "جوليان باغيني" في شرح معنى "الإلحاد"، قال:- (إن عواطف وأفكار الانسان تظهر من خلال عمليات متشابكة شديدة التعقيد في المخ).[2]

من يستند على العلم التجريبي المختبري كأساس لعلومه ايقنع غيره بفكرته، عليه عدم رمي الكلام على عواهنه. نعم هناك عمليات عقلية متشابكة تحدث في المخ (الدماغ)؛ ولكن هل يمكن تحديد ماهيتها والتفرقة بين شؤونها والتفريق بينها والقول أن هذه العملية خاصة بالتصور وتلك بالتفكير وذاتيك لتخزين المعلومات وأخرى لجمع الصور في "ألبوماتها"؟ إن أجساد جميع المخلوقات تحوي أعضاء يختص كل منها بمهمة وشأن وعمل، كضخ الدم لعضلات القلب والاستفادة من الأوكسجين للرئة وصناعة الدم للكبد.. فأين تقع الأجزاء الخاصة بالتفكير وأرشيف صور الموجودات والمعلومات ومخزن الذاكرة ومعامل التفكير وصناعة الأفكار داخل الدماغ؟ فهذا ما لم يثبت مختبرياً حتى اليوم. أما التصريح بأماكنها داخل الدماغ فهو نوع من الترويج الخاطئ لمعلومات غير علمية.

قال:- (الفيلسوف الطبيعي لا يؤمن أن هناك خالق يتسنط من وراء الكون).[3]

أمر مؤكد إن الله لا يسترق السمع (يتسنط)، ولا نؤمن أنه يفعل ذلك، فهذا أمر ليس من شأن عظمته وقدسيته. إنها مجرد أفكار قديمة من تراث بائد جاءت من أزمنة الآلهات.

قال:- (ليس هناك روح تبقى بعد بلاء الجسد ولا معجزات).[4]

---

1 - صفحة 16.
2 - صفحة 16.
3 - صفحة 16.
4 - صفحة 16.

سبق وطلب منه كاتب هذه السطور إثبات وجود العقل، وهي مهمة أسهل بكثير من إثبات وجود الروح داخل الجسد ببلايين المرات. فدعنا نخلص من هذه المسألة البسيطة ثم نتحول الى مسألة اثبات بقاء الروح. ولو عدنا الى أقوال فلاسفة الإغريق واليونان والمسلمين وغيرهم لوجدناهم يصفون الروح مادة هيولية من غير مواد الأرض وعناصرها، لذلك يجزمون بعدم قدرة التعرف على شؤونها. ولكن دعنا نبقى على طلبنا الأول، في إثبات وجود العقل داخل الجمجمة بالأدلة العلمية والمختبرية. ثم بعد ذلك.. من السهل أن نتحول الى اثبات وجود الروح.

أما موضوع "المعجزات"، وتعني ظواهر مادية خارج حدود القانون الطبيعي. فاذا كان المقصد من الكلام هو معجزات الأنبياء التي يرددها عامة أتباع الأديان، فمن الصعب إثباتها بعد أن مضى زمانها حتى لو حدثت ، وطالما لم يتبق عليها دليل عيان ، فالمفروض الكف عن الكلام عنها وعدم الاستدلال بها لمن لا يؤمن بها. أما اذا كان المقصد من هذا النكران على المطلق العام ، فالإعجاز المادي قد حصل ويحصل كرات ومرات بالفعل وكل يوم من خلال ظهور المخترعات والاكتشافات التي بين أيدينا وتظهر للعيان ، فجميعها كانت في وقت ما قبل إيجادها واختراعها أموراً ميتافيزيقية كامنة في عالم الغيب ثم خالفت قانون الطبيعة المادية بقوة العقل وخرجت للشهود والعيان. أفلا يكون هذا من المعجزات التي أجراها الإنسان؟

قال:- (سنتمكن في المستقبل من تقديم تفسيرات لهذه الظواهر الغير مفهومة بشكل كامل باستخدام القوانين الطبيعية).[1]

توجد في الطبيعة حدود لقوى الموجودات، فمهما حاول الحجر إدراك حالة نمو النبات، فلن يقدر على ذلك، ومهما حاول النبات معرفة كيفية حركة الحيوان، فسيفشل، ومهما حاول الحيوان معرفة ماهية العقل البشري وكيف يفكر وكيف يوجد الحضارات، فلن يستطيع أبداً؛ مع إنها جميعاً أمور تقع في حدود عالم الطبيعة المادي. كما أن العلم الطبيعي التجريبي لا يستند على آمال ووعود شفاهية تسويقية غير محققة علميا. فلا يجوز لمن يؤمن بالعلم التجريبي أو المختبري أو حتى السريري أن يعد بأمور غيبية مثل هذه. مثله مثل رجل دين حينما يعد أتباعه بدخول الجنة والتمتع بلذائذها أو بالنار وعذابها مستنداً على ما وصله من تراث الأقدمين، فلا فرق هنا بين الفريقين، حيث يوجد قانون (الممكن والمستحيل) وهو يتحكم في مجريات أمور هذا العالم، فمثلما هناك القدرة على الفعل، ففي المقابل هناك العجز عنه، ومثلما هناك القدرة على الغوص في أعماق الفكر الذاتي، فهناك العجز التام عن معرفة بماذا يفكر الآخرون.

قال:- (عندما نفحص بعمق أيمان العلماء الكبار في أيامنا والذين يبدون كمتدينين في بعض الاحيان، نرى بأنهم ليسوا كذلك).[2]

---

[1] - صفحة 16.

[2] - صفحة 16.

هذا أمر مؤكد. والسبب أن ما يتوفر حاليًا من علوم الأديان القديمة، أصبح مخالفًا وعاجزًا عن مواكبة تقدم العقل البشري وثورته الفكرية، فما تركه مفكرو قدماء أتباع الأديان منذ آلاف السنين، لا يمكن الاعتماد عليه في زمن الأقمار الاصطناعية والذرة، فلكل زمان رجاله، فالاعتماد القصص والروبات الخرافية ليس سبيلا للعلم.

يذكر قول أحد أصدقائه:- ( قال لي بأنه يذهب للكنيسة كإنجيلي كافر..).[1]

هذا ليس بالأمر الغريب، فهنالك الكثيرون على هذه الشاكلة، ليس في المجتمع المسيحي فقط، بل وفي جميع المجتمعات الدينية حتى أحدثها. وأذكر بالمناسبة في المقابل، أن هناك من أخبرني أنه يذهب للكنيسة وهو مؤمن بأن السيد المسيح موجود حيّ حتماً. وكذلك هناك من يذهب الى المسجد للتظاهر بالدين أمام ذويه وسكان حارته. فمثل هذه الأمثلة لا تستحق الذكر في كتاب علمي يدعو لتغيير مناهج التفكير الفلسفية.

قال:- (احدى أشهر العبارات التي نقلت عن آنشتاين "علم بدون دين هو علم أعرج، ودين بدون علم هو دين أعمى").[2]

ولد ومات آينشتاين في (1955/1879م). وبذلك لا يمكن نفي اطلاع مثل جبل العلم هذا على مقولة الديانة البهائية الشهيرة (طائر الانسانية لا يمكنه الطيران بجناح المادية فقط، بينما جناحه الروحاني مكسور). باختصار هناك من سبق آينشتاين في هذه الفكرة، وقد يكون قد اقتبسها. فلا نستعجل التبجح بذلك، فهذه الحكمة من صلب مبادئ الديانة البهائية التي ظهرت سنة 1863م.

ينقل عن آنشتاين أيضًا قوله:- ("أنا لا أؤمن بالإله الشخصي ولم أنكر ذلك أبدًا. آينشتاين يعني بكلمة 'الدين' شيئًا مختلفًا تماما عن المعنى المتعارف عليه").[3]

التدقيق في معنى عبارة آينشتاين يستشف منه مقصدين، لذا لا يمكن الاعتماد على احدهما دون الآخر. وطالما أنه قد توفي وليس بالمستطاع الحصول على توضيح منه، فالتأكيد على أحد المعنيين أمر غير مؤكد ولا يعتمد عليه. كما لا بد من الأخذ بالاعتبار أن آنشتاين، هو عالم فيزياء وليس حكيمًا أو فيلسوفًا يرتقي بفلسفته الى مصاف فلاسفة اليونان وحكماء الإغريق وعلماء أعلام الأديان القديمة من الذين أجمعوا على وجود مهندس مبدع بارع لهذا الكون. كما لا يجب ان ننسى أن آينشتاين يقارن بين علوم اليهودية والمسيحية التي ظهرت قبل ألفين عام، وهذا زمان قديم جدا من غير المنصف مقارنة ما ورد في تلك الكتب القديمة مع منجزات العلم الحديث، حيث ستكون الكفة الراجحة بلا شك للعلوم التجريبية. (يوضع دليل هنا من أقوال فلاسفة الإغريق).

يكرر مقولة آينشتاين:- ("لا أؤمن بالإله الشخصي").[4]

---

1 - صفحة 16.
2 - صفحة 17.
3 - صفحة 17.

الايمان بالأديان يختلف باختلاف موقع الناظر من موقعه أو كالناظر من نقطة محددة على ساحل الى آفاقه البحر الممتدة، فلكل وجهة نظره وقناعته الشخصية، وهذا الاختلاف والتباين أمر طبيعي في جميع شؤون الحياة. وبذلك لا يمكن الحصول على فكرة موحدة أو الاستناد الى فكر ورأي محدد.

يقول بثقة:- (الحقيقة عكس ذلك تماما، آينشتاين يعرف تماما ماذا نوع الإله الذي ينفيه).[1]

هذه الطريقة عجيبة في تقديم أفكار آنشتاين العقائدية والدفاع عنها، ونوع من الاصرار بمعرفة علم الغيب وما في صدور البشر. ومع ذلك، يبدو أن آينشتاين يؤمن بالإله المبدع المهندس لقانون طبيعة الكون بتمامه. ولا يؤمن بما صوره كهنة الأديان. وهذا أيمان متطور متوقع من عالم بعبقرية عقليته، ومن المؤكد أن أفكاره لا تتوافق مع طبيعة الفكر الديني التقليدي القديم.

من تعريفات المؤلف للإله، أنه:- (يشرف على كل ما يحصل ويتدخل في أحداث ما خلقه هو بالأساس).[2]

هذا تعريف قديم بالٍ لقدماء الكهنة لا يتفق مع الفكر الديني المتطور، فالمؤلف دوكنز هنا يحاول استغلال بساطة الفكر الديني القديم لدعم فكرته معتمداً على جهالة من لا يعرف شيئاً عن الحقيقة من خلال استعمال سلاح العلم المتقدم. وهذا إجحاف كبير في استخدام ميزان العلم لقياس دقائق أمور الدين، إنه نوع من التزييف في الطرح.

يقول:- (الإله يتدخل بشكل حميم في أمور البشر. يستجيب للصلوات ويغفر ويعاقب الأخطاء).[3]

الرجل يحاور أفكار المتدينين وينتقدها أو يخطئها، وكان من الأولى محاورة أصل الفكر الديني وليس أفكار الأتباع. فمن المعلوم أن علوم الدين تتراجع قوة تأثيراتها مع تقدم أعمارها حتى تصل الى شيء من الخرافات والأباطيل وقد تعود حتى الى عبادة الأصنام الحجرية والأصنام البشرية كما نلاحظ ذلك حالياً. وهذا قانون طبيعي يشمل كل ما هو موجود في هذه الحياة من ماديات ومعنويات، فكل شيء خاضع لقانون الولادة والموت. وعلى كل حال، فمثل هذه المعتقدات، كانت مفيدة في الأزمان الخالية، ومما لا شك فيه أنها دفعت مئات الملايين من البشر الى أعمال الخير ومساعدة الاخرين وتأسيس الحضارات باسم المعبود والخالق، كما حجبت من جهة أخرى مئات الملايين عن تخريب مجتمعاتهم وتشويهها والتراجع عن ارتكاب الجرائم الخطيرة مخافة وجود من يحاسبهم في يوم القيامة. أليست هذه فوائد مادية طبيعية نتجت من أفكار غيبية؟

---

[4] - صفحة 18.

[1] - صفحة 18.

[2] - صفحة 20.

[3] - صفحة 20.

يعود وينقل أفكار المتدينين مقللاً من شأنها:- (الإله يقضي بسوء وحسن الأفعال ويعلم متى نفعلهم "ومتى نفكر بفعلهم أيضا").[1]

أغلبية عوام المتدينين لا يعرفون معنى هذا القول، وإذا حاولوا تفسيره، فسيزيدون الطين بلّة. وبهذا فهو يعتمد على زعزعة أيمان الأكثرية الجاهلة بحقائق دينها من المعتمدين على آراء كهنتهم. لكن هذه الفكرة الدينية، كان لها أثراً بالغاً وكبيراً في المحافظة على سلامة أنظمة المجتمعات القديمة البدائية والمحافظة على حياة أفرادها، وكان لها دور كبير أيضاً في تهيأة الظروف الملائمة والهدوء والسكينة المطلوبة للمفكرين والعلماء والمبدعين لتقديم إبداعاتهم، فالأمن والأمان هما الكهف المثالي للتفكير والإبداع.

يشير الى من يؤمن بوجود "قوة عظمى" في الكون، أنه:- (الربوبي يؤمن بالخالق الذكي "لكن" ليس لديه أي اهتمام بأمور الانسان).[2]

هذه نقطة قد يُتفق عليها لاحقاً، فتسمية هذه القوة العظمى بـ (الإله، الله، الخالق، المهندس، الأعظم، القوة، الطبيعة)، أو أي اسم آخر، ليس بالأمر المعيق، فلقد حدث ذلك قديماً حينما كانت تسمّي الشعوب المختلفة آلهتها بمختلف الأسماء والصفات حسب لغاتها وتراثها.

ما يلاحظ أن "دوكنز" قد انشغل كثيراً بذكر حالات وأحوال العالم آينشتاين لحد الآن، ولا أحد ينكر عظمة و براعة هذا العالم الفذّ في مجال الفيزياء ومدى مساهمته في تطوريها وتطوير حياة البشر، مع أن لآينشتاين أقوال تعترف بوجود الله.

يكرر استعمال عبارة:- (يمكن تفسيرها).[3] وهي دلالة واضحة على تدخل مفاهيمه العقلية الشخصية الخاصة في تقديم وجبات طعام فكرية من الأنواع التي يستحب هو تقديمها لقرّائه. وبهذا لم يختلف شيئاً عن كهنة الأديان عندما يقدموا تفاسيرهم الشخصية لأتباعهم.

يتساءل:- (هل كان لله خيار في خلق الكون؟).[4] هذا ما يسمى بالجدل غير المجدي؛ فلو قدم له جواباً لذلك، فسيقدم سؤالاً أخر مثل:- ولماذا ليس هكذا..! فهذا نوع من المجادلة لا ينتهي مهما قدّم له من أجوبة، لأن بالإمكان اشتقاق سؤال آخر جديد من ذات الجواب في كل مرة. ولو كان قد خلق الله الكون على خيار آخر، لطرح الملحد نفس السؤال بصيغة أخرى.

يقول إن:- (آينشتاين استعمل كلمة الله بشكل مجازي ورمزي).[5]

---

1 - صفحة 20.
2 - صفحة 20.
3 - صفحة 21.
4 - صفحة 21.
5 - صفحة 21.

فليستعمل آينشتاين أو غيره أي كلمة أخرى تدل على الله.

ينقل مرة أخرى عن آينشتاين:- (يوجد شيء ما لا نستطيع ادراكه.. يكاد يكون غير محسوس).[1]

هذه سنّة الحياة الطبيعية منذ الأزل، فهناك ما يمكن الشعور به باستعمال حواس الجسد، وهناك ما لا يمكن الشعور به حتى تترجم نتائجه الى أفعال وتصرفات وحركات، مثل العلم والمحبة والفكرة والكراهية والعداوة والعواطف على العموم. فهذه مشاعر معنوية لا تستشعر بالحواس المادية إذ ليس كل ما لا نستطيع إدراكه هو أمر منفي غير موجود.

*****

تحت عنوان فرعي جديد: (إحترام غير مستحق) يقول في **الصفحة 22** سأتكلم فقط عن الآلهة الغيبية الماورائية وأشهرها يهوه إله التوراة. وقبل أن يبدأ بما عنده، وطالما أن كتابه يدعو الى الإلحاد، فمن المتوقع مهاجمته للإله يهوه، وهو إسم قديم قدم البدائية البشربة خاص بالديانة اليهودية مثلما تحوّر هذا الاسم فيما بعد ليصبح (الله) في الديانة الاسلامية. لذا يمكن اعتبار كتاب التوراة منهجا قديماً للبدائيين من (أطفال) البشرية في علم الروحانيات والعلوم الدينية للأمم القديمة، ومن غير المنصف مناقشة مثل هذه الأفكار من قبل عقلية (مراهق) متفتح الذهن في الوقت الحاضر. والمثال على ذلك، لو عدنا في التاريخ الى أعمق من ذلك ، لوجدناه سيهاجم مفاهيم الآلهة والطواطم والتابوهات.

يقول:- (من المسلمات.. بأن الايمان الديني هو فكرة هشة وضعيفة أمام النقد ويجب إحاطتها بجدار سميك من الاحترام).[2]

إذا أخذنا بالاعتبار نظرية تطور العقل البشري، فمن المؤكد أن أيمان الأمم البدائية القديمة "أطفال البشرية" سيكون هشاً حين مقارنته بعقلية "ناشئي البشر". كما أنه من باب احترام الرأي والرأي الآخر عدم التقليل من أهمية معتقدات الشعوب القديمة.

ينقل عن خطاب "ارتجالي" لدوغلاس آدامز قوله:- (لقد اعتدنا عدم مناقشة الأفكار الدينية).[3]

هذه عادة قديمة في طريقها الى الزوال، فلقد بدأ البشر يناقشون كل أمور الحياة، بدليل ما يفعله هو الآن. فلقد كانت طريقة متبعة بسبب قصور العقل البشري على فهم قوانين الطبيعة والعلوم الدينية معاً، وأدرك الحكماء آنذاك إن إعطاء طفل البشرية حرية التفكير وحرية التصرف استناداً الى نتائج تفكير تلك العقلية سيؤدي الى ظهور أفكار

---

[1] - صفحة 21.
[2] - صفحة 22.
[3] - صفحة 23

صبيانية تهدم النظم الاجتماعية، وطالما كان من غير الممكن شرح مثل هذه الأمور الكبيرة لعقول "الأطفال"، فمن الضروري اختصار الشرح والتبيين بكلمات قليلة أو تخويفية مثل: جهنم، بحيرة الكبريت، النجاسة، النار، العقاب الأخروي... الى غير ذلك، انتظاراً لبلوغ العقل البشري سنّ الرشد.

ينقل عن ذات الشخص إشارته:- (ولكن من المدهش أن نرى كمية الغضب التي سببها ريتشارد عندما ناقش هذا الموضوع).

من الواضح جداً تركيز المؤلف على أحداث فردية في طريقة الخلط بين المعتقدات الدينية وتصرف أتباعها. فانـتقاد تصرفات أتباع الأديان لا يعني بالضرورة حقائق جواهر دعواتها. بينما يصوّر المؤلف للقارئ ـ بطريقة ملتوية ـ أنه ينتقد أفكار الدين ومفاهيمه.! وهذا خلط مقصود لمجرد ترويج أفكاره، وقد استعملته شريحة رجال الدين التي يجهد على انتقاد معتقداتها.

ينتقد مدى درجة احترام مجتمعه للدين:- (التدين هو الطريق الأسهل للحصول على الإعفاء من الخدمة العسكرية في زمن الحرب).

خلط واضح غير موجب بين الفكر الديني والقوانين الوضعية، فالأخيرة وضعت من قبل مشرعين اجتماعيين وقانونيين وسياسيين وعسكريين وغيرهم، فلا موجب لنسبتها الى الدين ثم انتقادها، إنها مواد لقوانين وضعية نابعة عن أفكار بشرية قد يقرر المشرع إلغاءها أو تحويرها أو تطويرها في وقت لاحق.

ينتقد وصف المنظمات القتالية الطائفية بأسماء سياسية بعيدة عن الدين، مثل الكاثوليك والبروتستات في شمال ايرلندا، والشيعة والسنة في العراق:- (هناك تردد جبان من وسم فصائل متقاتلة بأسماء دينية).[1]

هذا انتقاد لتصرفات وأفعال البشر، لا علاقة له بانتقاد أصل الأديان. وليس في محله، كما أنه في المقابل نقرأ في كتب التاريخ عن عشرات الحروب الكبيرة غير الدينية فالدولة الرومانية ملأت الأرض بحروبها وحروب جنكيز خان وهولاكو والحربين العالميتين وتصفيات الملايين من البشر والعوائل داخل الاتحاد السوفيتي وما حصل من ابادات لخمسين مليون صيني إبان التجربة الاقتصادية الزراعية خلال القرن العشرين. كل ذلك الموت الأسود لم يكن له شأن أو علاقة بالأديان.

يكرر:- ("في الحروب الداخلية والوطنية مثلما حصل في شمال ايرلندا أو العراق"، أرادوا تلطيف عبارة "التطهير الديني" باستعمال عبارة "تطهير عرقي").

عودة للخلط غير المبرر في انتقاد الأديان من خلال تصرفات السياسيين.

---

[1] - صفحة 24

يقول:- (عند نشوء أي خلاف على موضوع له علاقة بأخلاقيات الجنس أو الانجاب فإنه من المؤكد أن قادة الفصائل الدينية... سيكونون أحد الأطراف في لجنة النظر في هذا الخلاف).

لو عدنا لتفحص قديم سلوكيات المجتمعات حتى البدائية منها، لوجدناها جميعا تخضع لقوانين واحكام أقدم من نشأتها تعتبر مقدسة بالنسبة لهم وتنسب الى آلهتهم أو طواطمهم، وهذه منابع دينية، فمهما تعمعنا في التاريخ، نجد هيكل الدين قائماً بكل وضوح؛ لذا فلا غرو أن تتحكم تلك العادات والتقاليد الدينية بجميع امم الأرض حيث لم يكن بمقدور الانسان القديم سنَّ أحكام وضعية، فكل ما كان يتعامل به الأقدمون من قوانين، كان مصدره الأديان وتصرف اجتماعي متوارث عن الأديان. فلا عجب أن يتدخل رجال الدين في مناقشة أمور أخلاقيات الجنس أو الانجاب فهم ما زالوا يعتبرونها من صميم أعمالهم، ومن المؤمل أو لنقل من المؤكد أن مثل هذا التدخل سيقوّم ويقنن وتصحّح مستقبلاً حسب تطور المعتقدات الدينية أو تقدم المناهج الأخلاقية والإجتماعية للشعوب.

منتقداً:- (هاكم مثالاً عجيباً على الامتيازات التي تتمتع بها الأديان.. في المحكمة العليا في الولايات المتحدة صدر الحكم باستثناء أعضاء الكنيسة في نيو مكسيكو من قانون يسري على الآخرين ضد تناول عقار للهلوسة).

هذه مسألة اجتماعية قانونية خاصة بالمجتمع الأمريكي، وقانون وضعي بشري ليس من المنطق تعميمه على بقية الشعوب أو نسبته الى بقية الأديان لانتقادها، فالمجتمع الأمريكي رغم ما هو عليه من تقدم حضاري، ما زال يأخذ بأحكام شريعة عمرها 35 قرناً.

ينتقد:- (أعضاء كنيسة يعتقدون بأنهم يتواصلون مع الله فقط عندما يتناولون نوعاً من شاي الهواسكا والذي يحتوي على عقار الهلوسة الغير قانوني والممنوع استخدامه).

مرة أخرى قانون وضعي بشري حسب المفاهيم السائدة لا علاقة له بأصل الأديان، وقد تترجح الكفة القانونية مستقبلاً لتأمر بإلغاءه.

يكمل:- (نلاحظ بأنه من الكافي أن يعتقدوا "أعضاء الهيئة" بأن المخدر يؤدي لتحسين تواصلهم. ليس عليهم ان يقدموا أي أدلة على ذلك).

محاولة أخرى لتحميل أخطاء البشر على أديانهم، وهو نوع من الخلط السمج بين قانون وضعي بشري مع مفاهيم الأديان.

**صفحة 25**: يقدم رأيه في تأييد استعمال مخدر نبات القنب:- (بل على العكس من ذلك هنالك العديد والعديد من الاثباتات على أن نبات القنب الهندي يخفف من الآلام ومعاناة المصابين الخاضعين للمعالجة الكيميائية).

هذه مسألة خاصة بالعلم والطب والصيدلة والمختبرات وأنواع الأدوية ومدى خطورتها على الصحة العامة، ومن المحتم أن سيتم حسمها مع تقدم العلوم الطبية. ومن المؤكد أن ما ذكره المؤلف من فوائد هذا النبات قليلة جدا ويتعامل معها الكيمياويون بحذر وتقدير نسب تناولها طبياً، أما ما يستشف من اعتراضه ، فهي دعوة لحرية تناول المخدرات رغم علمه بمدى تأثيرها المدمر للعقول وسوء تصرف الأفراد ناهيك عن اتفاق غالبية دول العالم وقوانينها على محاربة انتشارها. ولا أدري كيف يشجع على تناولها بهذه الحرية!

ثم يقول:- (لكن المحكمة العليا حكمت بأن كل الذين يستعملون نبات القنب لأغراض صحية مُعرضون للاتهام والملاحقة القانونية).

لا أرى موجباً لكل هذا الخوض في قوانين تشريعية خاصة ببلد معين، قد تصح او تخطئ، وهي خاضعة لتطور العقل البشري في فهم أمور الحياة والعلوم .

يكمل انتقاده لسماح القانون الأمريكي لجماعة دينية باستعمال نوعا من المخدرات، بقوله:- (هذا مثال للقوة السحرية للدين).

بالعكس.. هذا مثال للمستوى العقلي والأخلاقي للمجتمعات المادية في هذا اليوم، وليس للدين. فهناك العديد من القوانين التي تستهجنها كثير من شعوب العالم ، على سبيل المثال ، إباحة زواج المثليين . إنه إتهام غير مقبول ليس في محله.

يقول:- (منذ سبعة عشر عاماً، كنت أحد أعضاء لجنة ... مكلفين بكتابة مقال لدعم الكاتب سلمان رشدي.. استبد بي الغضب وقتها من التعاطف ضد "إيذاء" مشاعر المسلمين).

سبق وأوضحت أن هذه مشاعر تخضع لمستويات الثقافة العامة المتغيرة في ارتفاع وانخفاض مستوياتها فهي تخضع لثقافة المجتمعات ولا علاقة لها بجوهر المفاهيم الدينية.

خلط آخر بين معتقدات الأشخاص الخاصة وحقيقة أديانهم، قال:- (لكن لو سأل أحدنا أحد المتدينين أن يبرر تدينه لأتهمنا بأننا ننتهك "حرية الأديان").

مستوى أخلاقي واجتماعي وديني خاضع للتبدل في كل زمان، له علاقة بثقافات الشعوب وليس بجوهر الأديان.

يكمل:- (مجموعات مسيحية أقاموا دعوات قضائية ضد جامعاتهم لأنها فرضت قوانين منع التمييز فيها، مما يتضمن عدم مضايقة المثليين أو التحامل عليهم).

مرة أخرى. أمور وتصرفات ليس لها علاقة بجوهر الأديان بل بعادات الشعوب.

**صفحة 26**، محاولاً تدعيم آرائه بالقول:- (مثال الصبي الذي ارتدى "تي شيرت" يحمل عبارات من واقع الرأي العام "المثلية خطيئة، الاسلام كذبة، الاجهاض جريمة".!).

مثال لرأي فردي جداً من بين ملايين الأمثلة للبشر. لا يستحق ذكره.

حالة أخرى:- (مثال رجل الدين الذي طالب باعتبار الدين سببا كافياً لممارسة التمييز العنصري ضد المثليين والمجموعات الأخرى).

استغرب التكرار، ولكني ملزم بالإشارة اليها. مثال فردي آخر لا يعتد به، وحكمه القضائي ـ مهما كان شكله ودرجته ـ خاضع لمستوى ثقافة وأخلاقيات المجتمع في وقته.

ثم ينتقل الى **الصفحة 27**، لقضية رسوم الكاركتير في الصحف الدنماركية والتركيز عليها باعتبارها من جوهر الفكر الديني. مع إنها مسألة مفاهيم دينية خاصة وخاطئة لمجموعات دينية متطرفة تحمل فكراَ دينياً هزيلاً يتوافق مع نسبة الجهل والأمية في مجتمعات العالم الثالث. وهنا لا يجوز الخلط مرة أخرى، فمثما يحدث الارهاب في المجتمعات الدينية تحدث حروب عالمية في المجتمعات اللادينية.

**صفحة 28**، يعلق على ما تبع تلك الأحداث من أعمال اجرامية وتخريبية:- (ونتيجة لذلك، خربت سفارات وقنصليات وقوطعت البضائع الدنماركية وتعرض الدانماركيين خصوصاً والغربيين عموما لتهديدات وأحرقت كنائس مسيحية...).

هذه تصرفات تعبر عن مفاهيم دينية خاطئة يقف ورائها مستفيدون يلبسون قناع الأيمان أو يتظاهرون بمظهر الدين أو يظنون أنهم مؤمنون ومن واجبهم الدفاع عن الله ودينه. وكل هذا الفكر ناتج عن فهم خاطئ لحقيقة الأديان.

يعلق:- (أحد الأئمة في باكستان وضع مكافأة مالية بقيمة مليون دولار ثمنا لرأس 'الرسام الدنماركي').

أي تصرف هجومي ـ مهما كانت نسبته بسيطة ـ ضد مفاهيم الجهل والتعصب والتخلف، إذا كان بالكتابة او الكلام أو بالرسوم أو بأي طريقة أخرى، بغض النظر عن كونها دينية أو عرقية أو اجتماعية أو جنسية، هو نوع من أنواع اللعب الخطر بعلبة كبريت بجانب مضخة بترول مفتوحة، عادة ما يتجنبها العقلاء. ومع ذلك فتصرفات الفريقين هي تصرفات فردية خاصة.

**صفحة 30**، يقول:- (لا أفهم سر هذه الامتيازات الغير منطقية التي يتمتع بها الدين في ما نسميه بمجتمعاتنا العلمانية).

من الجدير بالذكر أن نورد رأي أحد كبار فلاسفة العالم المعاصرين وهو ويل ديورانت في أهمية المعتقدات الروحية والأديان السماوية في المجتمعات البشرية، قال:- (وربما كان من الضروري كذلك أن يكون بين الناس بعض الاتفاق في العقائد الرئيسية وبعض الأيمان بما هو كائن وراء الطبيعة أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود، لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضررة الى مرحلة الإخلاص للعمل

ذاته، وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدها قبل أن يخطفها الموت).[1]

إنها مفاهيم وقيم وتصرفات تخضع لمستويات التطور الاجتماعي والثقافي الخاص والعام لمختلف الشعوب ورجال سياستها، وهي على درجات مختلفة، قد تكون من خلال كلمة أو من خلال دعم مادي أو فعلي، فما كل ذلك إلا مسائل نسبية ستتغير مع قادم السنين. وفي كل الأحوال ليس لها علاقة بجوهر الأديان وأخلاقيتها.

يتساءل:- (ما هو الشيء المميز للدين والذي يجعلنا نعطيه نوعًا فريدًا من الاحترام؟).

جاء احترام الأديان منذ أقدم الأزمنة حينما كان البشر يطيعون أحكامها ويسعون لتنفيذها بعدما وجدوا فيها تأثيرًا واضحًا لاستقرار أوضاع الأمن واستتباب السلم والأمان والمحافظة على الحقوق وتقسيم الواجبات وتماسك أفراد الأسرة والمجتمع. ساعد في ذلك، نشر أفكار التخويف والترهيب من العقاب بنار جهنم، وضرورة تجنب مغريات الشيطان ونشر مبدأي الرجس والنجاسة اللذان ساهما في تجنب الأقذار والأوساخ وعدم انتشار الفايروسات والجراثيم قدر الإمكان مما حافظ على صحة أجساد البشر.[2] لكن المؤلف لم يعط أهمية لمشاعره الروحانية وتعمّد إهمالها ـ قد يكون ذلك من قلة الإطلاع على أدوار الأديان، أو نوعًا من أنواع التغاضي وعدم تسليط الضوء عليها فغايته واضحة ـ لذلك فهو يدعو للتخفيف من احترام الأديان حتى يفسح المجال ويزيل عائقًا قويًا من أمام سبيل انتشار فكرة الإلحاد وكسب شهرة ومال.

---

1 ـ قصة الحضارة. المجلد الأول. صفحة 4.

2 ـ إن أفضل صورة سحرية يقدمها علم المسببات المرضية (Etiology) في الطب العراقي القديم هي ذلك الإعتقاد الصارم بأن أسباب الأمراض إنما تنتج عن دخول الشياطين (التي تسبب الأمراض) الى جسم المريض.. ويناظر هذه الصورة ما نجده في الطب الحديث.. وتشمل هذه الأحياء المجهرية من البكرتيريا (Bacteria)، الفايروسات (Viruses)، الفطريات (Fungi)، وهذه الأحياء لا ترى بالعين المجردة مثلها مثل الشياطين. وبذلك يمكننا أن نصف هذه الشياطين بأنها جراثيم أو مكروبات سحرية Magic Microbs، حيث اعتقد الانسان العراقي القديم بأنها سبب الأمراض واللعنات الجسدية والروحية والعقلية. (بخور الآلهة. خزعل الماجدي. صفحة 206).

# الفصل الثاني

## (فرضية الإله)[1]

يفتتح دوكنز هذا الفصل بعنوان (فرضية الإله)، بمقولة لرالف والدو ايمرسون، قوله:- (دين زمن ما، هو التسلية الأدبية للزمن الذي يليه).

هذه مقولة صحيحة إذا أخذت بمقياس التطور التاريخي، فمن البديهي أن تعاليم وأحكام كل ديانة تأتي لتناسب أحوال المجتمعات في وقتها، بل وتوصل حلقات ماضي تراثها وعاداتها بالمنهج الديني الجديد، مثلها مثل المنهاج الدراسية إذ لا بد أن يعتمد الجديد منها على القديم منه، وبذلك لا يوجد تشريع ديني يخالف هذا المنهج المتسلسل من حيث صلته بالتراث الاجتماعي للشعوب. وبما ان الأمم خاضعة لمبدأ التطور الاجتماعي، لذلك ترى الأمم المتقدمة شيئاً من البساطة أو الخرافة في تعاليم الديانة السابقة. لكن ذلك لا يدعو الى السخرية بقدر ما يدعو الى تفهّم مبدأ التطور الاجتماعي والديني عند علماء الاختصاص، لأن الأديان تحرص على ربط الماضي بالحاضر وبالمستقبل. فلو تفحصنا آلهة الهنود الحمر لوجدناها متعلقة بالواقع الاجتماعي، حيث يمثلها الهندي المحارب الشجاع والصياد القوي، بينما آلهة الفايكنغ يمثل آلهتها المقاتل الشديد وهو يحمل مطرقة جبارة، أما آلهة الإغريق فهي مخلوقات رياضية رائعة الجمال تجلس حول مائدة طعام فاخرة عامرة بلحوم الغزلان اللذيذة، أما جنان عرب الجاهلية فمرتبطة أيضا بواقعهم الطبيعي وما يفتقرون له، مثل الفواكه الذيذية وبساتين وجنان خضراء ونساء أبكار وخمور وولدان، بينما نجد جنة اليهود السماوية الموعودة، مدينة شبيهة بـ (أورشليم) مبنية من الذهب الخالص والفضة ومزينة بأحجار الزمرد واللؤلؤ.[2]

كتب دوكنز:- (لا جدال بان إله العهد القديم هو من اسوأ الشخصيات الأدبية).[3]

كلما توغلنا عمقاً في التاريخ، تزداد نسبة ظهور أنواع الآلهات وصور الشياطين والجن والعفاريت في أدبيات الشعوب القديمة، وهذا ما يشغل الطابع العام لأساطير تلك الشعوب وجميعها كانت تتأثر ببعضها البعض، والعهد القديم ليس بدعاً عن ما سبقه ولحقه، فلقد كلم طفل انسان تلك الأزمنة البدائية بما يناسب عقليته. لذا ليس من الانصاف التهجم وانتقاد أفكار تلك الأمم. كما لا ننسى أنه لولا ما قدمه الكهنة والسحرة من علوم مهما كانت بسيطة ، كانت هي أساس ما نحن عليه اليوم من تقدم علمي. (توضع هنا نصوص لعلماء الحضارات تستشهد بمساهمة السحرة في ذلك). ومن الواضح أنه لم ينتبه لحكمة ما عنوّن به فصله الثاني، فمن المعلوم أن مفاهيم قصص العهد القديم (التوراة)

---

1 - الصفحة 31

2 - أنظر دراسة في المادية التاريخية. للمفكر الأمريكي جون كيرتشر، صفحة 21 وما بعدها.

3 - صفحة 32.

قديمة متصلة أصلا بالمبادئ الاجتماعية البدائية، ولهذا السبب لا يجوز مقارنتها مع الفكر المعاصر.

يكمل في ذات الصفحة ليصف الإله يهوه:- (غيور وفخور بذلك ويدقق بالتوافه وظالم وغير عادل ومتسلط قاسي ومنتقم ومتعطش للدماء ومميت للأعراق وكاره للنساء والمثليين وعنصري وقاتل للأطفال والشعوب وقاتل للأبناء ومسبب للأمراض ومصاب بجنون العظمة وسادي وماسوشي ونزوي وحقود شرس يضرب بذات اليمين والشمال دون حساب).

كلما تعمقنا في تدوينات كتب الأمم القديمة، نجد إطراداً في مشاركة رجال تلك الأديان بالزيادة والنقصان لاضافات كتبها رجال أديانهم، وبهذا لا يمكن القول أن كل ما ورد في كتاب التوراة هو من الوحي الإلهي ويتضح ذلك من خلال نصوص لا تقرها المبادئ الدينية، فلقد اعتقد كهنة الماضي أن هذا هو سبيل تربية تلك الأمم بالتخويف والترهيب من الخالق الذي يعاقب المجرمين والمخالفين لارادته، ولقد نجح هذا الاسلوب بالفعل في خلق حضارات ما زالت تدرس وتبحث نصوصها وعلومها، وقد يكون في ذلك سبيل موافق لتربية الشعوب البدائية الشرسة، فهم شعوب قادم من عمق التاريخ الهمجي، ولن يفهموا بغير لغة التخويف والترهيب، مثلما هو الحال في تربية الأطفال كثيري الحركة والتخريب حين تخويفهم بإنزال العقوبات الجسدي عليهم، فحتى الأم الرؤوم والوالد الحكيم يتلفظان بمثل هذه العبارات التخويفية، لكنهما لا ينفذانها في الغالب، فلا يصلح مقارنة اسلوب التربية في قديم الأزمنة بالتقدم الاجتماعي والتربوي للأمم الأوروبية أو الأمريكية في هذا اليوم، ولولا عاملي التخويف والترهيب من جهة وعاملي المكافأة والجزاء الحسن من جهة اخرى، لأكلت تلك الشعوب بعضها البعض. أما في هذا الزمان، فعندما نرى استاذاً أو أباً يضرب طفلاً صغيراً، ننفعل ونغضب ونرفع أمره للقضاء لمحاسبته ووقفه عند حدّه. ولهذا السبب بالذات يتوالي نزول الأديان الروحية على البشر لمواكبة تقدمهم العقلي وأحوالهم الاجتماعية. يقول الفيلسوف ديورانت:- (من بين واجبات الوالدين أن ينقلوا الى الأبناء تشريع الأخلاق، لأن الطفل أقرب الى الحيوان منه الى الانسان؛ وإنه ليتلقى إنسانيته شيئاً فشيئاً كلما تلقى جانباً من التراث الخلقي والعقلي الذي خلفه له الأسلاف؛ والطفل من الوجهة البيولوجية سيء الإعداد للمدنية، لأن غرائزه تهيئه للمواقف الرئيسية والتقليدية ولا تشتمل إلا على الاستجابة للمثيرات التي توافق الغابة أكثر من موافقتها للمدنية).[1]

يتناول الكاتب السيد المسيح بعبارات لا تليق بإنسان يقدم اقتراحاً لتغيير أخلاقيات المجتمعات ونظمه، ثم يطعن بأعظم الشخصيات المحترمة على مرّ التاريخ. فلو تفحصنا شخصية المسيح من خلال كلماته ونصائحه وما ضربه من أمثال وما ذكر عنه في الأناجيل المقدسة، لوجدناه ذاتاً لا يعلى عليها في مجالي الأدب والأخلاق، ومن المؤكد إن تجرأ الكاتب بوصفه (...) ـ لا تتجرأ أصابعي ولا قلمي على ذكر كا جاء عليه من وصف ـ قد نسي أن أعناق ملوك الأرض وأباطرتها وغالبية شعوبها قد خضعت لإسم السيد المسيح

[1] ـ قصة الحضارة المجلد الأول. صفحة 48.

الكريم وقدست ذكره، وما جرأ هذا الشخص بهذا القول، إلا لجلوسه مطمئناً أن لن يناله عقاباً في الدول المتقدمة. فهو يعلم تماما أنه في حزر بعيد من ردات الفعل العنيفة. وهذا يعود الى التغيير والتحول الحاصل في أخلاق الشعوب المعاصرة عما كانت عليه في العهود البدائية القديمة، فهو يستفيد من عامل التغيير الاخلاقي للتجاوز غير الأخلاقي. أما أن تؤخذ مسألة عدم زواج السيد المسيح كمثلبة عليه، فلو علم ما كان عليه السيد المسيح من فقر وفاقة لدرجة أنه لم يكن له مكان ينام فيه أو مخدة يضع رأسه عليها، لفكّر قليلا قبل أن يترك بغل قلمه دون لجام، مع أنه يقول (أنا لست مع الأذى والإهانة لأي انسان).[1]

## نأتي على الفصل الثاني (فرضية الإله).

وعندما ينتقد رأي إحدى السيدات في مطالبتها:- "الأطفال المسيحيين يجب أن يكونوا لطيفين ومطيعين وجيدين كما كان هو؟".[2] أي مثل السيد المسيح.

فماذا يريد أمنية أفضل من هذه الأمنية! هل يريد أطفالاً شرسين يعتدون على المارة وسكان الحيّ ويتمردون على أولياء أمورهم منفلتين طوال الليل والنهار يمارسون كل أنواع الشرور والرذيلة داخل وخارج بيوتهم وأمام أخوتهم واخواتهم؟ وهل يريدهم سيئين في تصرفاتهم وكلامهم وأخلاقهم؟ هل فكر أو تصوّر ما ستكون عليه النتيجة لو كان لرأيه مجال في تنظيم المجتمعات؟ فلن يكون أسوأ من مجتمع الغابات وسيكون هو أول المتضررين والمطالبين بضبط الأطفال بقانون شديد لأنهم بعدما كسروا زجاج شبابيك بيته وهشموا جهاز كومبيوتره لاهين لاعبين، أحبوا التمادي في فوضويتهم وشراستهم فأحرقوا بيته وبيت جاره في غفلة منه مما أدى الى احتراق زوجته وأطفاله وهم نيام.

في **الصفحة 33**، يقول:- (سأعطي تعريفاً محدداً للإله: أي قدرات على الخلق بتعقيد كاف لتصميم أي شيء لا تأتي إلا نتيجة تراكم تدريجي طويل الأمد لعملية تطورية).

هذه عبارة علمية صحيحة تماماً. فلقد خضع كل الوجود والمخلوقات لقانون التطور والنمو الدريجي، ومن المؤكد إن المخلوقات الموجودة لم تكن في بدء خلقتها على ما نشاهده الآن، فلقد بقيت تتطور وتتغير أشكالها ومن ضمنها الإنسان منذ ملايين السنين، لكن ذلك لا يعني أن الكنغر كان سمكة، ولا كانت السلحفاة أرنباً. ولكن في المقابل، هل سأل الاستاذ نفسه، هل أيمكن شرح مبدأ التطور لذلك للبدائي أو الأمي الجاهل قبل مئات أو عشرات الآلاف من السنين؟ وهل سيفهم منه ما سيحاول شرحه؟ بالطبع لا. إن كل شيء في الوجود خاضع لقانون التطور حتى في بعض الحالات اليومية، فنشاط الإنسان يتدرج في الهمة بعدما ينهض بهدوء متكاسلاً من سريره؛ والقاطرة والسيارة تبدأ بحركتها من الصفر؛ والشمس تشتد حرارتها كلما مرت ساعات اليوم، ولا تظهر بحرارتها فجأة وسط نقطة الزوال فتحرق كل شيء. ومن الجدير بالذكر ان المؤلف يركز في انتقاده لقوانين

---

[1] - صفحة 30.
[2] - صفحة 32.

الطبيعة على ما ورد في الكتاب المقدس ، وبالذات فكرة (آدم وحواء) ونزولهما من الجنة الى الأرض، وسبق وقلنا أن هذه القصص تناسب عقول الأمم القديمة، أما اليوم فلا نتوقع من طفل صغير قبولها.

يقول:- (أي تطورات للقدرات الخلقية يجب أن تكون بالضرورة قد حصلت في وقت متأخر من تاريخ الكون. وبالتالي لا يمكن أن تكون مسؤولة عن تصميمه. بهذا المعنى سيكون الإله وهماً، "وهم خبيث").[1]

الجزء الأول لهذا المنظر صحيحاً، وهو رأي علمي سليم، فعملية الخلق قديمة جداً حتى لا يمكن سبر أغوار تاريخ حصولها وقد تلاشى كل أثر لها يمكن الإشارة اليه أو تفحصه، وانقطعت كل الأخبار الموصلة لفكِ رموزها. أما القول:- "وبالتالي لا يمكن أن تكون مسؤولة عن تصميمه". فهذه مسألة بحاجة الى توقف وتأمل، حيث لا يمكن ان نرمي بها الى عامل المصادفة مثلما لا يعقل أن نترك حجراً أو قطعة خشب لملايين السنين ثم نجدها وقد تحولت الى دجاجة أو فيل، فلا بد أن كانت هناك ظروفاً مهيئة مسبقاً بقانون مرتب مهد لعملية التحول والتغيير والتطور والظهور والخلق. فنعود للسؤال المكرر: من أين جاء هذا القانون المبرمج إلا إذا كان هناك من سبق وهيأ برنامجه ونظامه؟ أما قوله أن نستنتج أن هذا الإله سيكون "وهماً"، فحسب قانون التدرج الطبيعي الذي يدعو له، إن كل ما بين أيدينا من علوم ومخترعات كانت قبل ظهورها نوعا من الأوهام قوبلت بالاستهزاء والسخرية قبل ظهورها بعدما كانت في علم الغيب، لكنها احتاجت وقتاً محدداً للتبلور والظهور، ونحن اليوم نعلم جيدا أن هناك مجموعة من العلوم والاختراعات الجديدة ستظهر مستقبلا وهي ما زالت في علم الغيب ويمكن ودون حرج إطلاق صفة الوهم عليها في هذه اللحظة لأنها في طور الخيال. لذا لا يجوز لنا السخرية مما لم يخترع بعد لأنها ستكون حقيقة بعدما تظهر من عالم الوهم الى عالم الوجود. إن منطق الرجل الجازم في النفي في قوله: "لا يمكن ان تكون مسؤولة"، هو نوع من الرجم بالغيب لا يتفق مع الفكر المادي الطبيعي المعتمد على التحليل والتجربة. وبهذا فقد نحى منحى العقائديين وسلك ذات مسلكهم حينما يحاولون اثبات وجود الله بطرقهم الظنية.

ثم يهاجم المؤمنين بوجود إله بثقة وينسب أيمانهم الى التقاليد الشعبية والرؤى الشخصية.

وهذه "الثقة" هي نوع من التزييف والتزوير بعيدة عن الأدلة العلمية الصادقة، حيث ان علماء تاريخ الأديان والانثروبولوجيا ما زالوا منقسمين حتى اليوم بين حقيقة وجود الله من عدمه، وإذا كانت الأديان من عند ذات غيبية أم هي تقاليد شعبية، فالشد والجذب ما زال مستمراً بين الفريقين. وها هو قد نفى الفريق الثاني بجميع مفكريه وعلمائه الماديين في سبيل تحقيق هدف وهمي غير مثبت، ضارباً بعرض الحائط كل ما كتبه الحكماء

[1] - صفحة 32.

والفلاسفة في هذا السبيل من أدلة على وجود الله امتداداً من فلاسفة اليونان والإغريق كما قال بذلك أفلاطون وارسطو وغيرهم الى فلاسفة العلوم الطبيعية. (أمثلة على ايمان فلاسفة اليونان بالله).

كما إن اعتماده في تفنيد وجود الله بدأه من مرحلة القبلية البدائية، ومن المؤكد أنه قرأ ذلك في مؤلفات علماء الأديان والآثار، ولم يخترعه كعلم خاص من بحوثه ومن بنات أفكاره. فما هو الدليل على صحة هذا الاقتباس؟ بينما نجد اختلاف ذات علماء ودارسي تاريخ الأديان فيما بينهم.

أما كلامه عن آلهة الإغريق والرومان والدس والتشويه لفكرتها لدعم منطقه الإلحادي، فما لا يعلمه من أسماء هذه الآلهات، إنما هي تسميات لأنبياء في الأزمنة القديمة بلغات ولهجات لم تعد تستعمل اليوم لقدم عهدها وتغيّر لغات الشعوب المستمر، فكانت فرصة ليأخذها المتشككين والملحدين ليضعوها في واجهة إدعاءاتهم. لكن ما يثبت أن كلمة (آلهة) تعني الأنبياء والقديسين، ما ورد في الإنجيل في توضيح المعنى أنه "الإنسان المقدس"، حيث قال:- (فجمع بولس كثيراً من القضبان ووضعها على النار، فخرجت من الحرارة أفعى ونشبت في يده... فنفض هو الوحش الى النار ولم يتضرر بشيء ردي... فإذ انتظروا كثيراً ورأوا أنه لم يعرض له شيء مضر، تغيروا وقالوا: هو إلـه).[1]

ثم جاءت اشارته المكررة من قبل كثيرين غيره الى ارتباط أفكار الأديان القديمة بأفكار الأديان الابراهيمية:- (اليهودية ومشتقاتها كالمسيحية والاسلام).

وكأنه يريد القول ـ وهذا ما أظن أنه سيذكره ويؤكد عليه لاحقا ـ أن الأديان تسرق أفكارها ومبادئها من بعضها البعض. سبق وذكرنا أن المنهج التربوي التعليمي الدراسي، يحمل ويعتمد في مراحل سنواته اللاحقة ذات أسس ما قدمه في مناهجه السابقة، فهل يعقل تسمية ذلك (سرقة المناهج) من بعضها البعض؟ بل هو دليل على ترابط المناهج وتوسعها في ذات المنهج التربوي التعليمي. كذلك هو المنهج الروحاني الإلهي، واحد في جميع الرسالات السماوية، فكلها تدعو الى الفضائل والأخلاق الطيبة والابتعاد عن المعاصي والأفعال السيئة. فهل سُمع بديانة تأمر أتباعها بالسرقة والقتل؟ إن تشابه التعاليم الأخلاقية والروحانية في مناهج الرسالات السماوية لهو دليل على اتحادها المنهجي وليس دليل على السرقة واللصوصية مثلما يفعل كثير من لصوص الكلمة.

في موضوع جانبي بعنوان **(تعدد الآلهة)**. صفحة 33، يقول:- (ليس من الواضح لماذا يعتبر الانتقال من نظام تعددي للآلهة الى التوحيد خطوة تطورية بشكل بديهي واضح لا يحتاج للنقاش).

---

[1] ـ سفر أعمال الرسل، الاصحاح 28، الآيات 3-6.

إن تدرج المجتمعات البشرية القديمة في التكوين الاجتماعي من الفردية الى العائلة الى العشيرة الى القبيلة الى القرية الى المدينة الى الدولة الى الامبراطوريات، كان يزامنه اعتقاد بآلهات متعددة في كل مجتمع صغير ـ وهذا دليل على وجود الأديان منذ القدم ـ ومن خلال توحد الجماعات البشرية، اختلطت أسماء الآلهات التي كانت تتعبدها هذه المجاميع البشرية حينما راحت تتسع مكوناتها، ونتيجة لهذه التجمعات ظهر تعدد الآلهة، فكانت مرحلة روحية لازمت هذه التجمعات قبل وبعد إئتلافها. وبهذا كان على الأديان ان تتطور بل تسبق الفكر الروحي البشري في إعادة الوحدة التعبدية وتنتقل الى فردية الإله، فالأصل كان تعبداً لإله واحد عند أفراد البشر البدائيين حينما كانوا يتعبدون الشمس والطواطم، وحينما ظهرت التجمعات البشرية وتكثرت أسماء المعبودات كان لا بد من إعادة فكرة توحيد التعبد الروحاني. فكلما ازدادت التجمعات البشرية كثرةً، كلما كانت الحاجة لظهور أديان توحيدية انتهت بظهور الأديان العالمية. فالتطور الاجتماعي لا بد وأن يتوافق مع التطور الروحاني. بمعنى أنه في البداية لم يكن هناك تعدد آلهات بالمعنى الظاهري المفهوم، بل تجمعات بشرية تتعبد كل منها آلهة واحدة خاصة بها، وبتجمع البشر، تجمعت أسماء الآلهات التي كانوا يتعبدونها، وبهذا ظهر تعدد الآلهة، لكن الجميع بقوا على حالتهم يتعبد كلا منهم إلهه الواحد الخاص.

في **الصفحة 34**، يقول:- (اطمح بعض الأحيان في خيالي بأن أقنع أحد أعضاء الجالية الهندوسية لرفع دعوى قضائية ضد هذا التكبر المعادي للتعددية).

سبق وقلت ان هذا الرجل يحمل فكراً إلحادياً يفتقد لنظام أو برنامج منظم، كما سبق ووصف الملحدين في مثال "قطيع القطط". ومن الواضح أنه لا يهنأ له العيش إلا في محيط تنتابه المشاكل والاضطرابات والفوضى. إن الفكر الروحي الهندوسي هو نوع قديم من عبادات الآلهة القديمة حافظ كهنته بعناد على معتقدهم البالي، وهذا أمر له مبررات في مقدمتها مصلحة الكهنة، وهي مرحلة قديمة آيلة الى الإختفاء مع تجدد الظهورات الإلهية، ناهيك عن تطور العقل البشري وتنوره من الأفكار الإسطورية القديمة، كما سبق واختفت العديد من المعتقدات والأديان القديمة حينما اعتنق أتباعها ما ظهر بينهم من معتقدات الأديان التالية. إنها مسألة وقت ولابد أن يترقى الجنس البشري روحياً وعقليا، فهو في طريقه الى النضوج والكمال وبالتالي سيكون من أسمى أهدافه توحيد الجنس البشري بعدما توحد الإله داخل العقول والصدور وحتى الملحدين حينما راحوا يصفونه بأسماء مختلفة ولكنها دالة على وحدانيته، فهذا جوهر مرتبط بالعقل الذي تميز وانفرد به الانسان دون بقية المخلوقات ولا بد لهذا العقل من ثمرة نهائية حتى يختلف عن بقية عوالم المخلوقات كعالم القطط.

أما مثاله البائس عن رجل الدين الذي أخبر مستمعيه أنه بحاجة الى ثمانية مليون دولار، وإلا فإن الله سيقتله، وكذلك مثاله عن جامعة "أورال روبرتس" وكيفية حصولهما على أموال المتبرعين، فهو أمر لا غرابة فيه بوجود الأفاقين والمشعوذين والنصابين في هذا الوقت حيث يضعون نصب أعينهم المكسب المالي ويعتمدون مبدأ (الغاية تبرر

الوسيلة) حتى ولو كانت على حساب الروحانيات والأديان وبساطة عقلية البشر. وكتاب (وهم الإله)، هو جزء لا يرقى عن هذه النوعيات فهو يتوقع الانتشار والتسويق بين أنصاف المتعلمين والناقمين على نظم مجتمعاتهم. لكن الأمل كبير بانتشار الثقافات الدينية والفكرية النقية وانتهاء مثل هذ الوسائل الملتوية.

وليس من الواضح الغاية من تناوله بالسرد لتعدد آلهة الدين الهندوسي، فإذا كان للتحريض على تبني فكرة الشرذمة والتشتت، فهذا أمر سبق وأوضحه في مثال القطط، أما إذا كان للاستهزاء، فهو يناقش بعقلية علوم الذرة والفضاء مفاهيم دينية لما قبل ظهور الأديان الإبراهيمية، وهذا تناول وقياس غير منصف. فمثلما يتقبل أو يرفض فكرة الآلهة، فهناك من يتقبل ويرفض فكرة الإلحاد التي يدعو لها. وفي كلا الحالتين، فتطور العقل البشري وتنوره مستقبلاً كفيل بإزالتهما معًا.

يقول:- (أريقت أنهار من الحبر إن لم نقل الدم أيضا، في العصور الوسطى على "سرّ" الثالوث المقدس.. والخلاف على المعنى شطر العالم المسيحي لمدة قرن كامل وأمر الامبراطور قسطنطين بحرق كل كتب أريوس الاسكندري. هذه طريقة اللاهوت منذ الأزل... التفرقة).

هذا الاختلاف في فهم اللاهوت المسيحي، لا يمكن نسبته الى السيد المسيح(ع)، إنما هو من نتائج التعصبات البشرية تجاه الأديان والمعتقدات وحتى بين الأحزاب وأصحاب النظريات الوضعية. فلا علاقة للأفكار البشرية بالمناهج الروحانية الإلهية، وليس من الضروري الضرب على هذا الوتر الحساس في إثارة أصحاب العقائد المسالمة. فالفتنة وحش نائم واللعنة على من يوقظها.

صفحة 35:- (هل هناك إله بثلاثة أقسام أم ثلاثة آلهة في واحد؟).

هدف جميع الأديان والدعوات الإلهية توصيل الفكرة لاستنهاض روح الانسان. وطريقة التوصيل بحاجة دائما الى ثلاثة جوانب أو ثلاثة مراكز، (المرسل، والمرسل اليه، والواسطة). أنت وأنا والكتاب، أنت وزوجك والتلفون، التلميذ والمعلم والمنهج، الكاتب والقارئ والصحيفة...الخ. وبمعنى آخر: يهوه والألواح وبني اسرائيل، الله ومحمد وجبريل، الله والمسيح وروح القدس. وفي الحقيقة لا أأمل منه ـ رغم هذا التبسيط ـ أن يتقبل الفكرة، ليس بسبب عدم الفهم، بل لتبنيه منهج قطيع القطط الفوضوي.

لم يوفق الكاتب في اقتباسه من الموسوعة الكاثوليكية عن مقولة للقديس غريغوري في شرحه للمفهوم المسيحي عن مفهوم الثالوث المقدس. والسبب لأنه انتخبت رأيا من عدة آراء للطعن به. إضافة الى أن غريغوري بشر يعتنق الدين المسيحي مثل غيره قد يصيب وقد يخطيء. وكل ما حاول انتقاده عن مفهوم الثالوث المقدس لرجال الدين المسيحي، هو في أصله موجه الى الفكر البشري لرجال الدين وليس الى الفكر الإلهي، بينما يحاول بلعبة "الثلاث ورقات" تشتيت فكر القارئ للغاية المنشودة في نكران الايمان والدعوة لركوب مطية الإلحاد.

**الصفحة 36**:- (توجد قائمة عند مجمع المنتدى الكاثوليكي بـ 5120 قديساً مع اختصاصاتهم المختلفة، والتي تضم أوجاع البطن وضحايا العنف وفقدان الشهية وتجار الأسلحة والحدادين... وعلينا ان لا ننسى جوقة المضيفين الملائكيين وملائكة العرش وملائكة الخير ورؤساء الملائكة وعدد من الملائكة العاديين).

ما زال يناقش بعقل تنويري معاصر أفكاراً دينية بعمر أكثر من ألفين عام لها صلة وثيقة بما سبقها من أفكار الأديان القديمة ومجاميع تعدد الآلهات، وهذا احتكام غير منصف. فمن الطبيعي ان تتأثر عقول المؤمنين المسيحيين بما حملته مجتمعاتهم من أفكار قديمة بالية، وعلينا أن نتذكر ان إدخال مثل هذه الأفكار قد تم بواسطة رجال الدين ولم يدخلها المزارع او الحداد والنجار. أما تعليقه عما يعتقده عن نجاة البابا يوحنا بولس الثاني من محاولة القتل ونسبة ذلك لتدخل السيدة العذراء، إنما هو أمر تقتضيه متطلبات "المهنة" وطقوس الأديان، وهو رأي شخصي وليس رأي السيد المسيح(ع). ولا حاجة للوصل بين الاثنين والتصيد في الماء العكر. فلا نسبة للمقارنة بين من عاش وصلب وهو لا يملك شروى نقير وليس له مكاناً ليضع عليه رأسه المبارك حتى ينام، مع من يلبس أزياء مطرزة بالذهب والجواهر بإسم ذلك الفقير الشاب الشهيد.

**صفحة 37**:- (بعض علماء الدين التقدميين يدعوون بعدم وجود جنس محدد للإله).

الذكر والأنثى، من طبيعة الأجسام المادية غايته استمرار الوجود المادي الطبيعي للمخلوقات بالتكاثر. أما في عالم الأرواح، فلا حاجة للنوعين، لإنتفاء عملية التكاثر فأرواح البشر ستبقى كما هي هناك ولا يزداد أعدادها إلا عند وفاة أهل الارض على التوالي. مثل ذلك مثل الجنين في بطن أمه، لا يمكنه إطلاقاً معرفة معنى (الذكورة والأنوثة) خارج عالم الرحم، بل وحتى بعد خروجه بسنوات قليلة. فلا تستعجل التعجب عن العالم الثاني.

**صفحة 38**:- (أنا لا أهاجم نوع معين من الآلهة. أنا أهاجم الله، كل الآلهة، أي نوع من الآلهة، كل ما هو خارق وما ورائي أينما وحيثما وجد أو سيوجد).

اسلوب متهالك ممجوج بشدة، كذاك الذي صعد فوق طاولة في حديقة عامة ورفع يده لخمس دقائق متحدياً الله أن يقطعها. يهيأ لي ان مثله مثل نملة في بيداء تصرخ بأعلى صوتها متحدية قوى العالم مجتمعة، فلا تسمع لندائها جواب. إن الله (غيب منيع مقدس لا تدركه الحواس المادية)، فحتى الرسل والأنبياء وهم مبعوثيه الخواص لم يتعرفوا عليه. وكما سبق وذكر جون كيرتشر، كل مجتمع يظن الله حسب مفاهيم مجتمعاته، فمن ظنه مقاتلاً ومن ظنه جميلاً وآخر يعتره أب قاس الى ذلك من الظنون. ودوكنز الآن يظنه يملك إذناً وعيناً و يداً فيسمعه و يستجيب لتحديه.!

**صفحة 39**:- تحت عنوان جانبي آخر **(ديانات التوحيد)**. يقتبس دوكنز مقولة تقول:- (انبثقت ثلاث ديانات حاقدة على البشرية ـ اليهودية والمسيحية والاسلام).

لو أدرك أن حياة الانسان الفرد هي صورة مختصر لحياة البشرية عموماً، لأعطى لنفسه فرصة لتفهم ما كان من أمر القوة والقسوة في تربية البشرية البدائية القديمة. فلقد جاء هذا الانسان من عمق تاريخ الوحوش والكواسر وفي نفسه تتغلغل صفات الشراسة والعنف ومبدأ استعمال القوة وليس له علاقة بغير قانون الغاب، وعقلية ذلك الهمجي تعتمد على العنف والسيطرة والتسلط والقتال والحرب والسيف وقوة السواعد..الخ، هذا هو ما استيقظ عليه ذلك الانسان البدائي من أخلاق وتصرفات حتى عصور تاريخية قريبة. فمثل هذا الهمجي لا يمكن معاملته بمبدأ الإقناع والتحاور والمشورة والأخذ بالرأي والرأي الآخر وتقليب جوانب الأمور والمعضلات بالتروي والإقتداء بأحسن الحلول وأسلمها. هذا الانسان الشرس كان يلجأ لساعده ورمحه كلما احتاج حلولاً، فليس لديه حلولاً وسط، فأما أبيض أو أسود، إما معي أو ضدي. لذلك كانت القوانين الإلهية تتسم بالقوة والعنف والقسوة فلا مجال للتعامل اللطيف بالمودة والرجاء مع تلك الوحوش البشرية. فكم من مرة لم يجد دوكنز سبيلا لفض خلاف مع آخر يحمل قفلا صدءاً في جمجمته إلا باستعمال يده؟ لقد كانت عقول البشر أسوا بآلاف المرات من شاكلة هذا "القفل". لهذا السبب كانت قساوة الأحكام الإلهية القديمة تتناسب مع حالة هذا الانسان الشرس.

يقول الفيلسوف ديورانت:- (ذلك لأن الجماعات الإنسانية قد ارتضت أن تقيم تشريعاتها الخلقية على أساس من المنفعة الاقتصادية والسياسية الصريحة، إذ الفرد لم تهيئه طبيعته بميول التي تميل به نحو إخضاع مصالحه الشخصية لمصالح المجتمع، أو نحو طاعة القوانين المحرجة للصدور إذا لم يكن ثمة من الوسائل المنظورة ما يفرضها عليه بالقوة؛ فلكي تقيم المجتمعات على الأفراد حارساً غير منظور، ولكي تقوي فيهم الدوافع الاجتماعية ضد الدوافع الفردية بما تثيره فيهم من آمال قوية ومخاوف قوية، فإنها استخدمت الديانة - وإن لم تخترعها – ولقد عبر الجغرافي القديم "سترابو" عن أكثر الآراء تقدماً في هذا الموضوع منذ تسعة عشر قرنا، فقال: إنك في معاملتك لحشد من النساء، على أقل تقدير، أو معاملتك لأية مجموعة من الناس اجتمعت كما اتفق، لا تستطيع بالفلسفة أن تؤثر فهم، أنك لا تستطيع ان تؤثر فيهم بالعقل أو ان تقنعهم إقناعا بضرورة الوقار والورع والأيمان كلا، بل لابد لهم من الخوف الديني أيضاً. ولا يمكن إثارة هذا الخوف في نفوسهم بغير الأساطير والأعاجيب؛ فالصواعق والدروع والصولجانات والمشاعل ورماح الآلهة، كل هذه الأساطير، وكذلك منها اللاهوت القديم من أوله الى آخره).[1]

ولكن لننظر في المقابل، ما فعلته تلك القوانين القاسية حينما أنتجت عقلية الانسان المتطور في هذا اليوم الذي يدعو لتربية الأطفال تربية نموذجية علمية صحيحة وعدم استعمال العنف الجسدي معهم وتخصيص أفضل المعلمين والمدارس لتربيتهم، وبهذا تكون تلك القوانين القاسية التي ينتقدها هي التي انتجت أثمار العقل المتمدن. وهذا دليل واضح على سلامة ذلك الإسلوب القديم. ثم لنضرب مثلاً على ذلك، لو وضعنا حكيمين

[1] - قصة الحضارة. المجلد الأول. صفحة 52.

لتدريس مجموعتين مختلفتين من الأولاد، الأولى أولاد شوارع سيئي الأخلاق، والثانية أبناء عوائل محترمة، أفلا تعتقد ان تصرف الحكيمين سيكونا مختلفين في الحالتين، فعلى الغالب أن يستعمل الحكيم الأول الشدة والقوة مع السيئين بطريقة ما، بينما لن يحتاج الحكيم الثاني إلا اللسان اللطيف ووسائل الإقناع. إن تدرج نضوج البشرية وعقليتها استغرق ملايين السنين ليتطور ويصل الى ما نحن عليه اليوم، فلا يجب نسيان مستويات اختلاف أخلاق البشر في جميع مراحل تاريخه.

قال:- (هذه ديانات إله السماء. إنها ديانات أبوية حرفيا ـ وهذا يشرح البغض العميق للنساء في تلك البلدان المصابة بإله السماء ووكلائه الأرضيين من الذكور).

مسألة ظهور فكرة الذكورية والأبوية في منهاج الأديان القديمة وما بعدها في (الاسلام والمسيحية واليهودية)، هو تاريخ لشري متسلسل قادم من عمق التاريخ ليس من السهل على أي نبي أو رسول او حكيم أن يأمر او ينصح بنبذ فكرته، فالمجتمع مبني منذ قدم التاريخ منذ أيام الكهوف والمغارات على مبدأ القوة والعنف والتسلط، وفكرة القوي والضعيف والسيد والعبد، بل إن أعمدة كيانات تلك المجتمعات كانت قائمة على هذه الأسس الاجتماعية، ولو كانت غير متفقة مع مبدأ أحوال تلك المجتمعات، لقام البشر على تغييرها، فعدم ظهور معترضين لمبادئ القوة والقوانين الصارمة، هو بحد ذاته دليل على توافق منهج القوة والعنف مع تلك الأزمنة ومجتمعاتها. إن ما حملته الأديان القديمة من فكرة تسلط الرجل على المرأة كان موروث اجتماعي توافق مع ما جاء من تراث عتيق مواكب للتاريخ البدائي بعدما ترتبت وبنيت عليه مقومات تلك المجتمعات القديمة منذ عشرات الألوف من السنين؛ لذلك ليس من السهل تغيير هذه القوانين الذكورية وتبديلها إلا بالتدريج وانتظار نضوج العقل البشري وظهور عصر الآلات والمكائن والكومبيوتر؛ وحتى لو افترضنا بشروع تلك المجتمعات بالتغيير، فلن يكتب لها النجاح لاصطدامها بأسس أنظمة قديمة مخالفة ومغايرة لا بد من أزالة أسسها المتجذرة في عمق عقلية تاريخ الشعوب، وهذا ما سيقف في وجهه عامل التراث والتقاليد والعادات والحلال والحرام والتابو والطوطم إضافة الى مبدأ التدرج في التطور. إنها ليس بمهمة سهلة كما ظنها يمكن إجراءها بكلمات وحركات سحرية.

لنأخذ مسألة العبودية على سبيل المثال، فلقد قامت مجتمعات بني البشر منذ الأول الذي لا يسبر له علماء التاريخ والحضارات غور على مبدأ الأسير والأجير والرهين والعبد والقنّ والسخرة لأداء أعمال المجتمعات من بناء وزراعة ورعي وصيد وغيره، وبقيت آثار كل ذلك حتى زمن نزول شريعة التوراة، حيث نرى إن أفضل ما قامت الديانة اليهودية لمواجهة هذا الفكر الاستعبادي هو تنظيمه وليس إلغاءه. وعندما جاءت شريعة الاسلام كانت فكرة العبودية ما تزال قائمة وأس من أساسات المجتمع العربي وبقية الشعوب، وكل ما قدمه الاسلام في هذا المجال تشجيعه على إطلاق سراح العبيد ومدح القائمين عليه ووعدهم بالجزاء الطيب في الآخرة، بينما لم يأمر بتحريمه جزماً. لقد امتازت الشريعة الاسلامية بالقوة مثلما كان الحال مع الشريعة اليهودية، والاثنان نصحا بمعاملة الأجراء

والعمال والعبيد بطريقة طيبة وشجعا على التعامل معهم بالأخلاق الحميدة ونهيا عن ممارسة الأفعال القبيحة تجاههم وتحريرهم إذا كان بالامكان ذلك. لكنهما لم يتقربا من الأمر القاطع بإلغاء العبودية، لماذا: لأن الحالة العامة لاقتصاد مجتمعات تلك الأزمنة كانت قائمة على هذه المبادئ القاسية، وكان لا بد من مضي الزمان وتوالي القرون حتى تتغير ظروف المجتمعات ويبدأ العقل البشري بإدراك سوء هذه الظاهرة وضرورة التخلص منها وأنها لا تتفق مع القيم والمثل العليا التي بدأ انسان الوقت الحاضر يدخل أبوابها، خاصة بعدما تبدلت سبل العمل وظهرت الماكنة والتقنيات الحديثة، لذلك بدأت قوانين شرائع الشعوب بإلغاء الرق والعبودية بالتدريج حتى جاء وقت إعلان ذلك عالميا بقانون الأمم المتحدة في تبني حرية الانسان، وحتى هذا القانون الدولي العام بدأ تطبيقه بالتدريج واحتاج سنوات طويلة للتعديل والتوضيح والتثبيت، ولم يطبق مرة واحدة.

وعلى ذات المنوال جاء قانون إعطاء المرأة حقوقها وحريتها في تقرير مصيرها، فحتى اليوم ـ والرجل ينادي ويهاجم الإله والأديان ـ كان من الأفضل له لو نادي بنفس هذه القوة لتحرير المراة وإعطائها حقوقها، فهذا ما سينصف حقوق نصف تعداد البشرية بالتمام والكمال، وستسعد جميع عوائل البشر وتحفظ له الجميل، حيث لا يوجد بيت يخلو من المرأة. إن مبدأ استغلال المرأة والانتقاص من شأنها وحجب حريتها وتحميلها مشاق أعمال البيت والعائلة بالاضافة الى منع تعليمها أمر يخالف مبدأ الإنصاف والعدالة، وهناك شعوب كثيرة تعامل المرأة معاملة الأسرى والعبد والقن والرهينة بل ولا تعتقد استحقاقها إلا قسوة المعاملة والضرب والإهانة. فمثل هذا الفكر المتخلف، ما كنا سنستهجنه ونعتبره متخلفاً ظالماً لو عشنا قبل عدة قرون بل وحتى قبل عدة عقود، ولمارسه هو وأنا وأنت دون ان يهتز لنا رمش رحمة ولأعتبر نوعاً من الرجولة والفحولة. لذلك فمثل هذا الأمور الوراثية التراثية ليس من السهل تغييرها وكانت بحاجة لمسيرة زمانية طويلة للتعود على تطبيق مبادئ التقدم والعدالة. وبالمناسبة فمثل هذا التسلسل يعود ليلتقي بمبدأ قسوة القوانين الإلهية في مناهج التربية البشرية ويلتقي أيضا بمبدأ تعدد الآلهة القديم، حيث لا يمكن إلغاء كل ذلك والمجتمعات تعتمد عليها اجتماعيا واقتصاديا وروحيا وفكريا.. الخ.

يقول:- (أقدم الديانات الابراهيمية الثلاث وهي بدون شك الجد المشترك للديانتين اللاحقتين، هي اليهودية).

إن أقدم الديانات هو الدين الابراهيمي وليس الدين اليهودي، ومن جوهر الدين الإبراهيمي ظهرت ديانات الشرق الأوسط وديانات الشرق الأقصى وديانات أوروبا. فلو بحث جيداً لوجد فكرة المخلص موجودة عند سكان جزر المحيط الهادي وعند الهنود الحمر، مما يدل على أن الديانة الابراهيمية كانت واسعة الانتشار.

يقول:- (ونشأ الاسلام على كتاب مقدس جديد اسمه القران، والذي احتوى على توجه فكري جديد ألا وهو نشر الدين بالقوة العسكرية).

مبدأ القوة والعنف هو مبدأ بشري قديم كان لا بد من النزول الى سلوك ذات سبيله في الدفاع عن النفس والعائلة في مجتمع كان وما زال يحارب كل فكر جديد ويتعامل معه بقطع الرقبة في الشوارع والساحات العامة، لذا كان لا بد من مقاومته بذات السلاح خاصة والبشرية كانت وما تزال تستعمل القوة والسيف في حل مشاكلها بين بعضها البعض، ولولا تلك المواجهة، لما بقي اسلام ولا مسلمين ولإنتهى أي ذكر لهذا الدين.

قال:- (المسيحية كذلك انتشرت بالسيف).

ذكرنا أن قانون السيف والرمح والقوس مبدأ بشري اجتماعي استمر حتى اليوم مثلما كان مبدأ العبيد والعبودية، ولو كنا نعيش نحن دعاة السلام والمحبة في ذلك الوقت، لما عارضناه. كما أن مبدأ القوة لم تختص به ديانة معينة أو أمة من الأمم، فلقد كان العامل المشترك بين جميع شعوب الأرض.

قال:- (انتشرت المسيحية بالحملات الصليبية وبعدها بحملات أوروبية أخرى مرافقة بحملات تبشيرية).

ذكرنا أنه مبدأ قديم لأتباع الأديان وغيرها من بقية الشعوب، وليس من العدل مقارنته بفكر ومبادئ السلام العالمي لهذا اليوم. كما علينا أن نتذكر أن السيد المسيح لم يأمر أو يسمح باستعمال السيف والقوة وسفك الدماء.

قال:- (فإن الديانات الابراهيمية الثلاث من الممكن اعتبارها ديناً واحداً دون تفريق).

هذا أمر صحيح. فجميعها تدخل ضمن إطار (كور الأديان الإبراهيمية) التي بدأت بدعوة النبي آدم وانتهت بدعوة النبي الخاتم)، فبرنامجها كان واحداً وهو:- (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) كما لخص ذلك القران الكريم. فمثلما توجد حلقات أديان متتابعة، كذلك هناك حلقات أكبر للأديان متشابهة الأهداف يطلق عليها ( أكوار )، وتشمل الأكوار مجموعة أديان ذات هدف مشترك واحد، فالكور الذي ضمّ الدين الاسلامي رجوعا الى دين آدم يسمى بـ (كور التوحيد)، أما ما سبقه فيسمى بـ (كور تعدد الآلهة)، والأقدم منهما (أكوار الطواطم والتابوهات والشامان، والآباء .. وهكذا حتى ظهور البشر من تربة الأرض)، فلكل زمان مجموعة أديان تستمر لعدة آلاف من السنين على منهج واحد لتربية الانسان وتعليمه حتى يصل الى مرحلة النضوج الأخلاقي والعقلي. ومع ذلك ما زال هذا "الانسان الشرس" يستعمل القوة حتى اليوم، منها بطريقة النبلاء ومنها بطريقة الجبناء، ويمكن ملاحظة امتداد هذا الشر في هذا اليوم بوجود الصنف الأخير الذي يهاجم وينتقص من آراء غيره حينما يجد نفسه آمن الجانب والمأوى في مجتمع يعطيه الحرية والحماية في قول ما يريد. أما لو كان هؤلاء الداعين الى المساواة والحرية الشخصية كذباً ويعيشون في مجتمعات ما زالت متأثرة بفكرة العنف الديني القديم، فكل الظن أنهم سيكونوا أول المناصرين للعنف وسيقطعون رأس كل معارض لهم؛ فالمبادئ والأفكار السلمية التي يدعو دوكنز لها، هي ثمرة تربية الأديان السماوية السابقة لمجتمعات البشر والتي أعطته وغيره الفرصة ليتمتع بحرية الكلمة والرأي والإلحاد، لو كان قد فهم تسلسل سلالم التربية

والتعليم وتدرج مراحل العلوم عبر التاريخ ومن أين كان مبدأها، لتغير رأيه بالتاكيد، فهو وأمثاله وكاتب السطور لم يشاركوا في البناء والتمهيد القديم الذي استمر لمئات الآلاف من السنين حتى بدأت تظهر ثمرة مبادئ السلام العالمي في هذا اليوم، فجميعنا نعيش اليوم على نتائج ذلك الجهد طويل الأمد. (يدخل قول لتأييد علوم الأولين) إن عملية انتقاد سلوك الأمم القديمة والتقليل من شأنها، مثل من دخل حقل في زمن الخريف وتوجه بغضبه نحو الفلاحين والزراع ليلومهم على عدم نضوج فاكهة الأشجار.

صفحة 40:- (ولن أناقش الديانات الأخرى كالبوذية أو الكونفوشية. الحق يقال أن هذه المذاهب يجب أن تناقش كفلسفات وأنظمة أخلاقية للحياة وليس كأديان).

من الواضح جداً ضعف معلومات الرجل بعلم الأديان، حينما لا يفرق بين الدين والمذهب والفلسفة، ومعه في ذلك كل الحق، فهو رجل علم وليس غير ذلك. إن تعريف الدين هو أن يكون هناك كتاب ورسول وأحكام شريعة وأمة، بينما المذاهب هي مجموعة شرائح دينية تتبنى شريعة كتاب واحد وتتبع نفس الرسول لكن لها شيخ مختلف. ومن المعلوم أن الديانات القديمة مثلها مثل الانسان تبدأ صغيرة ثم تكبر ثم تموت، ومتى ما ماتت، فلا يتبقى من جواهر تعاليمها شيئاً، وقد تختفي حقائقها تماماً بسبب عاديات الزمان، مما يصعب على الباحثين التوغل الى عمق تاريخها الأصيل، ناهيك عن قلّة الكتب المترجمة عن حقائق الأديان بلغاتها القديمة وما اختفى منها بسبب عدم وجود الكتابة. ولأن الكاتب يستهدف الأديان ويعاديها ويصفها بالعنف والشراسة، وجد في تصرفات أتباع الأديان الابراهمية ما يحقق له هدفه وما يدعو اليه، أما حينما لم تجد ما يطابق فرضيته في أديان الشرق الأقصى أو لنقل عدم اطلاعه عليها، لذلك وصفها بالمذاهب وليس بالأديان. أنه يمارس عملية التدليس بمهارة تنطلي على من يستهدفهم في خطابه من بسطاء الفكر، لدرجة أن يتجرأ بتغيير صفاة الأديان الى مذاهب والعكس صحيح، مثلما سبق ووصف مذهب المورمون كديانة.

قال:- (في البداية أريد أن أقوم بتطوير تعريفي لنظرية الوجود الإلهي.. وأزيل أي سوء فهم عن تعريف الإله الإبراهيمي. إنه ليس الذي خلق الكون فقط. بل إنه إله شخصي موجود ضمنه أو خارجه، ويمتلك الصفات الانسانية الغليظة).

خالق الكون هو (ذات الغيب المنيع المقدس الذي لا يدرك)، وهذا يعني عجز قوى الإدراك والعقول والتصورات البشرية عن معرفته والوصول اليه بأي شكل من الأشكال؛ يؤيد ذلك ما قاله "جون كيرتشر": (فالدماغ لا يمكنه عكس ما هو غير موجود. فهو لا يعكس إلا الأمور الحقيقية والواقعية. عندما يولد الإنسان يكون عقله صفحة بيضاء ناصعة لم يدوّن عليها أي شيء بعد.)[1] ثم يكمل قوله: (إذا لم تدخل الدماغ أيّة مستقبلات حسية، فلا يمكن أن يكون هناك فكر).[2] ثم يؤكد على أن الإنسان لا يمكنه التفكير في أمر إلا إذا كان له شبيه في العالم المادي، وهذا يعني: طالما ان الله غيب منيع، فلا يمكن

---

1 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 13.
2 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 14.

تصوره على الإطلاق، قال:- (لا توجد صور فكرية في الدماغ إلا تلك التي يوجد لها مقابل في مكان ما من العالم الخارجي. بمعنى آخر، كافة الأفكار، مهما كانت معقدة أو غامضة، لها مصادر مادية خارجية، ويجب أن تكون مادية في أصلها. لا يمكن أن ينبثق الفكر من أي شيء إلا المادي. ولا يمكن أن ينبثق من لا شيء. وحتى الأمور والأفكار الخيالية، كبابا نويل على سبيل المثال، يوجد أصل مادي له في العالم المادي متجسّد في صورة رجل عجوز لطيف المظهر ذو لحية طويلة وبيضاء. أو كما يقول جوزيف ديتزغين فيما يتعلّق بالإيمان بالآلهة: ما هي إلا عبارة عن تركيبة فكرية لجسد أنثى يافعة ذات أجنحة على ظهرها. كلا الأمرين ماديان، الأجنحة والأنثى اليافعة.).[1] ويعود ليؤكد على عدم قدرة العقل على معرفة شيء ما، إلا إذا كان موجوداً في الطبيعة:- (من المستحيل التفكير في أي شيء ليس له مصدر مادي. لم يكن هناك أي فكر في عقل الإنسان سوى ذلك الذي يمكن إرجاع أصله إلى الطبيعة ذاتها. لا يمكننا التفكير بلا شيء. حاولوا ذلك وانظروا بأنفسكم إلى أي مدى ستبلغون.).[2] ثم يعود ليؤكد بشدة على عجز العقل البشري على التفكير بأمور لا شبيه لها في هذا العالم المادي، قال:- (إلا أنّه ما زال هناك بعض الناس الذين يؤمنون أنّ الفكر متأصّل، أي أنّنا عندما ولدنا كانت أدمغتنا مجهّزة مسبقًا بمخزون معرفي كامل. هذه الفكرة غير منطقية على الإطلاق. فمذهب الأفكار الفطرية قد تمّ استبعاده الآن بشكلٍ كامل. هناك آخرون، في حين أنّهم لا يؤمنون بأنّ المعرفة متأصّلة في الدماغ البشري، نراهم يعذّبون أدمغتهم في البحث عن أشياء غير موجودة. إنّهم يعتقدون أنّهم إذا حبسوا أنفسهم داخل غرفة مغلقة فباستطاعتهم استخراج المعرفة من "أعماق عقولهم"، بطريقة أشبه باستخراج الماء من داخل البئر. فالشيء الذي لا يدخل إلى العقل لا يمكن استحضاره منه. فإذا أردنا أن نمتلك معرفة حول موضوع معيّن علينا أن نعود إلى مصادره المادية ورصده بحواسنا، أو علينا الرجوع إلى الكتب أو وسائل أخرى لتحصيل تلك المعرفة التي عمل آخرون قبلنا على تحصيلها ومراكمتها باستخدامهم لحواسّهم وتسجيلها في الكتب. ينبغي أن يتّضح أمام ناظريّ كل إنسان يمتلك ذرّة ذكاء أو عدم تحيّز أنّ البيئة المادية هي أساس ومصدر جميع الأفكار. والبيانات التالية التي أقدّمها حول بعض الأديان الرئيسية في العالم هي بغرض إثبات صحّة ما ذهبت إليه.)[3]

إن الله لا ينزل من مكان تقديسه ليتكلم مباشرة مع البشر، ولا يمكن للعقل تصوره، لذلك يرسل رسله وأنبياءه نيابة عنه لتربيتهم، وهذه هي سنته التي لا تبديل ولا تغيير لها منذ خلق الكون. ولتحقيق برنامجه التربوي الأزلي المستمر بقي يرسل رسله عن طريق وحيّ أو إيحاء او رؤيا أو منامات لتربية البشر، وبغير طريقة منهج هذه التربية والتعليم كلما إزداد تطور المجتمعات البشرية، لأن الانسان لا يمكنه التعلم إلا بوجود معلم، فالعقل البشري مثل جهاز كومبيوتر، إذا لم يملأ بالبرامج المطلوبة يبقى كقطعة حديد لا نفع منها، ولولا هذه المناهج التربوية الإلهية ورسل الله المستمرين، لبقي الإنسان في مستوى أدنى

---

1 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 15.
2 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 15.
3 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 16.

من مستوى الحيوان وأكثر شراسة، وقد بدأ برنامج التربية والتعليم حتى من قبل زمن الآلهة/الأنبياء، وهؤلاء كانوا أول معلمي البشر، ولا معلم للبشر سواهم.

يقول بهاء الله[1] في أحد ألواحه:- (إن الذين أنكروا الله وتمسكوا بالطبيعة من حيث هي هي ليس عندهم من علم ولا من حكمة ألا إنهم من الهائمين. أولئك ما بلغوا الذروة العليا والغاية القصوى، لذا سكِّرت أبصارهم واختلفت أفكارهم. وإلا رؤساء القوم اعترفوا بالله وسلطانه يشهد بذلك ربك المهيمن القيوم. وَلَمَّا مُلئت عيون أهل الشرق من صنائع أهل الغرب لذا هاموا في الأسباب وغفلوا عن مسببها وممدها مع أن الذين كانوا مطالع الحكمة ومعادنها ما أنكروا علتها ومُبدعها ومَبدأها إن ربك يعلم والناس أكثرهم لا يعلمون. ولنا أن نذكر في هذا اللوح بعض مقالات الحكماء لوجه الله مالك الأسماء ليفتح بها أبصار العباد ويوقنن أنه هو الصانع القادر المبدع المنشيء العليم الحكيم. ولو يُرى اليوم لحكماء العصر يد طولى في الحكمة والصنائع ولكن لو ينظر أحد بعين البصيرة ليعلم أنهم أخذوا أكثرها من حكماء القبل وهم الذين أسسوا أساس الحكمة ومهدوا بنيانها وشيدوا أركانها، كذلك ينبئك ربك القديم. والقدماء أخذوا العلوم من الأنبياء لأنهم كانوا مطالع الحكمة الإلهية ومظاهر الأسرار الربانية، من الناس من فاز بزلال سلسال بياناتهم ومنهم من شرب ثُمالة الكأس لكل نصيب على مقداره إنه لهو العادل الحكيم. إن أبيدقليس الذي اشتهر في الحكمة كان في زمن داود، وفيثاغورث في زمن سليمان ابن داود وأخذ الحكمة من معدن النبوة. وهو الذي ظنَّ أنه سمعَ حفيف الفَلَكِ وبلغ مقام المَلَكِ، إن ربك يفصل كل أمرٍ إذا شاء إنه لهو العليم المحيط.[2] إن أُسَّ الحكمة وأصلها من الأنبياء واختلف معانيها وأسرارها بين القوم باختلافات الأنظار والعقول. إنا نذكر لك نبأ يوم تكلم فيه أحد من الأنبياء بين الورى بما علمه شديد القوى إن ربك لهو الملهم العزيز المنيع، فلما انفجرت ينابيع الحكمة والبيان من منبع بيانه وأخذ سُكرُ خمر العرفان مَن في فنائه قال الآن قد ملأَ الروحُ من الناس من أخذ هذا القول ووجد منه على زعمه رائحة الحلول والدخول واستدل في ذلك ببيانات شتى واتبعه حزب من الناس. لو إنا نذكر أسماءهم في هذا المقام ونفصل لك ليطول الكلام ونبعد عن المرام إن ربك لهو الحكيم العلام. ومنهم من فاز بالرحيق المختوم الذي فك بمفتاح لسان مطلع آيات ربك العزيز الوهاب، قل إن الفلاسفة ما أنكروا القديم بل مات أكثرهم في حسرة عرفانه كما شهد بذلك بعضهم إن ربك لهو المخبر الخبير. إن بُقراط الطبيب كان من كبار الفلاسفة واعترف بالله وسلطانه وبعده سقراط إنه كان حكيماً فاضلاً زاهداً اشتغل بالرياضة ونهى النفس عن الهوى وأعرض عن ملاذ الدنيا واعتزل الى الجبل وأقام في غار ومنع الناس عن عبادة الأوثان وعلمهم سبيل

---

1 - مؤسس الدين البهائي 1817-1892م.

2 - وكان فيثاغورس (Pythagoras) في القرن السادس قبل الميلاد هو الذي اكتشف أن المسافات الموسيقية جميعا تخضع لنسب رياضية معينة، وتتوقف على تردد الذبذبات، واستنبط من ذلك أنه لا بد من وجود نظام عددي وميزان موسيقي في الأشياء جميعا، سواء في الأرض أو في السماء. ولما كانت الكواكب تتحرك بسرعات مختلفة، فمن الواضح أن حركاتها سوف تنتج أصواتا وفق هذه السرعات، ولا مناص لهذه الأصوات من أن تتناغم في انسجام. وهكذا نشأت فكرة انسجام الأفلاك. (كتاب فكرة الزمان عبر التاريخ. كولن ولسون. ترجمة د. فؤاد كامل. صفحة 91).

الرحمن الى ان ثارت عليه الجهال وأخذوه وقتلوه في السجن، كذلك يقص لك هذا القلم السريع. ما أحدَّ بصر هذا الرجل في الفلسفة إنه سيِّد الفلاسفة كلها قد كان على جانب عظيم من الحكمة. نشهد أنه من فوارس مضمارها وأخص القائمين لخدمتها وله يد طولى في العلوم المشهودة بين القوم وما هو المستور عنهم كأنه فاز بجرعة إذ فاض البحر الأعظم بهذا الكوثر المنير. هو الذي اطلع على الطبيعة المخصوصة المعتدلة الموصوفة بالغلبة وإنها أشبه الأشياء بالروح الانساني قد أخرجها من الجسد الجواني وله بيان مخصوص في هذا البنيان المرصوص. لو تسأل اليوم حكماء العصر عما ذكره لترى عجزهم عن إدراكه إن ربك يقول الحق ولكن الناس أكثرهم لا يفقهون. وبعده أفلاطون الإلهي إنه كان تلميذاً لسقراط المذكور وجلس على كرسي الحكمة بعده وأقر بالله وآياته المهيمنة على ما كان وما يكون. وبعده من سمي بأرسطوطاليس الحكيم المشهور وهو الذي استنبط القوة البخارية وهؤلاء من صناديد القوم وكبرائهم كلهم أقروا واعترفوا بالقديم الذي في قبضته زمام العلوم. ثم أذكر لك ما تكلم به بلينوس الذي عرف ما ذكره أبو الحكمة (هرمس أو ادريس النبي) من أسرار الخليقة في ألواحه الزبرجدية ليوقن الكل بما بيناه لك في هذا اللوح المشهود الذي لو يعصر بأيادي العدل والعرفان ليجري منه روح الحيوان لإحياء من في الإمكان. طوبى لمن يسبح في هذا البحر ويُسبِّح ربه العزيز المحبوب. قد تضوعت نفحات الوحي من آيات ربك على شأن لا ينكرها إلا من كان محروما عن السمع والبصر والفؤاد وعن كل الشؤونات الانسانية. إن ربك يشهد ولكن الناس لا يعرفون. وهو الذي يقول أنا بلينوس الحكيم صاحب العجائب والطلسمات وانتشر منه من الفنون والعلوم ما لا انتشر من غيره وقد ارتقى الى أعلى مراقي الخضوع والابتهال. اسمع ما قال في مناجاته مع الغني المتعال: أقوم بين يدي ربي فأذكر آلاءه ونعماءه وأصفه بما وصف به نفسه لأن أكون رحمة وهدى لمن يقبل قولي. الى ان قال: يا رب أنت الإله ولا إله غيرك وأنت الخالق ولا خالق غيرك أيدني وقوني فقد رجف قلبي واضطربت مفاصلي وذهب عقلي وانقطعت فكرتي فأعطني القوة وأنطق لساني حتى أتكلم بالحكمة. الى أن قال: إنك أنت العليم الحكيم القدير الرحيم. إنه لهو الحكيم الذي اطلع بأسرار الخليقة والرموز المكنونة في الألواح الهرمسية. إنا لا نحب أن نذكر أزيد مما ذكرناه ونذكر ما ألقى الروح على قلبي إنه لا إله إلا هو العالم المقتدر المهيمن العزيز الحميد. لعمري هذا يوم لا تحب السدرة إلا أن تنطق في العالم إنه لا إله إلا أنا الفرد الخبير. لولا حبي إياك ما تكلمت بكلمة عما ذكرناه اعرف هذا المقام ثم احفظه كما تحفظ عينيك وكن من الشاكرين. وإنك تعلم أنا ما قرأنا كتب القوم وما اطلعنا بما عندهم من العلوم كلما أردنا أن نذكر بيانات العلماء والحكماء يظهر ما ظهر في العالم وما في الكتب والزبر في لوح أمام وجه ربك نرى ونكتب إنه أحاط علمه السموات والأرضين. هذا لوح رقم فيه من القلم المكنون علم ما كان وما يكون ولم يكن له مترجم إلا لساني البديع. إن قلبي من حيث هو هو قد جعله الله ممرداً عن إشارات العلماء وبيانات الحكماء. إنه لا يحكي إلا عن الله وحده يشهد بذلك لسان العظمة في هذا الكتاب المبين. قل يا ملأ الأرض إياكم أن يمنعكم ذكر الحكمة عن مطلعها ومشرقها تمسكوا بربكم المعلم الحكيم. إنا قدرنا لكل أرض نصيباً ولكل ساعة قسمة ولكل بيان زماناً ولكل حال مقالا.

فانظروا اليونان إنا جعلناها كرسي الحكمة في برهة طويلة، فلما جاء أجلها ثل عرشها وكلَّ لسانها وخبت مصابيحها ونكست أعلامها كذلك نأخذ ونعطي إن ربك لهو الآخذ المعطي المقتدر القدير. قد أودعنا شمس المعارف في كل أرض إذا جاء الميقات تشرق من أفقها أمراً من لدى الله العليم الحكيم. إنا لو نريد أن نذكر لك كل قطعة من قطعات الأرض وما ولج فيها وظهر منها لنقدر إن ربك أحاط علمه السموات والأرضين. ثم اعلم أنه قد ظهر من القدماء ما لم يظهر من الحكماء المعاصرين. إنا نذكر لك نبأ مورطس إنه كان من الحكماء وصنع آلة (الأرغن) تسمع على ستين ميلاً وكذلك ظهر من غيره ما لا تراه في هذا الزمان إن ربك يظهر في كل قرن ما أراد_حكمةً من عنده إنه لهو المدبر الحكيم. من كان فيلسوفًا حقيقيًا ما أنكر الله وبرهانه وأقر بعظمته وسلطانه المهيمن على العالمين. إنا نُحبُّ الحكماء الذين ظهر منهم ما انتفع به الناس وأيدناهم بأمر من عندنا إنا كنا قادرين. إياكم يا أحبائي أن تنكروا فضل عبادي الحكماء الذين جعلهم الله مطالع اسمه الصانع بين العالمين. أفرغوا جهدكم ليظهر منكم الصنائع والأمور التي بها ينتفع كل صغير وكبير. إنا نتبرأ عن كل جاهل ظنَّ بأن الحكمة هو التكلم بالهوى والاعراض عن الله مولى الورى كما نسمع اليوم من بعض الغافلين. قل أول الحكمة وأصلها هو الإقرار بما بينه الله لأن به استحكم بنيان السياسة التي كانت درعا لحفظ بدن العالم تفكروا لتعرفوا ما نطق به قلمي الأعلى في هذا اللوح البديع. قل كل أمر سياسي أنتم تتكلمون به كان تحت كلمة من الكلمات التي نزلت من جبروت بيانه العزيز المنيع. كذلك قصصنا لك ما يفرح به قلبك وتقر عينك وتقوم على خدمة الأمر بين العالمين).[1] انتهى .

ولا يسعني في هذا المجال بعد هذا اللوح الإلهي الحكيم، إلا أن أقدم نقلاً عن بعض الكتب الأخرى أقوال وأدعية مجموعة من فلاسفة الإغريق واليونان في إعترافهم بوجود خالق لهذا الكون، ومن ضمنهم أفلاطون حينما قال:- (يا علّة العلل، يا قديما لم يزل، يا منشىء مبادئ الحركات الأول، يا من إذا شاء فعل، إحفظ عليّ صحتي النفسانية ما دمت في عالم الطبيعة).[2] وقال أيضا:- إن الأشياء التي لا ينبغي للانسان أن يجهلها: أن له صانعًا وأن صانعه يعلم أفعاله، إن الله تعالى إنما يُعرف بالسلب، أي لا شبيه له ولا مثال، وأنه أبدع العالم من لا نظام إلى نظام وأن كل مركب فهو الى الانحلال وأنه لم يسبق العالم زمان ولم يبدع عن شيء.[3]

ومما ذكره العلامة محمد العاملي عن أفلاطون في تأملاته أيضًا:- (من التلويحات عن إفلاطون الإلهي أنه قال: ربما خلوت لنفسي كثيرا عند الرياضيات وتأملت أحوال الموجودات المجردة عن الماديات، وخلعت بدني جانبا وصرت كأني مجرد بلا بدن عريّ عن الملابس الطبيعية، فأكون داخلا في ذاتي، لا أتعقل غيرها ولا أنظر فيما عداها، وخارجا عن ساير الأشياء، فحينئذ أرى نفسي من الحسن والبهاء والسناء والضياء والمحاسن الغريبة العجيبة الأنيقة ما أبقى منه متعجبًا حيران باهتًا، فأعلم أني جزء من

---

[1] - بهاء الله. لوح الحكمة.
[2] - الكشكول للعاملي ج 2 ص 277.
[3] - الملل والنحل. صفحة 320.

اجزاء العالم الأعلى الروحاني الكريم الشريف، وأني ذو حياة فعالة. ثم ترقيت بذهني من ذلك العالم الى العوالم الإلهية، والحضرة الربوبية، فصرت كأني موضوع فيها معلق بها، فأكون فوق العوالم العقلية النورية. فأرى كأني واقف في ذلك الموقف الشريف، وأرى هناك من البهاء والنور ما لا يقدر الألسن على وصفه، ولا الأسماع على قبول نعته، فإذا استغرقني ذلك الشأن، وغلبني ذلك النور والبهاء ولم أقو على احتماله، هبطت من هناك الى عالم الفكرة، فحينئذ حجبت الفكرة عني ذلك النور فأبقى متعجبًا أني كيف انحدرت من ذلك العالم! وعجبت كيف رأيت نفسي ممتلية نورًا! وهي مع البدن كهيئتها، فعندها تذكرت قول مطريوس حيث أمرنا بالطلب والبحث عن جوهر النفس الشريف، والارتقاء الى العالم العقلي).[1]

ومن أولئك الحكماء أيضًا، الشاعر "أوميروس". وهو من كبار القدماء الذي يجريه أفلاطون وأسطوطاليس في أعلى المراتب ويستدل بشعره لما كان فيه من إتقان المعرفة ومتانة الحكمة وجودة الرأي وجزالة اللفظ.[2] فمن حِكَمه أنه قال:ـ إني لا أعجب من الناس إذ كان يمكنهم الاقتداء بالله تعالى فيدعون ذلك إلى الاقتداء بالبهائم. قال له تلميذه: لعل هذا إنما يكون لأنهم قد رأوا أنهم يموتون كما تموت البهائم. فقال له: بهذا السبب يكثر تعجبي منهم من قبل أنهم يحسون بأنهم لابسون بدنا ميتا ولا يحسبون أن في ذلك البدن نفسا غير ميتة. وقال أيضًا: الدنيا دار تجارة والويل لمن تزود عنها بالخسارة.[3] وقال:- (إن الطبيعة كونت الأشياء بإرادة الرب تعالى*

من لا يفعل شيئا من الشر فهو إلهي، آمن بالله فإنه يوفقك في أمورك*
إن مساعدة الأشرار على أفعالهم كفر بالله*
اعرف الله واعقل الأمور الإنسانية*
إذا أراد الله خلاصك عبرت البحر على البادية*
إن السنة توجب كرامة الوالدين مثل كرامة الإله، رأيي أن والديك آلهة لك إن الأب هو من ربى لا من ولد* ).[4]

وقال الفيلسوف زينون:- (إن المبدع الأول كان في علمه صورة إبداع كل جوهر وصورة دثور كل جوهر فإن علمه غير متناه والصور التي فيه من حيث الإبداع غير متناهية).[5] وقال أيضًا:- (إن الباري تعالى المبدع الأول واحد محض هو هو إن فقط أبدع العقل والنفس دفعة واحدة ثم أبدع جميع ما تحتهما بتوسطهما وفي بدء ما أبدعهما أبدعهما جوهرين لا يجوز عليهما الدثور والفناء).[6] وتكلم عن قدرة الله في خلق النفس البشرية وشرح كيفية بقاءها وفناء الجسد:- (وأما الجرم الذي من الماء والأرض فيدثر

---

1 - الكشكول للعاملي. صفحة 208.
2 - الملل والنحل. صفحة 337.
3 - الملل والنحل. صفحة 337.
4 - الملل والنحل. صفحة 339.
5 - الملل والنحل. صفحة 326.
6 - الملل والنحل. صفحة 349.

ويفنى لأنه غير مشاكل للجسم السماوي لأن ذلك الجسم خفيف لطيف لا وزن له ولا يلمس وإنما يدرك من البصر فقط كما تدرك الأشياء الروحانية من العقل، فألطف ما يدرك الحس البصري من الجواهر هي النفسانية، وألطف ما يدرك من إبداع الباري تعالى الآثار التي عند العقل).[1]

ومن أقوال هرقل الحكيم في الذات الإلهية:ـ (إن الباري تعالى هو النور الحق الذي لا يدرك من جهة عقولنا، لأنها أُبدعت من ذلك النور الأول الحق).[2] ومن أقواله أيضًا في مصير نفوس البشر ومآلها:- (تبقى النفوس الشريرة الدنسة الخبيثة في هذا العالم الذي أحاط به النار الى الأبد في عقاب السرمد، وتصعد النفوس الشريفة الخالصة الطيبة الى العالم الذي تمحض نورًا وبهاء وحسنًا في ثواب السرمد، وهناك الصور الحسان لذّات للبصر والألحان الشجية لذّات للسمع، ولأنها أبدعت بلا توسط مادة وتركب أسطقسات، فهي جواهر شريفة روحانية نورانية).[3]

ومن أقوال فلوطرخيس:- (إن الباري تعالى لم يزل بالأزلية التي هي أزلية الأزليات).[4]

*****

أما ما ذكره "دوكنز" عن الصفات (الغليظة) للأنبياء، فهذا تدليس واضح، إذ عليه التفريق بين أخلاق الأنبياء الفردية ومناهجهم وبين تصرفات أتباعهم، والخلط في هذا الشأن نوع ممنهج في التهريج سيء في التدليس. فأخلاق الأنبياء تشهد لها جميع كتب التاريخ أنها كانت مُثل عليا يقتدي بها البشر، إذ كيف يتبع البشر شخصاً ويضحون بانفسهم وأهاليهم دون أن يكون قد ملك قلوبهم وعقولهم بحسن أخلاقه وطباعه، ثم إنهم يبذلون قصارى جهودهم في نشر أديانهم لدرجة تضحية أنفسهم رخيصة في سبيل تعليم الناس غير مبالين بما يحيط بهم من اخطار وما يحاط ضدهم من مؤامرات أعدائهم. أما برامجهم، فهي مراحل تربوية رفعت من شأن الانسان ومستواه حتى صار البدوي فيلسوفا وصياد السمك معلماً والراعي حكيما، وبدون هذه التربية الإلهية، لكان دوكنز ما يزال يحمل هراوته جائلاً داخل الغابات والسهول عاريًا بشعر رأسه الأشعث باحثًا عن طريدة ليأكلها بيديه العاريتين.

كما كان عليه التفرقة بين مناهج هؤلاء الرسل والنظر اليها حسب الحاجة الاجتماعية، فعلى سبيل المثال إن ردود أفعال المدرسين في مدارس متقدمة تجاه طلابهم تختلف عن ردود أفعالهم في مدارس بمستويات متردية أو في سجون الأحداث، حيث لا ينفع تطبيق اسلوب تربوي واحد في المكانين، كما هو الحال مع طبيبين، الأول

---

[1] - الملل والنحل. صفحة 349.
[2] - الملل والنحل. صفحة 332.
[3] - الملل والنحل. صفحة 332.
[4] - الملل والنحل. صفحة 324.

يكتفي بوصفة علاج من الشراب والأدوية والحبوب والكبسول والنصائح الطبية، بينما يسارع الثاني بالمريض الى سدية غرفة العمليات ليخدر مريضه ويعمل على تقطيع أوصاله. وهنا والحالة هذه، لا يمكن وصف الطبيب الأول بالانسان الرحيم والثاني بالغليظ الشرس الشيطاني، فكلاهما طبيب، إلا أن الحالة الأولى اقتضت مظهراً مسالماً بينما اقتضت الثانية مظهراً من مظاهر العنف والشراسة. وهكذا هي برامج الرسل بين تلك الشعوب القديمة، فلقد كانت تتفق مع درجة التقدم الحضاري لتلك الشعوب القديمة، وكلما عدنا قدما في التاريخ الى الوراء سنجد مظاهر القسوة تزداد بشكل مطرد في مبادئ الأديان التربوية، فالأمراض الاجتماعية كانت بغاية السوء والبشر لم يكن يعرفوا مبادئ التربية والأخلاق، مما اقتضت الضرورة نوعاً من القسوة في التعامل معهم. أما إذا اعترض معترض وقال: لكن تعاليم السيد المسيح كانت أكثر رحمة ولطفاً. فهذا الأمر يرجع الى أن حضرته ظهر بين أمة اليهود التي سبق لها وتربت على تعاليم ومناهج شريعة التوراة الإلهية لمدة خمسة عشر قرناً، ومن المؤكد أن سيكون هناك تأثيرات تربوية حتى ولو كانت بنسبة قليلة ليتعامل بها من آمن من أمة اليهود مع شريعة المسيح. بينما نلاحظ في المقابل أن عرب الجاهلية كانوا من التأخر والشراسة والهمجية الباقية آثارها في نفوسهم وعقولهم منذ قديم الأزمنة ـ بل وحتى اليوم ـ حينما ينصحون بشرب بول الإبل كدواء للأمراض ويمنعوم النساء من ركوب قيادة السيارة بحجج فسلجية واهية، وبينهم من يحمل شهادات عالية من أشهر الجامعات العالمية.! ومنهم من يخرج على شاشات التلفاز ليقول ان كل من يخالف رأي شيخه ويؤيد فكرة كروية الارض، فهو كافر يستحق قطع الرقبة. لذا على الكاتب ان يتصور حالة أمّة ما زالت تحمل مثل هذا الأفكار حتى اليوم، كيف استطاع النبي محمد لوحده تربيتها وخلق حضارة علمية عالمية لها دخلت أوروبا من شرقها وجنوبها الغربي لتخرجها بفضل علومها الاسلامية من ظلمات محاكم التفتيش وتنقذ ملايين النساء البريئات من الحرق في الساحات العامة وسط مدن أوروبا بدعوى السحر والشعوذة، أو يخلصوا ملايين اليهود من القتل والحرق بتهمة قتل السيد المسيح.

ولا فخر لدوكنز من الإدعاء بالسلمية واللطف في هذا الوقت، فهو يعيش في حمى رجال شرطة تطبق أفضل أحكام القانون الوضعية، وليكن متأكداً أنه لو عاش في العراق أو اليمن أو في افغانستان أو الصومال، لكان ما زال يحتفظ في بيته ـ إذا بقي على قيد الحياة ـ قطعة سلاح أو أكثر لحماية نفسه وعائلته من اللصوص والمجرمين وسفاكي الدماء، ومن الطبيعي أنه لو عاش في سويسرا أو النرويج او السويد فلن يحتاج لذلك، فالقانون يوفر له منتهى الحماية. وما كل هذه التبعات وحياة الرفاهية والأمن التي يتمتع بها، إلا بسبب تمتعه بمسايرته المنهج الأخلاقي العام، وكل الفضل في هذا الجو الاجتماعي المتقد الى أولئك أولئك الأنبياء الذين تحملوا عنه وعن أجداده تبعة الاضطهاد وشراسة البدائي وهمجية البدوي ليوصلوه لهذا المستوى العلمي العالي والأخلاقي.

أما المنحى الثالث حينما ينظر الى تصرفات أتباع الأديان وينتقد خطأ مؤسسيها عوضاً عنهم! فالحالة هذه لم يكن من الموجب أن تمر عنه دون أن ينتبه لها. فكما سبق وقلنا أن البشرية بدأت بحالة أخلاقية أشبه بأخلاق الحيوانيات في أول وجودهم، واستمر الطواطم

والتابوهات والبدد في تربيتهم أفراداً وجماعات في جميع أنحاء الأرض وتدرجوا بهم من الكهف الى البيت ثم القرية فالى المدينة والى الدولة فالامبراطورية، كل هذا التدرج كان بسبب المعلم الكامل (النبي). وطالما البشرية ما زالت تمر في آخر مراحل مراهقتها، فليس من المستغرب ان تعود الى شراستها وغلاظتها بشكل أبشع وأقوى بمجرد ابتعاد النبي عنها؛ مثلها في ذلك كمثل مجموعة أطفال شأنهم اللعب والفوضى وعدم الانضباط، لكنهم يتصرفون بطريقة حسنة لطيفة حينما يكون المعلم موجوداً بينهم، إما طاعة لأوامره ومحبة به أو خوفاً من عقابه، لكنه من المؤكد أنهم سيتصرفون بأخلاق الطفولة الفوضوية ويظهر شغبهم وشراستهم وسرقة بعضهم أطعمة وأدوات بعض وأشياءهم واعتداء الأقوياء منهم على الضعفاء حينما يتأكدون ان معلمهم لن يأتي ذلك اليوم، وهنا لا يمكن القاء اللوم عليهم، فتصرفاتهم المخالفة لرغبات وتعاليم أستاذهم تتوافق مع مرحلة أعمارهم ولا عيب ولا مثلبة في ذلك. وفي المقابل لا يمكن إلقاء تبعات تصرفاتهم على المعلم فهو يبذل ما في وسعه لتربيتهم، لكن الطبيعة البشرية تفرض نفسها في هذا السن للنمو والتعلم والإرتقاء. ومن المؤكد أنه لو زارهم مستقبلاً وهم أساتذة في جامعاتهم فسيفخر بأخلاقهم وأدبهم وحسن تصرفهم وعلمهم ويغفر لهم ما كان من مظاهر طفولتهم. بهذا لا يمكن إلقاء اللوم في سوء تصرفات أتباع الأديان على الأنبياء. فلو أن ولده الكاتب ارتكب جريمة بعدما جاهد في تربيته وتعليمه بأحسن السبل، فلن يقع عليه اللوم، بل على يقع على الصبي.

**صفحة 44،** ينقل عن جفرسون قوله:- (القول بأن الروح الانسانية، الملائكة، والله غير ماديين هو القول بأنهم لا شيء، بمعنى أنه ليس هناك روح ولا ملائكة أو إله. لا استطيع التفكير بغير ذلك).

هذا هو أسّ أساس الموضوع، وهذا هو الغرض من تأليف كتابه. نعم هناك فارق كبير بين عقلية الرجل المادي وبين العقلية اللاهوتية، كالفرق بين الأرض والسماء. إن العقل يقضي بتأييد وجود مشاعر المحبة والوداد والكراهية والحقد والبغضاء والذكاء والعبقرية والغباء والبلاهة الى آخر ذلك من المشاعر الأخلاقية والوجدانية غير الظاهرة أو المحسوسة مادياً مع العلم أنه لا قدرة على لمسسها أو رؤيتها أو سماعها، فهل يمكن القول أن هذه لمشاعر مفقودة وغير موجودة عند الناس؟

يقول جفرسون:- (بدون الغوص في متاهات لا يسبر غورها أو في هاوية التخيل).

إن الانسان هو مخلوق روحاني في جسد مادي، والأزمان ممتلئة بحِقَب متباينة من الاتجاهات الفكرية، وما تمر به البشرية اليوم هي موجة من الماديات الصرفة مقابل ما كان من حقب الأزمان الخالية حينما امتزجت الماديات بالروحانيات على مدى التاريخ القديم حتى ظهور الثورة الفكرية في أوروبا بعد انتهاء عصر الظلمات، ولا يوجد ما يجزم بعدم عودة الفكر الروحاني بين البشر مثلما كان أو أقوى بعد إزدياد مرحلة التطور العلمي وانتقال البشرية الى نقلة حضارية تالية.

جفرسون:- (أنا سعيد ومكتفٍ بما أشغل نفسي به بدون اللاأشياء التي ربما تكون موجودة ولكن ليس لدي الدليل على وجودها).

منطق واضح في عدم الثقة. ومهما ارتقى هذا الرجل في اختصاصاته العلمية، يبقى عالماً في مجال تخصصه المادي فقط، وهذا لا يجعل منه عالماً في مجال بقية الاختصاصات العلمية المادية الأخرى، فما بالنا حينما يتدخل في مجال الروحانيات ويقدم رأيه الخاص عنها.! إنه لأمر بديهي ان يكون خاوياً منها فهي خارج نطاق اختصاصه، والمفروض عدم التبجح واعلان الجهل بها، فهو لم يأت بالذئب من ذيله، ففي المقابل هناك ملايين البشر كل له اختصاصه لا يتبجحون بجهلهم في بقية العلوم المادية الأخرى، وكان من الأولى به عدم البوح بهذا الرأي فهذا ليس باكتشاف فريد يحسد عليه. فالعلم الروحاني بحاجة الى أداة روحية للتعامل معه (روح)، وهو بالذات يكرر اعلانه عدم امتلاكها. أما عندما نقول أنها قد تكون موجود ولكنها بحاجة الى دليل، فلو نظرنا الى جميع المخترعات المادية ـ وهي مناقضة للروحانيات ـ لوجدنا أنها جميعا كانت معدومة غير موجود قبل اختراعها، فهل يمكن القول آنذاك طالما لم نكن نراها أو نلمسها إنها غير موجود وعلينا أن لا نشغل عقولنا بها؟ إن الروحانيات بحاجة الى أدوات روحانية لتناولها، والكاتب لا يملك غير أدوات مادية لا تستعمل في هذا المجال، بالضبط مثل ذلك الهندي عندما سئل عن الله والعوالم الغيبية وأجاب:- (يدخل هنا مثال الهندي الأحمر ومقدار معرفته بالله) بقية المخلوقات التي تتعامل مع الطبيعة دون معرفتها للعقل والروح، فهي أيضا تقول:- ما دمت لا أعرف بوجود العقل والروح، فسأكتفي بمتطلبات الجسد المادية وأنام وأصحى وآكل وأشرب وأمارس الرياضة والجنس والزواج وأؤسس عائلة ومجموعة لطيفة من الأبناء ولأتمتع بحياتي مع عائلتي وأصدقائي. فما الفرق بين هذا الفكر وفكره؟ فالإثنان في مستوى مادي واحد. ولكن ليتذكر إن كل ما يتمتع به من رخاء مادي وأدوات تقنية وتقدم علمي كان سببه العقل، وهذا العقل غير ملموس ولا موجود ولا مادي، فهل علينا أن ننكر وجود العقل طالما أننا لا نلمسه ولا نراه؟ وهل يستطيع من دون استخدام حواسه المادية إظهار محبته لزوجته واولاده؟ أشك في ذلك تماما.

ثم يبقى مستمراً على ضرب الأمثلة الفردية لآراء آخرين لا نستغرب من عدم معرفة لغالبيتهم، لكنه لا ينفك يذكر اسماء وأسماء ومعارف وأصدقاء وكأن آرائهم حجج قاطعة وما علينا إلا التزام الصمت والانزواء وتركه يصول ويجول كيفما يشاء. وهذا الاسلوب لا يؤخذ به ولا يعتمد عليه في طرق الاستدلال الفلسفية.

ينقل أيضاً عن جفرسون أن:- (المسيحية هي أكثر الأنظمة التي عرفها الانسان تحولا وتقلباً تتوافق مع الربوبية والإلحاد أيضاً).[1]

خلط غير مقبول بين السياسة والدين، حيث يخلو الدين المسيحي من المنهج السياسي إلا من شذرات. أما ما أشيع عنها في هذا المجال، فهو من بدع رجال الدين وما

[1] - صفحة 45.

فعله البابوات في القرون الوسطى. وبهذا فهو حكم باطل. ثم أليس من المفروض بمن ينتقد أمراً تقديم بديلاً عنه ليحل محله؟ فيا ليته ومن استعان بأفكارهم، أشاروا لنا أو ذكروا نظاماً سياسياً بشرياً وضعياً، ثبتت أركانه ودامت مؤسساته واستقرت أركانه منذ أن عرف الانسان مَلَكة الوعي أطول من أعمار الدول الدينية؟ علماً إن الامبراطورية الرومانية والفارسية كانتا تستندان هاة الديانة المينيوية والزرادشتية.

ويكمل نقلاً من أقوال جيمس ماديسون المناهضة للكهنوت:- (تجربة المؤسسة المسيحية الرسمية امتدت حتى الان لخمسة عشر قرناً. ماذا حصدنا منها؟ على كافة المستويات بنسب متفاوتة، فخر وكسل رجال الدين، تجاهل وذل العلمانيين المُضاعف بسبب الغيبيات وتعرضهم للاضطهاد والملاحقة).[1]

ليس من العقل ولا من المنطق المقارنة بين عقول البشر في هذا اليوم وعقليتهم في قديم الأزمان حتى ولو كانوا رجال دين، فدرجة الكهنوت لا تجعلهم بمصاف الفلاسفة أو الحكماء. كما أن هناك مسألتين تتعلقان بالدين وهما الحضارة والأخلاق، فلو بحثنا جيداً لوجدنا أن علماء الحضارات لاحظوا الرابطة بين وجود الدين وظهور الحضارات المادية، حتى قال الفياسوف "أرنولد توينبي" أنه يمكن بسهولة العثور على الآثار المادية للحضارات القديمة ولكننا نعجز في المقابل العثور على آثارها الروحية فهي لا تترك معلماً حتى يمكن قراءته (قول توينبي في في عدم وجود الآثار الروحية). كما أن أصل التعليم قد جاء من الكهنة والسحرة والآلهات القديمة، فما يتمتع ويرتع به شخصياً من مباهج الحياة المادية قد وصله من أولئك الكهنة والسحرة الذين يتمسخر منهم. (قول ديورانت أن أصل العلوم من الكهنة والسحرة).

وللعلم إن قانون الولادة والنمو والرقي والفناء، هو قانون مادي كوني يدخل تحت فسطاطه جميع ما هو موجود حتى المسائل الروحية والأديان والأفكار. لذلك لا بد ان نلاحظ مثل هذا الصعود والهبوط في المنهاج الكوني ومن ضمنه أمور الماديات، وهذا القانون قد شمل جميع الحضارات والامبراطوريات والدول والممالك ومؤسسات السياسة والحكم. وبهذا فرجال الدين لا يخرجون عن هذا القانون ولا عن هذا النطاق، وبالتالي كان لا بد ان نجد أدوارهم الفكرية والروحية تتذبذب بين العظمة والقوة وبين الضعف والهزال. وبالتالي علينا بدراسة هذه الحالة والاعتبار منها وأخذ الموعظة وضرورة التخفيف من حدتها قدر الإمكان من خلال قراءة التاريخ حتى تمضي البشرية في تقدمها الى أمام ونتجنب أسباب الهبوط.

سبق وقلنا أن البشرية ما زالت ماضية في زمن مراهقتها وتعيش مراحلها الأخيرة، وبذلك لا يتوقع منها بالمطلق احترام العلماء والحكماء والفلاسفة على طول الخط، فما زالت هناك شعوب طفولية تسخر من رجال علمها وتطردهم وترمي بهم في السجون والمعتقلات، بل وتقتلهم. وهذا التصرف الشاذ لا يقتصر ولم يقتصر على رجال الدين بل

---

[1] - صفحة 45.

يفعله رجال السياسة، ولو فسح المجال لدوكنز وقدرت له الظروف، فلن يمضي على غير هذا السلوك. لماذ؟ لأنه ما زال يعيش أواخر عصر عنجهية مراهقة الجنس البشري. أما اقتباسه مقولة "جون آدامز":- (لو لم يوجد الدين لكان هذا العالم أفضل ما يمكن أن يكون).

فهذا نوع من أنواع التخبط الوهمي وقراءة سيئة لعلم الميثولوجيا، فلو لم يكن الدين والأنبياء والكهنة والسحرة، لما تعلم البشر أي شيء ولبقي على حالته البدائية الحيوانية حتى هذا اليوم، ولما تمتعنا بالمخترعات العلمية والتقنية إطلاقًا، ولبقيت الهراوة بين يديهما، ولكن بنوع محسّن أقسى وأصلب من سابقتها.

مرة أخرة ينقل عن آدامز، قوله: (المسيحية كما فهمتها كانت ولا تزال روحانية. فما هو السبب أن الملايين من الخرافات والقصص والأساطير قد مزجت بالروحانية اليهودية والمسيحية لتجعلهما أكثر الأديان التي وجدت دموية)؟

السبب هو أن هذه الأديان ودين الاسلام من ضمنها قديمة العهود، فالدين هو منهج اجتماعي وروحي، وفي حالة الدعوة الى دين جديد، تبدأ عادةً بإظهار الحالة الروحية والأخلاقية التي يتقبلها الناس في بداية الأمر باعتبارها ما يفتقرون اليه من غذاء روحاني، وأنها طريق الصلاح وتطوير المجتمع روحيًا وأخلاقيًا ـ وهي بالفعل كذلك ـ فلا يقدم النبي صاحب الدعوة أحكام شريعته إلا بعدما يكون هناك مؤمنين صدّقوا دعوته، حينها يبدأ بتقديم أحكام شريعته بالتدريج حسب متطلبات كل حادثة إجتماعية، وبهذا فالدين يعتبر دستورًا يتوافق مع مستوى حالة المجتمع، ومع مرور الوقت يكون الاتباع قد تعودوا على أحكام دينهم الجديدة بعدما وافقوا عليها نتيجة وجود وتشجيع ومحبة الرسول بينهم، وبمرور الوقت تتكون أمة صغيرة تعمل بموجب شريعة وأحكام جديدة.

يصف ديورانت أحوال المجتمع في مثل هذه المراحل، قائلا:- (والأنظمة التي تبدأفي أيدي رجال الدين، مثل القانون والعقاب، والتربية والأخلاق، والزواج والطلاق، تميل نحو الإفلات من رقابة الدين لتصبح أنظمة دنيوية، حتى ليعدها الدين أحيانا خارجة عليه، والطبقات المستنيرة تطرح وراء ظهورها اللاهوت القديم، ثم – بعد شيء من التردد – تطرح معه التشريع الخلقي؛ عندئذ تصبح الفلسفة والأدب مناهضة لرجال الدين، وترتفع حركة التحرير الى عبادة العقل عبادة المتفاني، تكبو فيما يشبه الشلل الذي تسببه خيبة الأمل إزاء كل عقيدة وكل فكرة؛ ويتدهور السلوك الانساني إذا ما سُلب دعائمه الدينية، فبنقلب ضرباً من الفوضى الأبيقورية؛ بل إن الحياة نفسها، وقد حَرمتها ما فيها من إيمان يبعث العزاء في النفوس، تصبح عبئًا ثقيلاً للفقير الشاعر بفقره، وللغني الذي ملَّ غناه آن معًا، وفي النهاية ينحدر المجتمع وتنحدر معه عقيدته الدينية نحو السقوط معًا في ميتة واحدة كأنهما الجسد والروح، على أنه سرعان ما تنشأ أسطورة أخرى بين الناس إذ هم ينوءون تحت هذا العبء الفادح، أسطورة تصب الأمل الإنساني في قالب جديد، وتمد

الجهد الإنساني بحماسة جديدة، ثم تبني مدنية جديدة بعد أن تنقضي قرون في حالة من الفوضى).[1]

أما في حالة الديانة المسيحية، فلقد حدث انقطاع في هذا الترتيب، فلم يمهل اليهود حضرة المسيح لاستكمال مشروعه الديني وتقديم أحكام شريعته، حيث كان ما يزال في طور بناء المؤمنين بدعوته، بدليل أعدادهم القليلة وبدائية أيمانهم لدرجة أن بطرس الملقب بصخرة الدين قد نهره وشجبه (فابتدأ يلعن ويحلف: "إني لا أعرف هذا الرجل الذي تقولون عنه!").[2] من هنا وجد أوائل المسيحيين أنفسهم مؤمنين بدين جديد، ولكن تنقصهم التشريعات للعمل بموجبها، ولم يكن أمامهم وأقرب إليهم غير شريعة الديانة اليهودية باعتبار إن أغلبهم قد انتقل منها، فحصلت الاستعانة بأحكام التوراة. ومن هنا استمرت عملية القسوة في التعامل الاجتماعي حيث ينسحب ذلك الى الموروثات الأسطورية التي جاء بها التوراة من عهود ما قبل ظهور اليهودية، رغم أنها مناهج دينية لعصور قديمة كانت تتعبد تعدد الآلهة، فأديان الآلهة ليست اختراعات بشرية، بل هي أديان أنبياء تسمّوا حسب منطوق اللغات القدمة بـ (آلهة)، ومن دلائل ذلك:- (فجمع بولس كثيرا من القضبان ووضعها على النار، فخرجت من الحرارة أفعى ونشبت في يده. فلما رأى البرابرة الوحش معلقا بيده... فنفض هو الوحش الى النار ولم يتضرر بشيء ردي وأما هم فكانوا ينتظرون أنه عتيد أن ينتفخ أو يسقط بغتة ميتا. فإذا انتظروا كثيرا ورأوا أنه لم يعرض له شيء مضر، تغيروا وقالوا: "هو إله!".[3] فالأديان مثل المناهج الدراسية، تبدأ في تدرجها من آخر نقطة وصل اليها منهج الطالب في العام المنصرم. وهكذا هو الحال مع التعاليم الدينية، تبدأ في الاتحاد والتواصل مع مستوى المجتمع العلمي والاخلاقي والديني بالتدريج وتأخذ بيده حتى يستحصل فهم معالم منهجه. من هذا عندما تتصف شريعة التوراة بصفة القسوة والعنف والقتل، فهذا يرجع الى حالة البشرية بذلك الوقت، فقد كانت ما تزال بعصور الوحشية والهمجية ولا بد أن تتغلغل أفكار وعادات وتقاليد المجتمع الأقدم منها داخل مناهجها فتؤثر سلبًا على جوهر تعاليمها. ينقل الفيلسوف ديورانت صورة عن الأمم الهمجية وكيف كانت تتعامل بقسوة شديدة فيما بينها، قال:- (أما جرائم الافتئات والاعتداء فهي قديمة قدم الجشع؛ فتقاتل الناس على الطعام والأرض والمرأة قد روى الأرض بدماء البشر، ولم ينج من ذلك جيل واحد من الأجيال؛ كان الإنسان البدائي قاسيًا إذ كان حتمًا عليه أن يكون كذلك؛ فقد علمته الحياة أن تكون ذراعه على استعداد للضرب دائمًا، وأن يكون له قلب يستسيغ "القتل الطبيعي" وأسوَد الصحائف التي تصادفك وأنت تقرأ علم الأجناس البشرية، هي تلك التي تروي لك عن التعذيب الذي يسود الحياة البدائية، وعن الفرح الذي ينتشي به كثير من البدائيين رجالا ونساء – فيما يظهر – إذا ما أنزلوا بأحد ألمًا).[4] ويكمل ديورانت قوله:- (في بعض القبائل ترفض المرأة أن تتزوج من رجل لم يقتل أحدًا في قتال، سواء في ذلك أكان القتال سليم الأساس أم

---

1 - قصة الحضارة المجلد الأول. صفحة 66.
2 - إنجيل مرقس 71:14.
3 - إنجيل. سفر أعمال الرسل 27 3-6.
4 - قصة الحضارة. المجلد الأول. ويل ديورانت صفحة 49.

فاسدة؛ ومن هنا نشأت عادة اصطياد الرءوس التي لا تزال باقية في الفلبين حتى اليوم؛ وعند قبيلة "دياك" Dyak يكون للرجل الذي يعود من مثل هذا الصيد البشري بأكبر عدد من الرءوس، أن يختار من يشاء من بنات القرية... وحيث يغلو الطعام ترخص الحياة، فأبناء الإسكيمو لا مندوحة لهم عن قتل والديهم إذا ما أصبح هؤلاء من الشيخوخة بحيث لا يقوون على شيء، ولا يصلحون لشيء، فالامتناع عن قتلهم في مثل هذه الحالات يعتبر مجافاة لواجب البنوة).[1]

فالمسيحيون أخذوا بأحكام التوراة لأنهم كانوا بحاجة الى قوانين اجتماعية، ولم يجدوا أمامهم غيرها، وبالتالي بدلا من التقدم الاجتماعي المرتقب، كانت هناك انتكاسة حينما احتاج الأمر الى تمشية الأمور السياسية، فكان من المحتم العودة الى سبل العنف والقتال، أما من الناحية الروحية والأخلاقية، فيمكن ملاحظة تقدماً هائلاً في ذلك من خلال كثرة أعداد القديسين والرهبان وما نقرأه من مآثر تضحياتهم في زمن الرومان، إضافة الى حسن أخلاق نسبة كبيرة من الأمة المسيحية حتى اليوم؛ دليل ذلك ما يقدمه المجتمع الغربي من مساعدات للاجئين القادمين من دول الشرق رغم معرفتهم بما يكنه بعضهم لأتباع الديانة المسيحية من كراهية وما يصفونهم به من كفر وزندقة.

**صفحة 48**:- (وعلى اي حال فإن نظرية الله بأي شكل من أشكالها ليست ضرورية).

بالفعل.. فهذه نظرية غير ضرورية أيضاً للحيوانات والحشرات والخنافس والنباتات، فجميعها تنمو وتتزاوج وتأكل وتشرب وتنام وليس لها أي علاقة بالله حسب الظاهر المادي. ناهيك عن الشمس والقمر والنجوم.

قال:- (دعونا الآن نلتفت للاأدرية والفكرة الخاطئة عن أن وجود أو عدم وجود الإله هو سؤال عبثي، أن العلم لم ولن يتمكن من الوصول الى جواب له).

سبق وقدمت في مقدمة هذا الكتاب، سؤالاً بسيطاً لدوكنز، أسهل بسبعة مليار مرة، أكرر سبعة مليار مرة ـ بعدد البشر من سكان الأرض ـ أن يثبت وجود مكان العقل صانع جميع هذه المعارف والعلوم والحضارات وما يتمتع به هو شخصياً من تقنيات ووسائل راحة؟ هذا سؤال بسيط جدا. فليجب عليه لو سمح بذلك. أما مسألة إثبات وجود صفات المحبة واللطافة والذكاء والعطف والحنان وغيرها فلنتركها الآن جانباً.! فلقد سبق وسألنا ذلك. والمسألة الأخرى هو الاستباق في جواب سؤاله بنفسه وكأنه عقل مطلق لم ولن تنجب الأرحام من بمستوى قدراته التي فاقت جميع فلاسفة الشعوب.

**صفحة 49**:- (السؤال عن الحياة خارج الكرة الأرضية سؤال مفتوح على الطرفين وهناك آراء جيدة في صالح الجهتين).

---

[1] - قصة الحضارة. المجلد الأول. ويل ديورانت صفحة 50.

باعتباره يأخذ العلم سبيلاً للحياة، فالعلم يقول أن تكوّن الكرة الأرضية بدأ بتجمع سديم غباري وغازات ثم تبلورت واتحدت وتفاعلت فكانت الكرة الأرضية. هذا ما يقوله العلم ويتقبله العقل المنفتح. وبهذا الفرضية، يمكن الافتراض أيضا بحصول حالات مشابهة متعددة في أماكن كثيرة بعيدة في هذا الكون، ومن المحتمل أن تتكون في أزمنة قادمة، ثم نتجت بتفاعل مكوناتها الكيمياوية مخلوقات مجهرية أو خلايا حيّة ظهرت منها مخلوقات غير واعية تدرجت مع مرور الوقت الى عاقلة بعد ظهور الوعي فيها، وهي الان في مستويات حضارية مقاربة أو أعلى من مستوى حضارات بشر الارض، ومن الوارد أيضاً ـ حسب هذا المفهوم ـ ظهور مخلوقات عاقلة في أزمان قادمة هي الان في مرحلة التكوين. فالتقدم العلمي والتقني وظهور مزيد من المخترعات كفيل بإيجاد سبل التواصل فيما بينها وبين سكان الأرض مستقبلا. فالبشرية ما زالت في مرحلة مبتدئة من العلم، ولا يأخذه الظن أن فناء البشر سيحدث قريباً فيدفعه لاستعجال معرفة الله أو معرفة وجود مخلوقات عاقلة أو غير عاقلة في كواكب أخرى. وكل ما عليه هو الابتعاد عن مفاهيم قصص التوراة وليدة أساطير الأولين.

خلال العشر صفحات التالية يتناول فيها مواضيع وآراء مختلفة وقصص مسلية لمواقف وآراء شخصية ليست من صلب موضوعنا، ومن ضمنها على سبيل ما يصفه:- (لن نضيع الوقت بترهات كهذه، لأنه على حد علمي، لا أحد يعبد أباريق الشاي). او ينقل عن آخر قوله:- (لا أؤمن بالله كما لا أؤمن بالأوزه الأم.[1] فمثل هذا المستوى من مضامين كتابه لا تستحق التوقف عندها.

صفحة 61:- (هل كان للمسيح عيسى أب إنساني)؟

من باب (اتفاق الدين و العلم)، سيكون الجواب العلمي: (نعم)، نعم، كان للسيد المسيح أب بشري. أما من الناحية الروحية، فليس لروح السيد المسيح أب. وهذا يعني ان روح السيد المسيح ليست من عالم أرواح البشر، فهناك فرق كبير بين عالم أرواح البشر وعالم أرواح الرسل وتتضح بعض هذه الفروقات بقدرات الرسل على السيطرة روحياً بالمحبة على ارواح البشر لآلاف السنين، بينما في المقابل يختفي الأباطرة والملوك والحكماء ويبهت نور ذكرهم ومحبتهم بعد فترات قصيرة وحتى أثناء حياتهم. أما لماذا بقيت مسألة بشرية السيد المسيح معلقة لم يجزم بأمرها، لأن طرفي النزاع تماديا في الاثبات والنفي حتى تجاوزا المعقول. وإلا فالسيد المسيح كان يعيش في حارة صغيرة ويعرفه جميع ساكنيها حيث كانت البيوت صغيرة متلاصقة متداخلة وبالتالي كانت كل عائلة تعلم أدق أسرار العوائل الأخرى المجاورة ولا تفوتها عنها فائتة، وبهذا لن يخفى على نساء الحارة خبر حبل سيدة بينهم أو ختان طفل أو مرض شيخ..الخ، فلم يكن لتلك العوائل في ذلك الزمن القديم ما يتسلون به ويقضون أوقاتهم معه إلا أخبار عاوئلهم وعوائل غيرهم في حواريهم الصغيرة. وبهذا لا يعقل أن يغفلوا ولا ينتبهوا عن خبر السيدة مريم إذا كانت قد حبلت أم لا من زوجها يوسف النجار، فلقد جاءت الشهادة الى نسب

[1] - صفحة 54.

السيد المسيح في ذات الإنجيل من أهل حارته وجيرانه:- (أليس هذا هو النجار ابن مريم، وأخو يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان؟ أوليست أخواته ههنا عندنا؟).[1]

أما ما يحجب عن دوكنز إمكانية تصور أحوال تلك الأمم القديمة، فهي أحوال مجتمعه الغربي في هذا اليوم بما هي عليه من تقدم حضاري كبير، حيث لا يعلم الجار ما يحدث في بيت جاره ولا له علم بأخباره، حيث يحرص الجارين على التكتم وسرية أمور عائلتيهما، ويغلق باب بيته طوال النهار ولا يزور أحداً مهما كانت درجة صداقته وقرابته إلا بموعد مسبق. وبذلك لن يمكنه تصور أحوال الناس في المجتمعات الشرقية قبل ألفين سنة وكيف كانت الناس تعيش آنذاك، أما نحن أهل الشرق وسكان ذات المناطق، فما زالت آثار وأحوال تلك الأمم القديمة قريبة الشبه بما نعيش فيه، فالمباني والحارات القديمة ما زالت قائمة ونفوس الناس وطبائعهم وحالة النميمة والقيل والقال والحشرية والتدخل في شؤون الغير وتمثيل دور الناصح والتظاهر بالحكمة والعقل وشخصية الشقي والفتوة ما تزال من سمات شعوب منطقة الشرق الأوسط. فأبواب البيوت قديماً بالكاد يكون لها أقفال وهي مشرعة طوال ساعات اليوم للداخل والخارج ونساء الحارة والجيران يدخلن ويخرجن الى بيوت بعضهن دون استئذان أو مقدمات وتبادل حاجات الطبخ وأدوات البيت والتشارك بالأعمال المنزلية والعناية بالأطفال وارضاعهم ورعاية المرضى فيما بينهم أمر لا تراه اليوم بين شعوب الغرب. وبذلك يكون أمر زفاف وزواج وأسابيع وشهور حبل مريم العذراء واستمرار كبر حجم بطنها وضوضاء ساعة الولادة وما صاحبها من آلام وضرورة تجمع سيدات الحارة وعجائزهن لتقديم المساعدة أمر لم يكن ولا حتى التصور بإمكانية إخفاءه أو التستر عليه، إضافة الى أنه خبر مفرح يحلو تناقله ونشره بين الجيران. وبهذا لا بد أن يكون والد السيد المسيح معروفا، وإلا فلن يقتصر التكذيب والتشكيك بحق السيد المسيح على ما ورد في الإنجيل فقط، بل سيمتد الى التوراة والى نبوءة النبي ميخا وسينتقل بدوره كتاب التوراة ورسالة النبي موسى ومنها ستعود وينتقل التكذيب الى دين الاسلام وكتاب القرآن الذي ذكر ذلك بكلمات ظاهرية المعاني تحتجب أسرارها على المؤمنين بها، فما بالنا بمن يكذبها من أساسها.! وهذا ما يبتغيه دوكنز وهو الوصول الى نتيجة أنه لا يوجد تاريخ صادق ولا توجد أديان ولا رسل ولا أنبياء مقدسة بالمرة.

وبهذا ننتقل لنرد سهمه الى نحره ونطالبه بالمقابل باثبات أصل العلوم الطبيعية وكيف بدأت الحضارات وكيف اخترعت الكتابة ومن أول من أوجد علم الطب والفلك والتنجيم والهندسة والموسيقى والألحان والنغمات حينما نتوغل في عصور التاريخ القديم ونجد الانسان البدائي قد قضى ملايين السنين يعيش كالوحوش لا يتقدم شبراً حضارياً واحداً.

يسأل:- (هل كانت أمه "السيد المسيح" عذراء يوم ولدته؟).

[1] - إنجيل مرقس 3/6.

المقصد من كلمة "عذراء" بمعناها الديني القديم، أنها إمرأة شريفة طاهرة، مثلما كان يطلق على الزوجة المحترمة (معصومة)، وليس المعنى كما خطر في ذهنه وغيره إنها باكر جسديا.

(هل أقام المسيح اليعازر من الموت؟).

إذا كان اقامه أم لم يقمه، فلقد عاد اليعازر ومات ولم يخلد في الحياة لحد اليوم حتى يخبره بالمقصود من قيامته. لكن يمكنه ان يستشف المعنى الروحاني من الآية الإنجيلية الأخرى:- (اتبعني، ودع الموتى يدفنون موتاهم).[1] فإذا لم يكن للآية معنى آخر، فهل يمكن للموتى دفن موتاهم؟ فمن معاني الآية على سبيل المثال: دع موتى الايمان يدفنون موتى الأجساد. أو كما ورد في القرآن الكريم:- (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون).[2] فالإشارة هنا لا تخص الأجساد المادية، بل الى الموت الروحاني، لأن الكافرين لم يكونوا أمواتاً فأحياهم الله ثم أماتهم مرة أخرى. وبهذا يتشابه المعنى في الكتابين. وإلا كيف يكلم الله بشراً على قيد الحياة ويقول لهم كنتم امواتاً؟ وكيف يقول لهم كنتم تعيشون في الظلمات؟ هل كان العرب يعيشون في الكهوف ولا يخرجون لرؤية الشمس؟ كما في قوله:- (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور).[3]

(وهل قام هو نفسه ثانية ثلاثة أيام بعد صلبه؟).

بتكراره الكلام عن حياة السيد المسيح، يستدل من ذلك على محدودية ثقافته الدينية والعلمية والتاريخية بشكل عام. وهنا نجد ما لن يفهمه دوكنز ولن يستوعبه مع كامل تفاصيل الشرح، ولكن الواجب يقتضي المحاولة، مع التأكد من فشل ذلك. فلقد سبق وأوضحنا أن هناك حياة روحانية وموت روحاني، وأرواح الرسل لها قوة غير قوة أرواح البشر ـ مع أن إثبات ذلك بحاجة لأن يكون له وعاء روحاني ليستلم به الجواب ـ وهو خلوٌ منه، فالسيد المسيح وجميع رسل الله لهم قوة التأثير الروحاني، حيث يمكنهم استعمال هذه القوة الروحية بشكل أقوى وأعمق، وبالتالي كان ظهور السيد المسيح روحياً مثلما هو الحال مع رؤى اليقظة التي يراها كثير من أصحاب الأرواح الشفافة، وبالتالي كان القيام في اليوم الثالث على هذا الشكل الروحاني. اما أقوال البشر وما سجلوه من رؤيته بالجسد ووضع بولس إصبعه في مكان الطعنة، فلا يمكنني التمرد على الفكر الروحاني المسيحي، ولكن يمكن القول ان هناك من المسيحيين من يؤمن بطريقة مغايرة أيضاً. ومهما كان أمر القيام، فالغاية منه كانت إحياء الايمان في صدور الحواريون، ولقد تحقق ذلك وقاموا باذلين النفس والنفيس في سبيل نشر الايمان المسيحي وتحقق ذلك وانتشر في جميع أنحاء العالم.

---

1 - إنجيل متى 22/8.
2 - سورة البقرة 28.
3 - سورة البقرة

من الصفحة 62 الى الصفحة 78، لا يجد القارئ سوى ما يشبه كلام يتبادله إثنان من مشتركي الـ (youtube) و (facebook) جالسين على مقهى في شارع فرعي يتبادلان فارغ الكلام.

## الفصل الثالث

# (الدليل على وجود الله)[1]

إن الإنسان، في بحثه عن المعرفة في الكون، هو أشبه بحشرة للبطاطة، في ثمرة بطاطة، في كيس يرقد في عنبر سفينة، وهو يحاول أن يستكشف، من خلال حركة السفينة، طبيعة البحر العظيم.[2]

آرثر أدنغتون

جاء الفصل الثالث بعنوان (الدليل على وجود الله) في **الصفحة 79**.

قال دوكنز:- (الأدلة الخمسة التي عرضها توماس الاكويني في القرن الثالث عشر لا تدل حقيقة على أي شيء ومن السهل نقضها).

عدنا مرة اخرى لنقرأ ذات المقارنة المجحفة بين علوم ما قبل ثمان قرون وعلوم اليوم حينما يتناولها عالِم الأحياء دوكنز. وقد سبق ورددنا على مثل ذلك. وما جاء على مناقشته من أقوال توماس، فتدخل تحت ذات الباب. ومن شاء الاطلاع عليها، فذلك متوفر على الانترنت فلا موجب لتكرارها.

تحت عنوان فرعي (دليل مبني على الجمال) في **الصفحة 88**، ينقل عن أحد قادة الأوركسترا قوله:- (إذا كنت تستطيع سماع موزارت، لماذا تحتاج الله؟).

مثل هذه الأقوال، يأنف كاتب السطور والقراء الكرام بكل تأكيد على تكرارها، ومن الواضح أن "دوكنز" هنا لم يقرأ ما أثبته علماء الإنثروبولوجيا أن أصل العلوم جاء عن الكهنة والآلهات/الأنبياء في قديم الزمان، (ينقل هذا بعض الأدلة على أن أصل العلوم جاء من الكهنة) وأن منهم جاءت الموسيقى واختراع آلاتها وكتابة النوتة والسلم الموسيقي حينما كانوا يرتلون عباراتهم التعبدية في معابدهم، وهم الذين علّموا البشر الكتابة حيث كانت العلوم والمعارف محصورة برجال الدين دون سواهم لأنهم كانوا أول حواري الآلهة/الأنبياء، ومن ثم انتشرت الى عامة البشر بالتدريج، وبذلك ما ألفه كبار موسيقي العالم أمثال موزرات وبتهوفن وشوبرت وغيرهم كان أساسها من علوم أولئك الآلهة القدماء، ولولاهم ولولا علومهم لما سمعنا ولا رأينا روائع الفنون في الموسيقى والشعر

---

[1] - الصفحة 78

[2] - أعاجيب الكون السبعة. نارليكار. صفحة 295.

والرسم والنحت والغناء والرقص. لكن للجهل في حقيقة تسلسل علوم البشر دوره الواضح في أفكار الرجل.

تحت عنوان فرعي له (الدليل القائم على التجربة الشخصية) **صفحة 91**، قال:- (أعيننا لا تعطي الدماغ صورة صحيحة مثل فيلم دقيق عما يحصل بمرور الوقت في محيطنا.!).

هذا قول صحيح، لكن دوكنز لم ينتبه عند ذكره لمدى تأثيره المدمر على فكرة "الإلحاد"، فإذا كان الإبصار وهو أقوى الحواس الجسدية لا يعطي العقل صورة صحيحة عن الواقع المادي، فعلى ماذا استند في تكذيب وجود الله؟!

إن جميع المخترعات الموجودة بين أيدينا ناتجة عن نقل العلوم والمعلومات الأولية المادية عبر الحواس الى العقل، (البصر والسمع واللمس والشم والتذوق)، فاذا كان أقوى هذه الحواس (البصر) لا يعطي الدماغ صورة صحيحة عما حوله من موجودات الطبيعة، لكان ذلك من أقوى العوائق التي تحول دون اختراعات سليمة، وبهذا لا يمكن ظهور اختراع نتيجة معلومات خاطئة. لذلك فوجود هذه المخترعات لهو دليل واضح على أن حاسة البصر وبقية الحواس تنقل معلومات مادية "صحيحة" الى العقل. يؤكد على ذلك العالم جون كيرتشر، حينما قال:-

[ (كافة الأفكار الإنسانية قد نبعت من البيئة المادية التي عاش فيها وتحرّك خلالها)، هذا هو جوهر مفهوم المادية التاريخية. في مجتمع بدائي، حيث يكون الإنسان على احتكاك دائم مع بعض الأشياء ولا يستخدم سوى أدوات أو أسلحة بدائية قليلة، تكون أفكاره بدائية، ومحدودة جداً. أمّا في مجتمع متقدّم وعالي التعقيد، حيث يكون الإنسان على احتكاك مع عدد لا متناهي من الأشياء والمواد، أي أنّه ضمن بيئة معقّدة، عندها تكون أفكاره معقدّة، تحمل جوانب متعدّدة، وواسعة...[1] فالدماغ لا يمكنه عكس ما هو غير موجود. فهو لا يعكس إلا الأمور الحقيقية والواقعية. عندما يولد الإنسان يكون عقله صفحة بيضاء ناصعة لم يدوّن عليها أي شيء بعد. وأنا هنا لا أقول أنّ عقله خال، بل غير قادر على أداء عملية التفكير. في هذه المرحلة يكون محكوماً من قبل الغريزة وحدها. فهو يستجيب للجوع أو الألم. أمّا يقظة عقله تتبعها يقظة في الحواس. الحواس الخمس، الرؤية، السمع، الذوق، الشم، واللمس، يجب أن تُفَعّل أولاً قبل أن يكون من الممكن تجميع أيّة أفكار حول أي شيء في دماغ الطفل...[2] وظيفة الدماغ فهي التفكير. لكن لا وجود لأيّة أفكار من دون مستقبلات حسية.[3] إذا لم يدخل المعدة أي طعام، لا يمكن أن تكون هناك عملية هضم. وإذا لم تدخل الدماغ أيّة مستقبلات حسية، فلا يمكن أن يكون هناك فكر. تنقل الحواس الخمس "غذاء الفكر". والعقل ببساطة هو عمل الدماغ ونشاطه، كما أنّ الهضم هو عمل المعدة ووظيفتها. تلك الوظيفة التي يقوم بها العقل

---

1 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 12.
2 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 13.
3 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 14.

والتي نسمّيها ذاكرة لا يمكن فصلها عن الدماغ، كما لا يمكننا فصل عملية الهضم عن المعدة. تلك الوظيفة للدماغ التي نسمّيها ذاكرة ما هي إلا عملية تخزين للمستقبلات الحسية...[1] لا توجد صور فكرية في الدماغ إلا تلك التي يوجد لها مقابل في مكان ما من العالم الخارجي. بمعنى آخر، كافة الأفكار، مهما كانت معقدة أو غامضة، لها مصادر مادية خارجية، ويجب أن تكون مادية في أصلها. لا يمكن أن ينبثق الفكر من أي شيء إلا المادي. ولا يمكن أن ينبثق من لا شيء. وحتى الأمور والأفكار الخيالية، كبابا نويل على سبيل المثال، يوجد أصل مادي له في العالم المادي متجسّد في صورة رجل عجوز لطيف المظهر ذو لحية طويلة وبيضاء. أو كما يقول جوزيف ديتزغين فيما يتعلّق بالإيمان بالآلهة: ما هي إلا عبارة عن تركيبة فكرية لجسد أنثى يافعة ذات أجنحة على ظهرها. كلا الأمرين ماديان، الأجنحة والأنثى اليافعة.[2] إذا رأيت كابوساً وكنت تحلم بفيلة ذات أجنحة خضراء، أو أيّة خيالات وأحلام من أي نوع كانت، ومهما كانت خيالية، فيمكنك أن ترجع جميع هذه الصور الفكرية المركبة إلى مصادرها المادية. في الحقيقة، من المستحيل التفكير في أي شيء ليس له مصدر مادي. لم يكن هناك أي فكر في عقل الإنسان سوى ذلك الذي يمكن إرجاع أصله إلى الطبيعة ذاتها. لا يمكننا التفكير بلا شيء. حاولوا ذلك وانظروا بأنفسكم إلى أي مدى ستبلغون.[3] إلا أنّه ما زال هناك بعض الناس الذين يؤمنون أنّ الفكر متأصّل، أي أنّنا عندما ولدنا كانت أدمغتنا مجهّزة مسبقاً بمخزون معرفي كامل. هذه الفكرة غير منطقية على الإطلاق. فمذهب الأفكار الفطرية قد تمّ استبعاده الآن بشكلٍ كامل. هناك آخرون، في حين أنّهم لا يؤمنون بأنّ المعرفة متأصّلة في الدماغ البشري، نراهم يعذّبون أدمغتهم في البحث عن أشياء غير موجودة. إنّهم يعتقدون أنّهم إذا حبسوا أنفسهم داخل غرفة مغلقة فباستطاعتهم استخراج المعرفة من "أعماق عقولهم"، بطريقة أشبه باستخراج الماء من داخل البئر. فالشيء الذي لا يدخل إلى العقل لا يمكن استحضاره منه. فإذا أردنا أن نمتلك معرفة حول موضوع معيّن علينا أن نعود إلى مصادره المادية ورصده بحواسنا، أو علينا الرجوع إلى الكتب أو وسائل أخرى لتحصيل تلك المعرفة التي عمل آخرون قبلنا على تحصيلها ومراكمتها باستخدامهم لحواسّهم وتسجيلها في الكتب. ينبغي أن يتّضح أمام ناظريّ كل إنسان يمتلك ذرّة ذكاء أو عدم تحيّز أنّ البيئة المادية هي أساس ومصدر جميع الأفكار. والبيانات التالية التي أقدّمها حول بعض الأديان الرئيسية في العالم هي بغرض إثبات صحّة ما ذهبت إليه.].[4]

ثبت من خلال النص السابق، أن حواس الجسد هي الوسائط الناقلة لكل معلومات الوجود وبدونها يستحيل على العقل التفكير أو الإبداع واختراع أية آلة أو جهاز .

*****

1 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 14.
2 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 15.
3 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 15.
4 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 16.

ما زلنا في **الصفحة 91**، حيث يقول دوكنز:- (الدماغ يقوم ببناء نموذجه بشكل متجدد باستمرار: هذا الواقع هو عبارة عن نبضات كهربائية تمر في العصب البصري، وبذلك تبنى صورة متغيرة).

هذا الترتيب والتصوّر لعملية التفكير داخل الدماغ وكيفية تواصل العلوم وارتباطها في عقل الانسان، لم يستطع إثبات صحتها حتى اليوم أعظم علماء تشريح الدماغ والأعصاب وكبار أطباء الفسلجة، وكل ما قيل في هذا الشأن ـ رغم شيوع معلومته الخاطئة بين كثير من المثقفين ـ إنما هو من باب الافتراضات، فلقد ظُنَّ دون أدلة طبية او علمية أن الدماغ هو المحطة الأخيرة لمسيرة جميع معلومات الحواس الخمسة. إلا إنها تبقى في حقيقتها فرضية غير مثبتة علمياً رغم كل ما ناله العلم من تطور وتقنية متقدمة. ودوكنز هنا يظن المظنون كحقيقة، ولو سألنا أي عالم أعصاب او متخصص في فلسجة الدماغ فلن يجرؤ على الجزم بمثل ما فعل صاحبنا دوكنز.

يقول:- (الخداع البصري هو تذكير واضح على ذلك. وقد نشأ صنف من الوهم البصري.).

إذا كانت أعيننا لا تعطي صورة صحيحة للعالم المادي، ويتخلل صور الموجودات أوهام وخيال، فمن المفروض أن يكون كل ما بين أيدي البشرية من علوم استندت على البصريات، هي مجرد أوهام، وعلينا بابعادها وعدم الاستفادة منها، لأنها مجرد (خداع).!

(وقد نشأ صنف من الوهم البصري... والذي يسبب الاحساس بان المعلومات الحسية التي يستقبلها الدماغ تتطابق مع نموذجين متباينين من الحقيقة).

هنا يكون دوكنز قد وصل الى نتيجة أن كل ما بين أيدي البشر من ناتج ونتائج المعلومات والعلوم خاضعة لنموذجين مختلفين من الحقيقة.! ولكنه من الثابت علمياً أن الحقيقة لا تتجزأ، فلا يمكن القول أن ناتج ضرب 2×2 يساوي أربعة، وفي نفس الوقت يقال أنه 5. فلو كان مبدأ "الوهم البصري" يؤثر في حقائق الأشياء بهذا المنطق، لما قامت للعلوم قائمة. صحيح أن العين ترى الأحجام الكبيرة البعيدة صغيرةً، وترى أعمدة العجلة الدوارة تعود الى الخلف، لكن العقل يستنتج بسهولة ان هذه الرؤى مجرد خداع بصر وأن الجبل كبير الحجم والعجلة تسير الى الأمام وأن جمرة النار الدوارة محدودة الحجم والمكان.

ويكمل:- (وهكذا يتشكل لدينا احساس بالتأرجح بين نموذجين).

لو كان هذا الاستنتاج صحيحاً لتهدمت جميع المحاولات والتجارب العلمية ولما كان هناك دافع علمي للتقدم، طالما أن النتائج قد تصل الى احتمالين أحدهما قد يؤدي بالعلماء والمكتشفين الى التخريب والقتل والموت. فهل نفهم من هذا أننا لو حفرنا حفرة فقد نجد أنفسنا متجهين الى الأعلى بدلاً من الأسفل؟ أو هل إذا حاول متسلق صعود جبل فمن المحتمل أن يجد نفسه في أسفل الوادي؟ أو تكون نتيجة محاولة الجري الى الأمام

هي الى الخلف؟ لا يمكن تفسير قول الرجل إلا أنه نوع من التلاعب بالألفاظ و نوع من هلوسة الكلام. ولذلك ملك الانسان أكثر من حاسة مادية حتى تتأكد الفكرة وتتجسد، فما يراه مكوراً تتحقق منه حاسة اللمس، وما تلمسه الأنامل وتشعر به أنه أكثر من واحد، تجزم بعدده حاسة البصر أنه واحد لا أكثر.

**صفحة 92**:- (يبني الدماغ نموذجاً للصوت عن طريق المعلومات السمعية المستمرة بالتدفق للأعصاب السمعية. ولذلك نسمع نغمة البوق كمعزوفة متواصلة واحدة، وليس كتركيب من ترددات هارمونية تعطيها طابع الزمجرة النحاسي. والأحرف الصوتية واللاصوتية تبنى في الدماغ بنفس الطريقة، وهكذا، وعلى مستوى آخر، تبنى الأنغام والكلمات من مجموعة أصوات أعلى).

إنها مجموعة كلمات تشكل جملة ذات معاني مضللة غير متواصلة تعتمد في أساسها على حجب جوهر النقطة العلمية الأساسية عن القراء من ذوي غير "الاختصاص"، وهم بنسبة 99% تقريباً. فقبل كل شيء، لم يحدد دوكنز مكان استقرار تدرج عملية السماع؟ ولم يخبرنا كيف تتبدل هذه الاهتزازات الموجية الى إشارات مفهومة، وما هو الجهاز الذي يقوم بذلك، وما هي اللغة المستبدلة التي تتحول لها الأصوات والنغمات كي تصبح مفهومة لدى السامع، وأين هي تلك القطعة اللحمية او الغضروفية او العظمية التي إذا رفعناها من الدماغ لا يحصل فهم للأصوات رغم وجود جهاز الأذن كاملاً؟ ثم أين هو مستقر تخزينها في جهاز المخ المساعد لمعرفة ذات النغم المكرر حتى نطرب له ونردده حين نتذكره؟ وكيف تتركب وتتبدل معاني الأصوات من حالتها الى معلومات نعقلها ونميز بينها فيما اذا كانت جديدة أو غريبة. وأين هو جهاز خزن المعلومات في المخ الذي إذا رفع أو حجب لم يعد يتذكر الانسان من علومه شيئاً؟ فكل ما نعلمه أن الذاكرة قد تنقطع في حالة حدوث ضربة مفاجئة فلا يعد المرء يتذكر شيئاً من مكتسابته المعرفية، وهنا قد يكون تفسير ذلك إنقطاع عصب موصل أو انحراف غضروف عن موضعه فينقطع سبيل التوصيل بين مجمل تركيبات عملية السماع. فأي من الشحميات واللحميات والغضاريف والعظام أو الأعصاب الذي إذا أخذناه على حده وأخضعناه للفحص والتجربة والاختبار، أمكن الحصول على مجموعة خزين علوم الانسان؟ فلو كان ما يقوله دوكنز صحيحاً فلا بد من وجود جهاز في الدماغ حتى ولو كان بحجم رأس الإبرة يكون مقراً للمعلومات، وإذا تحقق ذلك، لسهل الأمر في استخلاص العلوم حتى بدرجة أكبر مما يتذكره الانسان في حياته، ولحصلت طفرة علمية هائلة نتيجة وجود هذه الطريقة في استحصال العلوم، مثلما هو الحال حينما نستعمل "الفلاش" لاستخلاص معلومات من جهاز الكومبيوتر، وبذلك نأخذ من دماغ هذا ونشحن في دماغ ذاك. ثم ما هي اللغة التي يستعملها الدماغ حين استبداله أصوات الحروف والكلمات وأصوات الموسيقى الى مفاهيم محددة مفصلة كل منها تعطي معنى خاص بها، وأين مكان مقارنة المعلومات الصحيحة بالخاطئة أو المزيفة وفي أي جهاز داخل المخ؟ وهل يعتمد حجم الجهاز على كثرة المعلومات او قلتها فيكون كبيراً لدى العلماء وصغيرا لدى الجهلاء أو الأطفال؟ كل هذا وغيره الكثير يستدل منه على أن الرجل

حاد كثيراً عن موضوعه واختصاصه ودخل في مجال آخر وراح يتخبط في تفاصيل علم آخر معتمداً على ندرة العارفين في هذا المجال.

**صفحة 93**:- (عقل الانسان رائع جداً في إعادة بناء النماذج. وعندما ننام ندعو ذلك أحلاماً، وفي اليقظة ندعوها بالتخيلات أو في حالة كونها شديدة الواقعية ندعوها هلوسات).

دعنا من التمسيات وما أبدعه الانسان منها لغوياً، ولنأخذ جوهر الفكرة، فكل ما ذكره المؤلف من تصوراته يتحطم حينما نعلم بوجود وقائع حياتية متعددة لكثير من الأشخاص خاضوا مثل هذه التجارب ممن لا شك في رفعة تفكيرهم ومستوى عقليتهم. إن نسبة من القراء ـ يمكن القول لا بأس بها ـ حصلت لهم مواقف روحية أثناء نومهم، حينما شاهدوا أموراً أو أحداثاً او وقائع أو شاهدوا أماكن محددة وغير ذلك في مناماتهم وهم ممددين على أسرتهم. وحينما استقيظوا وتذكروا رؤاهم، علموا دون شك أنه لم يسبق لهم أن مرّوا بمثل هذه الظروف او المواقف خلال حياتهم. وتبقى تفاصيل بعض او كل أحداث هذه الرؤى في ذاكرة الانسان حتى يمر الوقت وتتداول السنين، فإذا بهم في موقف مشابه تماما يستحضر من ذاكرتهم مجموعة الرؤى القديمة ليذكّرهم أنه سبق وشاهدوا هذه المواقف تماما من قبل في أحد أحلامهم. من المؤكد أن كثير من القراء يوافقني الرأي بخصوص مثل هذه المواقف وأنها حصلت لهم ولو لمرة واحدة على الأقل في حياتهم. وهنا يأتي السؤال كيف استطاع الدماغ المادي السفر عبر الزمان المستقبلي ورؤية ما لم يكن موجوداً في الزمن الحاضر فالمادة لا توجد في مكانين؟ بل هل يمكن ان تكون أحداث المستقبل مرتبة ومبرمجة ومخطط لها، فلن يحاد عنها؟ ثم أين هو ذلك الجهاز المادي الذي احتفظ بمعلومات وصور وأحداث هذه الرؤى، وهل يمكن إخراجها وتناولها بالفحص والاختبار واستخلاص أحداث المستقبل والحذر منها أو الاستعداد لها اذا كان كل ذلك يخزن في اجهزة محددة داخل الدماغ؟ كيف استطاع الانسان إبن الواقع المادي وابن اللحظة ـ كما يفترض دوكنز ـ تجاوز كل هذه المدد الزمنية وهو مستلقي نائماً على فراشه؟

ولو قرأ كتاب (الحياة ما بعد الموات) للعالم المتخصص في علم النفس د. ريمون مودي، (Raymond Moody) وهو دكتور في الطب وفلسفة الطب ـ وأظنه قد قرأه ولم يهتم به لمخالفته أفكاره ـ فمثله لا يفوته مثل هذا الكتاب المهم، لوجد فيه ما يحسن اطروحاته كثيراً. ومن الأمثلة العديدة التي ذكرها الفيلسوف مودي على تجارب الحياة بعد الموت، قال:-

(هو ذا إذن إنسان يموت، وفيما يبلغ ذروة الضيق الجسدي، يسمع في آن معاً الطبيب الذي يلاحظ موته. ويبدأ حينئذ يُدرك ضجة كريهة، كمثل نغمة قوية من جرس الأبواب أو نوع من الطنين، وفي الحين ذاته يشعر بأنه مخطوف بسرعة شديدة خلال نفق معتم وطويل. ثم يتواجد فجأة خارج جسده المادي، ولكن دون أن يغادر بيئته الجسدية المباشرة، فيرى جسده وهو على شيء من المسافة، كما يفعل أي مُشاهد. ويلاحظ، من

وجهة نظره المحظية هذه، المحاولات الساعية إلى إنعاشه من جديد، وهي محاولات تعني بخاصة جسده، و يلبث في حالة من التوتر الشديد نفسانيًا. وعقب بعض اللحظات، يستدرك نفسه و يتأقلم شيئًا فشيئًا مع غرابة وضعه الجديد خارج جسده. ويُدرك أنه لا يزال يمتلك 'جسدًا' آخر لكن هذا الجسد قد اتخذ طبيعة خاصة جدًا، ويتمتع بملكات مختلفة جدًا عن الملكات التي بقيت مع هذه الجثة التي تركها لتوّه. وبعد قليل، تجري حوادث أخرى: فثمة كائنات من الأرواح تتقدم للالتقاء به، وتبدو أنها تريد منحه المعونة، و يلمحُ 'أرواح' بعض أهله وأصدقائه الذين قضوا نحبهم قبلهُ. وفجأة، يحضر كيان روحي، من نوع مجهول، روح ذو حنان دافئ، زاخر ينبض بالحب ـ 'كائن من نور' ـ ويظهر له. و يقوم هذا الـ 'كائن' بطرح سؤالا عليه، سؤالا منطوقا بغير كلام، و يجعله يقوم بحصيلة حياته السابقة. و يُعينه هذا الكيان في هذه المهمة، إذ يوفر له رؤية بانورامة آنية [فسيحة وشاملة] عن جميع الحوادث التي مهرت مصيره بوسمها. ثم يأتي حين، حيث يبدو المواتي [الميت خلال فترة وحسب] أنه يصادف أمامه نوعًا من حاجز، أو من حدّ من الحدود يرمز ظاهريًا الى الفاصل الأخير ما بين الحياة على الأرض والحياة المقبلة. لكنه يلاحظ عندئذ أنه يتوجب عليه الرجوع الى الخلف، وأن زمان موته المستمر لم يأت بعد. وفي هذه اللحظة، يقاوم هذه الضرورة لأنه يبقى عندئذ مفتونًا بتدفق حوادث ما بعد الحياة ولا يتمنى الانكفاء الى حياته الجسدية الدنيوية. وتجتاحه مشاعر عارمة من الفرح والحب والسلام. ورغم كل هذا يتواجد من جديد متحدًا بجسده المادي: فيولد ثانية الى الحياة مع جسده على الأرض).[1]

وهناك قصة واقعية أخرى لامرأة تروي ما حدث لها:-

(منذ سنة تقريباً، تمّ قبولي في المستشفى في أعقاب اضطرابات قلبية، وفي اليوم التالي، وأنا متمددة على سريري، بدأت أشعر بألم شديد في صدري. فضغطت على زر الجرس قرب سريري منادية الممرضات، فهرعن مُسرعات حولي. وإذ اعتراني انزعاج سيء جدًا وأنا مضجعة على ظهري، أردت أن أنقلب على جانبي، ولكن، وأنا أقوم بهذه الحركة انقطع تنفسي وتوقف نبض قلبي، وسمعت الممرضات يعطين إشارة الخطر باللغة المدونة في المستشفى، وفي الحين ذاته شعرت بخروجي من جسدي وانزلقت الى الأسفل ما بين الفراش وقضيب جانب السرير ـ وبدقة شديدة، بدا لي أني أمرّ خلال هذا القضيب ـ حتى أرض المكان. ثم ارتفعت في الهواء وفيما لبثت أصعد، رأيت عدداً آخر من الممرضات يدخلن الغرفة راكضات ـ وكنّ قرابة اثنتي عشرة. وبالصدفة كان طبيبي في المستشفى وهو يقوم بجولته المعتادة، فنادَينهُ وشاهدته يدخل هو أيضا. وفكرتُ: يا للغرابة! ما الذي أتى به الى هنا؟ وبقيت ارتفع حتى أعلى مصباح السقف (فاستطعت رؤيته جانبياً وبوضوح بالغ)، وتوقفت عائمة فوق السقف تماما، ونظري ينحو الى الأسفل. واعتراني الانطباع بأني قطعة ورق أتتها نفخة لتجعلها تطير في الهواء. ومن فوق، حضرت جميع مراحل الإنعاش. ولبث جسدي مُضجعًا هناك، ممدوداً على السرير، بشكل واضح، وكانوا يحيطون به. وسمعت صراخ ممرضة تقول: "آه! يا إلهي، قد ماتت!"، فيما تمددت

[1] ـ الحياة ما بعد الحياة. ريموند مودي. صفحة 29.

ممرضة أخرى لإنعاشي فمًا بفم. وشاهدت قذال رأسها وهي تزاول عملها. ولن أنسى البتة شكل تسريحة شعرها، وكان شعرها مقصوصًا قصيرًا على قذال رأسها. وفورًا عقب ذلك، لاحظت هذه الآلة [هذا الجهاز] التي أدرجوها في الغرفة، وراحوا يُنجزون صدمات إلكترونية على صدري. وفي الحال رأيت جسدي بكامله يقفز و يطفر فوق السرير، وسمعت قرقعة جميع عظام جسدي، وبات المشهد فظيعًا. وفيما بقيت أنظرهم وهم يضربون صدري ويفركون ذراعي وساقي، بدأت أقول لنفسي: 'لكن، لماذا يمارسن على أنفسهن كل هذا الجهد المضني؟ فأنا أشعر أني على ما يرام الآن).[1]

وأعربت إمرأة أخرى عما جرى لها وهي "مواتية" كما يلي:- (كنت أشاهد أناسًا حولي وأفهم ما يقولون. ولم أسمعهم بأذني كما أسمعك الآن. بل لبث الأمر وكأنني أعلم ما يفكرون، وبدقة ما يطرأ على بالهم، أي بالفكر فقط لا بمفرداتهم. ولبثت أتلقى فكرتهم قبل ثانية من تحريك شفاههم لكي يتكلموا).[2]

قصة واقعية أخرى عن حالة الروح:- (حدث لي ذلك عند ولادة أحد أطفالي. وقد كان النفاس عسيرًا جدا، ونزفت بغزارة. فعدل الطبيب عن إنقاذي وأخبر عائلتي أنني مشرفة على الموت. أما أنا فكنت أشعر خلال هذا الوقت بأنني صاحية، بل اعتقدت أنني سأستعيد للتو وعيي الكامل، وذلك عندما سمعت الطبيب يتكلم عن موتي. وفي ذاك الحين بالذات أدركت وجود جمع من الناس، حشد منهم تقريبًا يحومون على مستوى سقف غرفتي. وكانوا جميعا أناسًا عرفتهم سابقا وقضوا نحبهم قبل ذلك الحين. وتعرّفت ما بينهم على جدتي وعلى إحدى رفيقاتي في المدرسة، وأيضًا على أفراد من أقاربي أو أصدقائي. كنت أشاهد بخاصة وجوههم وأشعر أنهم ماثلون هناك حقًا. وكان السرور يبدو على وجوههم والظرف سعيدًا وعلمت أنهم وفدوا إليّ لحمايتي أو لإرشادي. ولبث الأمر يُشبه عودتي الى بيتي وذويّ، وكأنهم أتوا لاستقبالي عند العتبة لكي يرحبوا بي. وظهر لي كل شيء جميلاً وخفيف الظل. وبقيت الدقيقة تلك رائعة وبهية تمامًا).[3]

تحت عنوان جانبي (الحجج من الكتب المقدسة) في الصفحة 95، كتب دوكنز:- (إحدى الحجج الشائعة، والمنسوبة للعديدين، ومنهم س. اس. لويس (والذي كنت أتوقع منه أفضل من هذا)، تقول بأنه، طالما زعم المسيح بأنه ابن الله، فإنه إما على حق أو مجنون أو كاذب: "مجنون، سيء أو جيد" أو بشكل آخر، "مهووس، كذاب أو إله... وعلى كل حال، وكما قلت، ليست هناك أدلة تأريخية جيدة بأن المسيح زعم بأن قدوس بالمرة).

سبق وذكر في الصفحة 32 كلمة قبيحة بحق السيد المسيح لم أجرؤ على تكرارها، وها هو يعيد الكرّة بكلمات أقل وقاحة. وليس دوري هنا الدفاع أو المحاماة عن ذات السيد المسيح، لكن ما يجلب الإنتباه أنه ما فتئ يذكّر القراء بأن الأخلاق تنبع من الإنسان ذاتيًا ومن علمه ودراسته وذكاءه! فأين ذلك منه حينما يتجرأ بمثل هذا الكلام القبيح ضد

---

1 - الحياة ما بعد الحياة. ريموند مودي. صفحة 42.
2 - الحياة ما بعد الحياة. ريموند مودي. صفحة 58.
3 - الحياة ما بعد الحياة. ريموند مودي. صفحة 61.

ذات قدستها المليارات من البشر؟ بل يقدسها قرابة نصف سكان الأرض، حيث أن السيد المسيح مقدس عند المسلمين والبهائيين أيضاً. لقد كان الأولى به احترام مشاعر هذه البلايين. فهل أن ما يدعو اليه من سبيل الإلحاد هو (قلّة الأدب) والوقاحة بهذا النحو؟! وهل يدعو الناس الى هذا المنهج الأخلاقي الردئ؟ فإذا كان لا يؤمن بالسيد المسيح، فعلى الأقل أن لا يشتمه في كتاب سيبقى موجوداً لسنين طويلة.

كل ما يستنتطق من كلام هذا الرجل أنه يبتغي مفاهيم مادية من نصوص روحانية وبطريقة التلاعب الواضح بمعاني كلمات الإنجيل، فهو لا يتقرب من لقب "ابن الانسان" التي تتكرر في كتاب الإنجيل، و عندما يصف السيد المسيح نفسه ابن الله، فهو لم يقصرها على ذاته فقط، حيث وردت إشارتها أيضا الى المؤمنين به:- (وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون بإسمه).[1] إذن هي صفة عامة لكل من آمن به وليست صفة خاصة بالسيد المسيح فقط، مثلما حاول "دوكنز" تركيز عدسته المكبرة عليها. ثم تأتي الآية التي بعدها لتوضح المقصود من ذلك:- (الذين ولدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله). وهنا لو أخذنا المعنى بظاهر الكلام، فسيخالف منطوقه قوانين الطبيعة والعلوم المادية، حيث لا يوجد مخلوق لم يولد من دم أو من مشيئة جسد أو من مشيئة رجل؛ كما لا يوجد في المقابل انسان ولد من الله. لكن المقصود هو أن عملية الإيمان هي ولادة روحانية لا تشابه الولادة المادية الجسدية، إنها ولادة متصلة بارادة إلهية، وهذه لا علاقة لها بما يفكر به هذا الرجل، لأنه بعيد جداً عن هذه المفاهيم الروحانية غايته الشهرة والثروة. لذلك فالاشارة الى أبناء الله جاءت لتشمل كل مؤمن بالسيد المسيح، فهو ابن الله الروحي، ومن الطبيعي أن يكون السيد المسيح في مقدمتهم.

من هنا لا يؤخذ المعنى أن له علاقة بالماديات والقوانين الطبيعية، بل بالروحانيات التي يتكلم بها السيد المسيح والتي لا يفهمها دوكنز وأمثاله. إنها تقديس ورفعة لمن يستجيب بروحه للدعوات الروحية الإيمانية، وبهذا يرتد كل ما أطلقه من صفات (الجنون والكذب والهوس والخطأ بل والغباء والسطحية) عليه وبجدارة، لأنه ممسك بمصباح ذي نور أحمر و يبحث عن أمور خضراء، لذا فهو لن يراها، ومن الطبيعي أن ينكرها.

وبالمناسبة، فطالما وصف المخالفون والمكذبون رسلهم وأنبيائهم، بالسحر والجنون وما شابه، وها هو القرآن يذكرنا بذلك منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. فلقد وصف عرب شبه الجزيرة النبي محمد:- (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ).[2] وكذلك:- (وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ).[3] وجاء عن النبي موسى إتهامه من المعاندين بذات الصفات:- (فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ).[4] ولم يسلم النبي نوح من ذلك أيضاً

---

1 - إنجيل يوحنا 12/2.
2 - سورة الحجر6.
3 - سورة الصافات 36.
4 - سورة الذاريات 39.

وهو من أقدم الأنبياء:- (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ).[1] وفي المقابل يعمم الله تعالى صدور هذه التهم من جميع الكافرين على جميع الرسل:- (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ).[2]

ونقطة أخيرة، فالقرآن يشهد أن السيد المسيح قدوس مقدس، بقوله:- (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ).[3] وكذلك:- (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ).[4] أفليست هذه شهادة من رسول بذات الدرجة المقدسة للسيد المسيح بأنه ذات مقدسة بروح القدس. إضافة الى هذه الشهادات القدسية، نجد أن بهاء الله صاحب الشريعة البهائية يشهد للسيد المسيح بعظمة أمره وقدسيته حينما قال:- (وتفكر كيف ان نفس جوهر الروح المعروف بين القوم بأن لا أب له، قد منحه الله النبوة وجعله حجته على كل أهل السموات والأرض).[5]

وبهذا نكون قد جئنا على شهادة أعظم ذاتين مقدستين شهدا بقدسية السيد المسيح.

**صفحة 97**:- يتساءل عن كتاب الإنجيل مستفسراً من أتباعه: (لماذا لا يلاحظون هذه التناقضات الساطعة)؟

ما يثبت صحة الإنجيل وبقية الكتب السماوية هو خلق وإيجاد حالة الوحدة والتوحد الاجتماعية بين البشر لآماد طويلة، هذه الوحدة اختصت بالأديان فقط دون الدعوات السياسية قصيرة الأزمنة، فما من أمة ظهرت على الأرض وما من امبراطورية او مملكة ارتفع صيتها في الشرق أو الغرب إلا ورافق سموها وعلوها اعتناق مواطنيها لدين من الأديان حتى ولو كانت أديان آلهة قديمة. فدعك من شبهة التناقضات التي تراها بعين واحدة، وقدم لنا بدلاً من كتابك الداعي الى الفرقة والاختلاف والتشرذم وما تجر خلفها من فتن وحروب، منهجًا عقلانيًا تسير عليه البشرية في هذا الزمن المضطرب كي تبتعد عن خطر الحروب القادمة. إن الهدف من ظهور الأديان منذ القدم هو تنوير عقل البشرية الصبياني ودفعهم للنضوج والتقدم، وهذه العملية استغرقت ملايين السنين، وخضعت وما زالت تخضع لعملية التطور التدريجي، فوجود الانسان على الارض لم يبدأ منذ عشرات الألوف من السنين فقط، ولن يستمر الى مثل ذلك ايضا، فوجوده مرتبط بوجود الطبيعة والكون، فالانسان هو المخلوق الوحيد الذي يمتلك عقلاً اختص به دون بقية المخلوقات، ولو اختفى الانسان فلن يكون للوجود قيمة ولا معنى حيث لن يكون هناك من يسعى لتهذيب موجوداته وصقلها. وكذلك لو وجد الانسان بجسده فقط واختفى عقله ووعيه، فلن يكون لوجوده فائدة ولا معنى، وسيختفي من الكون كل شيء، لأن الأشياء لا إلا بالعقل.

---

1 - سورة القمر 9.
2 - سورة الذاريات 52.
3 - سورة النساء 171.
4 - سورة البقرة 253.
5 - كتاب الإبقان. صفحة 16.

حتى الان لا يبدو الغرض من كتابه إلا كسب الشهرة، فأمثاله موجودون كذلك في الشرق الاسلامي يبحثون في كتب التراث عن أمر أو معلومة منسية غريبة لم يتطرق لها أحد من قبل، فيظهر على وسائل الاعلام ليعلن عنها وكل غايته الشهرة والإسم، وبالتالي يكون الهدف الأساس هو الثروة والمال، ولا أظن اهتمام هؤلاء بالأديان وشؤونها إلا لغاية الشهرة والمال لا أكثر. فكل ما قدمه الرجل حتى الآن، هو التشويش والتشكيك السلبيين اللذين لا يبتغي من ورائهما نظرية علمية ولا معلومة توصل الى مخترع علمي جديد مفيد. إنه لغو الكلام.

تحت عنوان جانبي (الحجة من العلماء الكبار المتدينين)، **صفحة 100**، ينقل عن بيرتراند راسل:- (الغالبية الساحقة من الأذكياء المثقفين لا يؤمنون بالدين، ولكنهم يخفون ذلك عن الجمهور، ذلك لأنهم خائفون على مصدر رزقهم).

كلام صحيح لأن الدين هو منهج تربوي لا بد ان يتفق مع تطور العقل البشري، وهذا هو السر في استمرار نزول وتتابع الشرائع الإلهية كي يساعد في تطور الروح الانساني لتساهم في رفعة العقل البشري التنويري، فإذا تمسك الانسان بجهاز المصباح ولم يهتم بمصدر النور فستكون آخرته الظلمات والتخلف. لذلك نجد استمرارية نزول الأديان الإلهية حتى اليوم بظهور الديانة البهائية العصرية المتوافقة مع ما وصل وسيصل اليه العقل البشري مستقبلاً. وبما أن التعصب سمة عامة للبشر حتى ولو لم يعترفوا بذلك، وجب عليهم مجاراة أتباعهم بمحبتهم للمصباح والإيحاء لهم أن المصباح ما زال يشع نوراً كسابق عهده وهو أهم وأعزّ من النور، مع أنهم يعلمون جيداً أنه قد انطفأ منذ زمن بعيد، إنهم مجبورون على مسايرة العامة لأنهم لا يملكون مورد رزق غير بيع الكلام المطلوب توافقه مع الجهل. وبهذا فهم يبيعون دينهم وإلههم من أجل المال والمصلحة الشخصية مقتنعين خطئاً أن ذلك لن يضر التقدم العلمي الساعين خلفه.

يقول:- (سأركز على العلُماء بشكل خاص، أن السبب واضح، الذين يستعلمون أسماء أناس يثيرون الإعجاب كأمثلة دينية يختارون العلُماء في معظم الحالات).

عجيب أمر هذا الرجل! فهذا بالضبط ما فعله حينما ملأ كتابه بأسماء مفكرين وكتّاب استشهد بإلحادهم،[1] ثم يستنكر على غيره ذات السبيل! أما إذا كان من استشهد بهم من

---

[1] - وآيات مبدع الكون وخالقه هي ما لا يُحصى، ولكن القليل من الكتب الفلكية في الغرب ما قد يُذكّر بها، وأكثرها ما هو قد يتنكَّر لها، لا بل إن بعضها يجهرُ بالإلحاد ويدعو له. والأدهى من ذلك أن ما يُترجم منها الى العربية يكاد أن يكون كُله أو جلُه وقفاً على الأخير، فكأن القائمين على نقل هذه العلوم لم يجدوا ضالتهم إلا في كتابات الملحدين من كتّاب الغرب، رغم أن ثمة، صحوة إيمانية قوية. وأعجب ما تجده عن الكثير من الكتب الغربية التي تبين آيات الله تعالى، وتدعو الى الإيمان به سبحانه، أنها لم تنعكس على ما نترجمه منها الى لغتنا العربية، فكأننا صرنا لا نترجم من كتبهم تلك إلآ ما هو ضدّ الدين والايمان، ولكأن الكثير من علماء الغرب هم أكثر تواضعاً للعلم، وأقرب الى الايمان، وأصرف الى الحقيقة المجردة، من نظرائهم العرب، وجلّ الأخيرين ليس لهم من الأمر شيءٌ اللهم إلا اختيار العناوين التي يصار الى ترجمتها، فكأن تلك الكتب المترجمة صارت، من حيث لا يُشعر أو يراد بها، إذا أردنا أن نكون حسني النية، سبباً للشك لا لليقين، وللكفر لا للهداية، ومصدراً يحُضُّ على الابتعاد عن الدين المبني على العلم الحق، بدلاً من أن تكون سبباً للهداية للإيمان... هذا، وفي الناس، ونحن

أصدقائه ومعارفه ومن مقتطفات الصحف والمجلات والندوات الجانبية، فليس لهم مكانة علمية ولا قيمة علمية لتلك الاستشهادات.

يقول:- (نيوتن بالتأكيد إدعى التدين، وهذا ما فعله الجميع تقريباً حتى حلول القرن التاسع عشر، حيث قلّ الضغط الاجتماعي والقضائي عن القرون السابقة فيما يتعلق بالانتماء الديني وزيادة الأدلة العلمية التي تدعو لإهمال الدين).

سبق وذكرنا أن الدين هو سبب النهضة العلمية، لأن العلم مرتبط بالروح وهي مرتبطة بالعقل، وبمجرد أن ترسل روح الله نهضة روحية جديدة، تنتعش أرواح البشر وتتجدد الأفكار وتبدأ مرحلة جديدة من التطور المؤدي الى حضارة جديدة. فالقرن التاسع عشر كان زمن نهاية النهضة الروحية لدين الاسلام آخر الديانات التوحيدية السابقة، أما ما بعد القرن التاسع عشر، فحصلت نهضة عقلية توافقت مع نشرته للنهضة الروحية الجديدة للديانة البهائية، لقد كان ذلك القرن موعد وفاة روح الايمان لدين الاسلام بعدما كانت قد توفت روح الايمان المسيحي من قبله ناهيك عن الدين اليهودي، وبهذا شهد القرن التاسع عشر توقف فاعلية روح الأديان الثلاث وأكد عليها، بينما بقيت روح العلم مستمرة في طريق التقدم، وبهذا ظهر الفرق بين الأديان القديمة والعلم الحديث وراحت الفجوة تتسع بينهما، مما أدى لظهور العرج في مسيرة البشرية الذي أوصلها الى تقدم علمي كبير وضمور روحي أكبر سيؤدي لا محالة الى نتيجة كارثية حينما يمضي العالم معتمداً على قدمه العلمية فقط دون الروحية الأخرى، مما سيؤدي حتما الى انهيار الحضارة المادية الحالية حينما تواجه مشاكل البشر الضخمة المتوالية القادمة، وساعتها سيكون عنوان الاختبار المرعب القادم (أكون أو لا أكون)، فما شهده التاريخ البشري من مآسي وحروب وطنية وقومية وعالمية سابقة سيكون بمثابة لعب ولهو أمام الخراب والدمار القادم بسبب الاعتماد على العلم فقط، فإذا لم تعد البشرية الى رشدها وتنتبه لعرجها ولا تتبع سبيل الخلق الروحاني الإلهي الجديد. فما هو إلا الدمار الشامل.

**صفحة 101**:- (خلال القرن العشرين أصبح البحث عن عُلماء يصرحون بالتدين، عملية أصعب، لكنهم ليسوا نادري الوجود بأي حال).

هذا ما سبق وأشرنا اليه. والسبب موت روح الأديان القديمة (الاسلام والمسيحية واليهودية والبوذية وغيرها) التي يتبعها غالبية البشر بعد انقطاع طاقتها الروحية الباعثة على التجدد، فكان استمرار العلم في التقدم على الرقي الروحاني أمراً حتمياً. وهذا ما يطلق عليه الرقي الأعرج أو (عرج الرقي). لذلك أصبحت صورة الايمان عند الناس شكلية مادية لا روح ولا حياة فيها، ومسألة تقليدية روتينية وحالة اجتماعية نراها في الزيارات التقليدية للمساجد والكنائس والمعابد وغيرها.

---

منهم، تعطش الى الإيمان الخالص المبني على العلم كبير، وظمأ الى المعرفة الروحية في هجير العصر المادي الماحل الذي يلفّنا عميق. (الدكتور داود سلمان السعدي. كتاب اعاجيب الكون السبع. للمؤلف جيانت فيشنو نارليكار. صفحة 10).

قال:- (فإن ما يظل محيراً بالنسبة لي، ليس أيمانهم (علماء الطبيعة) بوجود نوع من رجل القانون الكوني، بل أيمانهم أيضا بتفاصيل المسيحية: القيامة، غفران الذنوب والخ...).

بعدما دخل العقل البشري مرحلة جديدة من التفتح والرقي والعلوم العظيمة وصار يعتمد على قوة العلم دون الروحانيات في تفسير كل ما حوله، فاتضحت أمامه مسائل دينية وروحية لم يسبق أن انتبه إليها، فحاول جاهداً وبقوة العلم تفسيرها لكنه لم يفلح، فهي من اختصاص الله ورسله الكرام، ورغم أن غوامض رموزها قد تم تفسيرها وشرحها في الديانة البهائية، إلا ان غشاوة العلم بقيت حائلة دون تنور أرواح الكثيرين بشمس الحقيقة الروحانية الجديدة، لذلك نجد غالبيهم ما زالوا يتخبطون في معرفة أجوبة هذه المسائل العويصة. فمن معاني القيامة الغامضة على المسيحيين والمسلمين هو أن ظهور ذات الرسل الكرام وقيامهم على أمرهم هو بمثابة "قيامة"، كما ورد تأكيد ذلك في الإنجيل الجليل بكل وضوح:- (قال لها يسوع: "أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا)،[1] وكما ورد في القرآن الكريم (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).[2] فالآية الكريمة هنا تحدد موعد بقاء أمة المسيحيين سائدة على غيرها من بقية الأمم حتى موعد مجيء يوم القيامة. ولم تبدأ هذه الأمة بالتراجع عن انتصاراتها واتساع رقعتها إلا بعد ظهور دين الاسلام الذي احتل مكانتها في التفوق والسيادة عليها وعلى بقية الأمم من أصحاب الديانات السابقة. فيكون من معاني يوم القيامة أيضاً قيامة دين إلهي جديد.

أما مسألة غفران الذنوب، فهذه مسألة مرتبطة بالتطور العقلي والروحي والاجتماعي لأمم أصحاب الكتاب، فطالما كان البشر يعيشون مرحلة الطفولة البشرية، كان لا بد من مخاطبتهم باسلوب التهديد والوعيد والجزاء والثواب لترغيبهم بالايمان حيث إن العقل البشري لن يتمكن في تلك المراحل البدائية الطفولية من تجاوز عقبات مفاهيم الآيات الإلهية، وبقيت معانيها غامضة عليه حتى حلول موعد مجيء (المخلص، والمنقذ، ورجعة المسيح الثانية) التي توافق ظهورها مع القرن التاسع عشر ليشرحها المخلّص و يبينها للناس، وبذلك (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)،[3] من أمثال دوكنز وغيره. فالتهديد والوعيد بدخول النار (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)،[4] والحرق كما ورد في الإنجيل (البحيرة المتقدة بنار وكبريت)،[5]، إنما هو من قبيل التهديد للأطفال، ولا غرابة في استعمال هذا الاسلوب حيث يستعمله جميع الآباء والأمهات حين نهي أطفالهم وتحذيرهم عن ارتكاب الأفعال السيئة والخطايا الكبيرة. فالرسول محمد(ص) ينصح بمخاطبة البشر على قدر عقولهم:- (خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله)، كما أن الله تعالى غفار للذنوب ولا يعقل أن يعامل مخلوقه الأفضل بهذا الشكل التصويري القاسي،

---

1 - إنجيل يوحنا 25:11.
2 - سورة آل عمران 55.
3 - سورة النساء 165.
4 - سورة النساء 56.
5 - سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي8:21.

طالما لم يأت الانسان لهذه الدنيا برغبته ورضاه، كما وردت الإشارة الى ذلك في القران: (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ).[1] وكذلك قوله:- (وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ).[2] فمن المؤكد أن الله غفور رحيم ولن يعامل عباده وخلقه عموماً بمثل ما يصوره رجال الدين وكهنته بهذه القسوة والعنف حينما لم يفهموا جواهر معاني كلمات الله. كما أن هذا الاسلوب الترميزي يعتبر من الأدلة على وجود الله حينما يتكلم حسب المفاهيم الاسطورية القديمة في مخاطبة البشر في قديم الزمان إذ لا بد من التدرج التربوي. ثم نجد معانيها موصولة وموضحة في القرن التاسع عشر والعشرين. أفليس ذلك دليلا على وجود مربي حكيم عادل مستمر في ارسال الشرائع والأديان والرسل والأنبياء لتتوافق مع تطور عقل الانسان ووعيه ومستواه العلمي؟

يشير العالم دون كيرتشر الى ان البشر لهم درجات من المفاهيم العقلية في كل زمان تختلف عن غيره، فيتصورون إلههم أو آلهتم من صميم واقعهم بأجمل المواصفات، قال:- (رأينا من قبل كيف أنّ بدائيي أمريكا الشمالية قد تخيّلوا جنّتهم أو فردوسهم كانعكاس لمحيطهم المادي الذي يعيشون فيه، ورأينا كيف أنّ الفايكينغ الاسكندنافيين، الشعوب الأرقى، فعلوا نفس الشيء ضمن بيئة مختلفة. والآن سنلقي نظرة على المعتقدات الدينية لحضارة مبكّرة: الحضارة اليونانية، أو الإغريق في ذروة عظمتهم الإمبريالية، قبل صعود الإمبراطورية الرومانية، خلقوا لأنفسهم مجموعة رائعة وعظيمة من الآلهة والإلهات. وقد خلّفوا لنا تماثيل رائعة الجمال لآلهتهم، وقد صوّروها على صورتهم الخاصّة. كانت آلهة جميلة، قوية، ذات مظهر خلاّب ورياضي. كما أنّها كانت تحمل سمات وميّزات طبقة النخبة التي يمكن تمييزها بسهولة. يمكننا القول وببساطة شديدة أنّ الإغريق في تلك الحقبة كانوا يقدّسون ويؤلّهون أنفسهم.).[3]

يكمل الأستاذ كيرتشر كلامه:- (دعونا ندرس حالة المحمديين "المسلمين". فجنّتهم عبارة عن مدينة. "فردوسهم" أشبة كما يكون بمدينة مكّة سماوية. وكثيراً ما يقول رجال الدين المحمديين للمؤمن الفقير أنّه لا ينبغي أن يشغله الفقر إذ أنّ الله سيعوّضه من كل ما هو محروم منه في الجنّة أضعافاً أضعاف. فعندما يذهب إلى الجنة ستقابله هناك حور عين عذراوات. قد يكون لديه زوجة واحدة وجمل واحد في حياته على الأرض، لكنّه سيمتلك آلاف الزوجات وقطعان مؤلّفة من الجمال. سيؤمّن الله له في جنّته كافة الأشياء التي أحبّها ورغب بها على الأرض وسيعيش حياةً ملكية هناك، حياة لا تخلو من المتع والملذّات الشرقية).[4]

أما عن التصورات اليهودية للحياة بعد الموت، فقال:- (إنّ البيئة التي عاش فيها الشعب اليهودي هي مصدر فكرتهم عن الحياة بعد الموت التي ستكون شبيهة تماماً بحياتهم على الأرض. فجنّتهم عبارة عن مدينة كبيرة، أورشليم السماوية. كانوا يؤمنون

---

1 - سورة الرحمن 39.
2 - سورة القصص 78.
3 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 26.
4 - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 32.

بأنّهم سيصعدون إلى السماء حيث البوّابة اللؤلؤية عبر سلّم ذهبي، ويسيرون على شوارع وطرقات من الذهب الخالص. في البداية سيمثلون أمام مجلس سماوي للمحاكمة، تماماً كما كانت حالهم على الأرض. فهم لم يأتوا بأفكارهم عن السماء والجنّة من خارج بيئتهم المادية. لقد قاموا ببساطة بأخذ نموذج أورشليم كما هي على الأرض وإسقاطها على السماء. لقد تحوّل الله من راعي قديم إلى قاضي حاكم، أشبه ما يكون بالقاضي سليمان، لكنه من نوع سماوي).[1]

صفحة 102، يستشهد "دوكنز"، وما أكثر مثل هذه الاستشهادات في كتابه، برأي صديق له، قال:- (سألت واتسون عما إذا كان يعرف بأي عالم مُتدين في أيامنا فأجاب: عمليا لا أحد. أصادف بعضهم بالمناسبات، وأشعر بالحرج "يضحك" لأنني، كما تعلم، لا استطيع التصديق بأن أياً كان يتقبل بأننا نعرف الحقيقة من خلال الوحي).

مثل هذا القول وهذا التأييد يعيدنا مباشرة لما يتمتع به هذان الصديقان من فقر ثقافي في مجال علم الانثروبولوجيا والحضارات والأديان وعلم النفس، فلو عدنا بالتاريخ قدماً، لثبت أن عقل الانسان عاجز عن تخطي حدود واقعه الطبيعي والتفكير بما وراء الماديات واستنباط أفكار غيبية لا تشعر بها حواسه، ففكرة اختراعه النار والعجلة واستئناس الحصان وبناء الأقواس كلها تعتبر مسائل غيبية لا يوجد في الطبيعة ما يشجع العقل على ايجادها (دعك مما يدعيه علماء الطبيعة من حذلقة وحذاقة في الكلام الممزوج بالسخرية)، فللعقل البشري مراحل وعقبات وحلقات ووصلات علمية يستحيل عليه اجتيازها إلا بمعاونة إنسان أعلى منه علماً، لذلك نجد الجهلاء وبسطاء العلم والأطفال يسألون ليتعلموا، ولذلك ايضا وجدت المدارس والمعلمين والكتب والمؤلفات لتعليم البشر، فبدونها يعجز الانسان على تعليم نفسه، ودعك من قصة "ابن طفيل" الخيالية التي ترجمها الأوروبيين قبل عدة قرون واستندوا عليها في إمكانية قدرة الانسان على تعليم نفسه بنفسه، فهذا أمر محال التحقق، حيث يستحيل على عقل الإنسان الابتكار والاختراع والتخيل إلا من واقعه المادي، وهذا أمر لا يمكن ان يتم إلا بوجود معلومات أولية مسبقة يستند عليها في ابتكار فكرة جديدة (مثل ذلك مثل خلط مواد كيماوية بنسب معينة لإيجاد مادة جديدة)؛ فلولا وجود أفكار مسبقة لما ظهرت فكرة جديدة، وطالما ان العقل له محدودية على التفكير (ودليل ذلك تساؤل دوكنز ورفاقه عن حقيقة القيامة والغفران وحيرة عقولهم بمفاهيمها)، فقد زاد على ذلك في ماهية دور الوحي في الإيحاء بالعلوم للبشر. لذلك كان لا بد لهم من التعمق في قراءة دور رجال الدين والكهنة والآلهات/الأنبياء في تعليم البشر علوم الطب والصيدلة والهندسة والفلك والتنجيم والحساب والفلسفة وحتى علوم السحر والشعوذة كانت نتيجة ثانوية مرحلية لاستغلال ضعيفي النفوس منهم لعلوم الأنبياء في قديم الزمان. فمن يقرأ لتوينبي وديورانت وفراس السواح وحسين مؤنس وحبيب سعيد والكثير غيرهم من علماء الحضارات يجدهم ـ رغم عدم قدرتهم على الإثبات ـ إلا أنهم

---

[1] - كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 36.

يؤكدون على وجود الدور الروحي للأنبياء في رقي العقل البشري العلمي. يؤكد ذلك ما جئنا عليه من رأي العالم جون كيرتشر في التعليق على الصفحة 40 من كتاب دوكنز.

إن ما حصل في هذا القرن وما سبقه، هو أن دور قوة العلم في حياة البشر قد أنزل ستاراً كثيفاً حجب تماما ما كان لدور الأديان والأنبياء الحقيقي في تربية وتعليم البشر والذي كان أساس علوم اليوم العجيبة. إن الإنسان ذو النظرة المادية الظاهرية مثل رجل يركب سيارته ويمر كل يوم على بناء ضخم قيد الإنشاء، فلا يرى تبدلاً ولا تغييراً ملموساً في مظهره الخارجي، ويستغرب منه بل ويعيب عليه شكله وتصميمه وحالته الفوضوية، إضافة الى ما يراه من ورشة العمل القائمة داخل البناء وكثرة العمال وحركتهم الدؤوبة وصخب الآلات وضجيجها، ثم يقارن كل ذلك بما يراه حوله من جمال الطبيعة وروعتها وبقية المنشئات الجاهزة والأبنية المكتملة. أما لو أعطى نفسه فرصة كافية وتوقف قليلاً ليتقرب من البناء، لوجد العمل قائماً على قدم وساق في التجميل والتحسين داخل البناء ولأدرك ان مرحلة العمل في تحسين مظهر البناء الخارجي لم يحن بعد وأنه كان مخطئاً في قراره عن سوء تصميم وهندسة البناء. وهذا ما كان من دور عمل الأنبياء في تشييد العالم البشري، فطالما لم ينته العمل وينجز بعد، فلن يستطيع رؤية روعة الإنشاء والتشييد وهيكل مملكة الله القادمة.

في الحقيقة لقد أصابني الغثيان من كثرة ما أورده "دوكنز" من أمثلة فردية لأشخاص ينقل عنهم آرائهم ويستشهد بها، رغم وصولي في القراءة الى ربع كتابه، فحتى الان لم أجد فيه ما يثير الإنتباه ولا أدري كيف سيقلب أفكاري و إلحِد مع اللاحدين.!

ينقل رأي لصديق آخر له:- (لا اعتقد أننا موجودون لغاية ما. نحن حصيلة طبيعية للتطور).

لو نظر أي إنسان مهما كانت نسبة ثقافته الى موجودات الطبيعة لشاهد نظاماً هندسياً عجيباً في كل شيء، من بواطن ذرات الأحجار الى هيكلية النباتات المعقدة، مروراً بأنواع الحيوانات وجمال هندسة مراتبها ووظائفها في موازنة موجودات الطبيعة المادية الى الإنسان بتركيبة أعضاء أجهزة جسده وعقليته التي أحييت الأرض وعمرتها. أما مسألة الكواكب والنجوم ووجود نظام الجاذبية (المحبة) فيما بينها، واعتماد كل منها في بقاءه ودورانه في مجاله الكوني؛ كل ذلك وغيرها من عجائب الموجودات داخل الطبيعة المادية، يدل دلالة لكل من ملك عقلاً وروحاً أيمانية أن هناك مهندس كوني قد أوجد كل ذلك ورتب برنامج تطوره. وما زالت عملية التطور هذه جارية ومستمرة وباقية.

بمناسبة مسألة إثبات وجود خالق ومبدع لهذا الكون، اقتبس موضوعا متعلقاً في هذا المجال شرحه عبد البهاء عباس (1844-1921م)، مفسر التعاليم البهائية وكُتبها، رداً على سؤال بذات الخصوص، قال:- ومن جملة دلائل الألوهيّة وبراهينها أنّ الإنسان لم يخلق نفسه بل الخالق والمصوّر له غيره، ومن اليقين الّذي لا مرية فيه أنّ خالق الإنسان ليس مثل الإنسان لأنّ الكائن الضّعيف ليس في مقدوره أن يخلق كائناً آخر مثله، والخالق

الفاعل يجب أن يكون حائزاً لجميع الكمالات حتّى يمكنه أن يخلق ويصنع، فهل من الممكن أن يكون الصّنع في نهاية الكمال والصّانع ناقص؟ وهل يمكن أن يكون النّقش في نهاية الإتقان والنّقّاش غير ماهر في صنعه؟ مع أنّ النّقش من عمله وصنعه، والنّقش لن يكون مثل صانعه وإلاّ لنقش نفسه. ومهما كان النّقش في نهاية الكمال فإنّه إذا قورن بالنّقّاش يبدو في نهاية النّقص، وعليه فالإمكان معدن النّقائص والله تبارك وتعالى مصدر الكمال، وإنّ وجود النّقائص في عالم الإمكان لدليل على كمالات الله، فمثلاً إذا نظرت إلى الإنسان ترى أنّه عاجز، فعجز الخلق دليل على قدرة الحيّ القدير، فإن لم تكن القدرة لما أمكن تصوّر العجز، إذاً فعجز الخلق دليل على قدرة الحقّ ولو لم تكن القدرة لما تحقّق العجز ومن هذا العجز ندرك أنّ في العالم قدرة. مثلاً في عالم الإمكان فقر، فلا بدّ من وجود الغنى الّذي يتحقّق به الفقر، وفي العالم جهل فلا بدّ من وجود العلم الّذي يتحقّق به الجهل، لأنّه لو لم يكن العلم لما تحقّق الجهل، لأنّ الجهل عدم العلم، ولو لم يكن الوجود لما تحقّق العدم. ومن المسلّم به أنّ عالم الوجود خاضع لأحكام ونظم لا يتجاوزها أبداً، وحتّى الإنسان مجبر على الموت والنّوم وغيرهما، أي أنّه محكوم في بعض المراتب، ولا بدّ لهذا المحكوم من حاكم، وما دام الاحتياج صفة الممكنات ومن لوازمها الذّاتيّة، فلا بدّ من وجود غنيّ بذاته، مثلاً يعلم من وجود المريض أنّ هناك صحيحاً ولو لم يكن هناك الصّحيح لما ثبت وجود المريض، وعليه صار من المعلوم أنّه يوجد حيّ قدير حائز لجميع الكمالات لأنّه إن لم يكن متّصفاً بالكمالات بأسرها لكان كالخلق أيضاً، كما وأنّ أدنى صنعة من الصّنائع في عالم الوجود تدلّ على صانع لها، فهذا الخبز مثلاً يدلّ على أنّ له صانعاً، سبحان الله ألا يدلّ تغيير هيئة الكائنات الجزئيّة على صانع؟ وهذا الكون العظيم اللاّمتناهي أوجد من تلقاء نفسه وتحقّق من تفاعل المواد والعناصر! فما أوضح بطلان هذه الفكرة! هذه أدلّة نظريّة للنّفوس الضّعيفة، ولو فتحت عين البصيرة لشاهدت مائة ألف دليل من الدّلائل الباهرة، مثال هذا لو كان للإنسان إحساس روحيّ لاستغنى عن دليل لإثبات وجود الرّوح، أمّا النّفوس المحرومة من الفيض الرّوحيّ فتحتاج لإقامة الدّلائل الخارجة عن عالم الرّوح.).[1]

*****

يكمل دوكنز قائلا في **الصفحة 102**:- (الجهود التي يبذلها الدعاة في البحث عن عُلماء معاصرين مميزين وصادقين في أيمانهم ينبئ باليأس، يعكس الإحساس بالصدى الناتج عن قشط قاع البرميل).

أوافقه الرأي، فلقد نفدت آخر قطرة روح أيمان من آبار الأديان الإبراهيمية الثلاث السابقة منذ سنة 1863م حينما ظهرت رسالة إلهية جديدة. ولهذا لا بد من البحث عن "بئـر" حديث آخر ممتليء بمياه المعارف والأيمان الإلهي الجديدة، ولن تجد ذلك إلا في الديانة

[1] - من مفاوضات عبد البهاء. صفحة 12.

البهائية، فليس غير الله من يأتينا بماء أيمان جديد (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ).[1]

يقول:- (موقع الأنترنت الوحيد الذي نشر لائحة عن العلُماء المسيحيين الحاصلين على جائزة نوبل فيه ست أسماء وذلك من أصل المئات).

اتفقنا على جدب قاع آبار الأديان القديمة طرًا، فلا موجب للعجب من خلو بئر المسيحية من الموقنين بصلابتها حيث لم يتبق إلا القليل في قاعها.

**صفحة 103**:- (نسبة التدين بين العلماء أقل منها بالنسبة للعامة، والعلماء الأكثر تميزًا هم الأقل تدينًا على الاطلاق).

لا غرابة في ذلك، فالعلماء الطبيعيون ينظرون الى تفاسير رجال الدين وغيرها من المفاهيم والنصوص الدينية بنظرة علمية، فيجدونها مخالفة للعقل السليم والعلم التجريبي، بينما العامة يأخذون أيمانهم عن تقليد ومحاكاة و يأس تام في القدرة على فهم أمور أديانهم، ناهيك عن توكيل كهنتهم لفهم دينهم بدلاً عنهم. و يا لغرابة هذا الموقف الشاذ، فهم يرفضون بكل شدة تدخل أي شخص مهما كانت صلة قرابته قوية بهم في أصغر شؤون أمورهم الشخصية، بينما يسمحون ويوكلون ويرضخون تمام الرضوخ لتوكيل رجال دينهم – وهم يجهلون حقيقتهم - في إدارة شؤونهم الروحية وتقرير مصير نعيمهم وعذابهم الأخروي.

يتكلم دوكنز في الصفحة 104 وما بعدها عن أمثلة إجراء استقراء وإحصائيات أجريت في الدول الغربية حيث تبين قلّة أعداد المؤمنين. والتعليق على ذلك، أنه عندما تقوم أي جمعية علمية بعمل استفتاء بين نخب مختارة في مجتمع متقدم علمياً وتطرح أسئلة دينية عن وجود الله او عدمه، فمن المؤكد أن النتائج ستكون في صالح الخيار الثاني. ولو طرحنا ذات أسئلة الاستفتاء في مجتمع متدين، فمن المؤكد أن نسبة المعتقدين بوجود الله ستكون كبيرة جداً. وهذا ما يهز جدية وصدق النتائج المرجوة والمطلوبة. فللحرية الشخصية دورها في المجتمعات المتحررة وللتقليد الأعمى تأثيره في مجتمعات العالم الثالث. لذلك ليس هناك ما يدعو لتقديم مثل هذه الإحصائيات، فلا نفع منها إلا زيادة حشو الكلام.

صفحة 105:- (يطرح سؤالاً فيه نوعًا من الحشو لكتابه، وقد أجاب عنه سابقًا بأشكال مختلفة. وهو:- (هل هناك أي دلائل بأن الملحدين ينتمون الى الفئة الأفضل ثقافة والأرقى تعليماً في المجتمعات بشكل عام؟).

والإجابة من الناحية العلمية والدينية:- نعـم. فكما ذكرنا لأن روافد ماء العلم الإلهي بالنسبة للأديان السابقة قد نفدت و يبست وانتهى الأمر. وبما ان تطور العقل البشري مستمر بتحرره من علوم تفاسير الدين البالية، فلا غرو أن يتخالف مسير خطي الدين

[1] - سورة الملك 30.

القديم والعلم الحديث ويزداد افترافًا، فيكون أصحاب العلم أكثر تعلقًا بالعلوم التجريبية ويزداد بعادهم عن مسيرة الدين مع كل اكتشاف علمي جديد.

قال:- (كما ان التدين يتناسب عكسيًا مع الاهتمام بالعلم و (بشكل قوي) التحرر السياسي).

قديمًا كانت أمور الحياة تسير بتحكم شرائع الأديان، وكانت هذه لا تتعارض مع درجة تطور تلك الأمم القديمة والبدائية الأقدم منها. ولكن بتوقف الأديان الإبراهيمية العالمية الثلاث عن التطور وانقطاع مدد مياه الروحانيات والرحمة عنها ـ دليل ذلك ما ساد تاريخها من تخبط سياسي وتلطخ بألوان الدماء ـ وبما أن السياسة هي في أصلها تمشية أمور المجتمع، والمجتمع يتقدم ماديًا وعلميًا، وبما أن السياسيين يبحثون عن صالحهم أو صالح أممهم، فلا غرابة أن يستعينوا بالعلم لإدارة شؤون مجتمعاتهم، وإلا فبغير ذلك، لن يصلوا الى سدة الحكم.

يقول:- (اختصاصيي علم الاجتماع في انجلترا وجدوا بأن واحدًا من أصل اثني عشر فقط ينفصل دينيًا عن معتقدات والديه).

لا غرابة في ذلك، وهذا أمر طبيعي ومن المؤكد أن هذه النسبة ستزداد كلما زاد الوعي العلمي والثقافي المادي بين الشعوب، ولا ضرورة لعجبه، فحالات التدين ستقل نسبتها وتصل الى درجة ضيئلة جدًا، مقابل نسبة الذكاء التي تزداد في كل يوم.

**صفحة 106**:- يورد الكاتب مثالاً جميلاً لعالم الرياضيات الفرنسي "بليز باسكال" في الدعوة للايمان بوجود الله، أطلق عليه "رهان باسكال". ورغم عدم موافقته على فكرته، إلا أنها تبقى محاولة في طور حقبة تردي المفاهيم الدينية ووفاة روح الأديان القديمة وازدياد قوة العلم. قال:- (مهما قلت الدلائل على وجود الله، فإن العقوبة التي تنتظر الاختيار الخاطئ هي أكبر. أحكم الطرق هي الايمان بالله، لأنك لو كنت مصيبًا ستربح النعمة الكبرى، ولو كنت مخطئًا، فلن يكون هناك فرق. بينما إن لم تؤمن بالله وكنت مخطئًا فأنت محكوم للعنة أبدية، ولو كنت مصيبًا فلم يكون هناك أي فرق. وعلى ذلك فالقرار لا يحتاج لذكاء. عليك الأيمان بالله).

الفكرة لا بأس بها في تشكيلتها الذهنية وتتوافق مع القصور في فهم أمور الأديان القديمة ومستوى طفولة عقلية الجنس البشري التي يشارف اليوم على عبور مرحلتها، إلا أنها من جانب آخر فكرة تدعو الى التقليد الأعمى المخالف لسبيل منهج العلم التجريبي، بل وما يدعو اليه جوهر الأديان من تقدم وانفتاح عقلي. لذا فالاعتقاد بهذه الفكرة والعمل بموجبها لا يمكن اعتباره أيمانًا.

**صفحة 107**:- (ما السبب الحقيقي وراء أننا نقبل فكرة بأن الشيء الوحيد الذي يجب أن نفعله لإرضاء الله هو الأيمان به؟).

لأن الإنسان في جوهر حقيقته هو مخلوق روحاني في جسد مادي، ولكي يترقى روحيًا في هذا العالم المادي عليه السعي للحصول على مكانته الروحانية المناسبة في العالم الروحاني القادم، عليه بالإيمان بالله ورسالاته كلما تجددت فهي كانت وستبقى سبيل التطور العلمي.

(لماذا هذه الخصوصية في الأيمان؟).

لأن الله الخالق واحد ولا يوجد غيره إله إن شئت أم أبيت، فإن لم ترضى بقضائي فجد لك ربًا سوائي.

(ألا يجب أن يكافئ الله الطيبة أو الكرم أو التواضع أو الصدق؟).

هذا ما يأمر الله بالضبط، الإتصاف بالمثل الجيدة والصفات الحسنة ليحصل على مكانته الروحية المناسبة في العالم الآخر، فهذا سبيل الترقي الروحاني في هذا العالم والعوالم التالية.

(ماذا لو كان الله عالمًا يعتبر الصدق في التحري عن الحقيقة حسنة عليا).

هذا بالضبط ما جاءت به الديانة البهائية في أولى مبادئها: (تحري الحقيقة)، وما عليك إلا الإطلاع على مبادئها.

(ألا يجدر بأن يكون من صمم هذا الكون عالمًا؟).

هو بالفعل عالم الغيب والشهادة ويعلم ما في الصدور.

(عندما سئل بيرتراند راسل عن موقفه بعد الموت والوقوف بين يدي الله الذي سيسأل راسل عن سبب عدم أيمانه به. كانت إجابة راسل "عدم كفاية الأدلة".).

بالفعل. لعدم كفاية الأدلة بعد الانفصال الواضح بين المفاهيم الدينية القديمة وثوابت العلم الحديث. فالرجل يتمتع بدرجة ذكاء مكنه من معرفة عدم كفاية ما بين يديه من أدلة الكتب السماوية بعدما بقيت على حالتها البسيطة عاجزة عن مسايرة تطور العلوم. لذلك ظهرت ديانة جديدة لتسبق هذا التفتح العقلي البشري.

(ألن يحترم الله راسل على شكه الشجاع هذا؟).

من المؤكد أن ينال هذا الموقف العقلاني الشجاع شيئًا من الاحترام. فلو عرض ذات الموقف على قاضي عاقل حكيم منصف، فلا يتردد في الحكم لصالح راسل. فما بالنا بأعدل العادلين وأحكم الحاكمين، فكيف سيحكم؟

(وبما أننا لا نعرف موقف الله؟).

خطأ فادح. فنحن نعرف موقف الله حيث لن يكون بين يديه مظلوم و (سبقت رحمتي كل شيء).

(هل تراهن على ان الله يفضل أيمانا مزوراً وغير أمين على شك صادق؟).

بالطبع لأ. لأن الله العقل الكلي والحكيم الأحكم والتربية الإلهية كانت وما زالت تتفق مع تطور العقل البشري، بينما. ودوكنز ينظر الى تصرفات البشر و يقيس أحكام الله وقدراته.

(لنفترض أن الإله الذي تقابله بعد الموت كان بعل، ولنفترض أن بعل غيور تماما كما قيل عن يهوه. أليس من الأفضل لباسكال أن يراهن على عدم وجود إله من المراهنة على الإله الخطأ؟).

بسبب اختلاف اللغات القديمة بين الشعوب، كان لله أسماء متعددة، لكن جميع هذه الأسماء والصفات منذ ما قبل زمن تعدد الآلهات وحتى زمن الأديان التوحيدية، وجميعها تشير الى الله الواحد الذي أرسل رسله وأنبياءه بلغات مختلفة الى شعوب تتكلم بلغات مختلفة. فجميع الأنبياء دعوا الناس للإيمان بذات الإله وذات الرب. أما الصفات المتعددة التي جاءوا وأكدوا على البعض منها دون غيرها، فمرد ذلك الى توافقها مع طباع البشر ومستوياتهم الذهنية والاجتماعية والنفسية لكل منها، فلقد سبق وجئنا على مثال جنان وجحيم وآلهات الأمم القديمة التي ناسبت مستويات ثقافاتها الاجتماعية.

(لنفترض بأننا آمنا بأن هناك احتمالاً صغيراً لوجود الله. وعلى الرغم من ذلك، يمكننا القول بأنك يمكن أن تحيا حياة أفضل لو راهنت على عدم وجوده، فيما لو راهنت على وجوده والذي يعني ضياع وقتاً ثميناً في عبادته وتقدم الأضاحي له والقتال في سبيله والموت لأجله...الخ.؟).

مهما تطور الانسان من الناحية المادية، فلن يصل الى مستوى سعادة الطيور، فهذه المخلوقات لا تتذمر ولا تشكو من صعوبة الحياة ومشاكلها وقلة فرص العمل وصعوبة العثور على مسكن مناسب ولا تحزن لسوء تربية اولادها ولا تخطط لدفع فواتيرها الشهرية ولا تشعر بمضايقات من حولها ولا تجبر على قتل بعضها بعضاً في حروب منظمة و.. و.. الخ. أما ضياع الوقت في عبادة الله، فهذا يشعر به فقط من يفتقر للمشاعر الروحانية، مثله مثل الأعمى الذي يقول ما حاجتي للبصر فأنا أعيش سعيداً. ومثل الجاهل الذي ينتقد من يسعى للعلم، ويقول ما حاجتي للعلم فأنا أعيش حياة طبيعية سعيدة. أما تقديم الأضاحي، فهذه عادة قديمة من عمق التاريخ البشري ليس من السهل التخلي عنها وتركها، كما هو حال العبودية عندما كانت مرحلة اجتماعية للبشر سابقا، لكن الانسان لا بد أن تتحسن أفكاره مع تقدم العلم ويستنكر هذه العادات القديمة. إن فكرة الأضاحي ستنتهي مستقبلاً بلا شك، كما أنهت الشريعة البهائية هذا التقليد. أما القتال في سبيل الله، فكان هذا منهج قديم أيضاً اتفق مع شراسة البشر في تلك العصور ولو علمنا أن مبادئ الأديان تحوي التقدم العلمي إضافة الى التقدم الروحي، لوجدنا أن قتال الأمم القديمة

كان دفاعاً ضد التخلف والظلامية للقضاء على فكر محبي الظلمات الرجعي. ورغم أن آثار العنف والقو ما زالت قائمة، إلا أن تعالم الشريعة البهائية جاءت لتحرم كل ذلك، حيث أمر بهاء الله أتباعه:- [خير لكم أن تُـقـتَلوا من أن تـَقتِلوا]. أما الموت من أجل الله. فالديانة البهائية تقول إن خدمة البشر وتفضيل الغير على النفس ومساعدة الآخرين والعمل من أجلهم وبناء مجتمعات متقدمة إجتماعياً وعلمياً هو هدف هذه الديانة الإلهية في الوقت الحالي ومستقبلاً.

صفحة 108:- (أطالب القارئ الكريم وضع هذا في ذهنه عندما نناقش العواقب الأليمة التي تترتب على الأيمان ومراعاة التعاليم الدينية).

إن أهداف التعاليم الإلهية تتطور لتناسب حالة كل مجتمع محدد على حدة في وقته وزمانه باعتبار ان الأديان السابقة جاءت سابقاً لأمم محددة بعينها ولم تكن عالمية المناهج، فمهما كانت سعة انتشار الأديان كبيرة، كان لا بد أن تقف في سبيلها طول المسافات والعوائق الجغرافية، فتتوقف عند حد محدد، بينما جاءت الديانة البهائية الان لتعلن في أول ظهورها إنها ديانة عالمية لكل البشر بعد ان أصبحت الأرض قرية صغيرة واحدة بوجود التقنية والاتصالات الالكترونية والمواصلات السريعة وتقارب لغات الشعوب والترجمة. أما الأهداف التي تدعو لها غير ما ولد دوكنز وترعرع متعوداً على سماعه، فمثلاً:-

(فضل الانسان في الخدمة والكمال لا في الزينة والثروة والمال)، الدعوة الى السلام العالمي: (إنّا أمرنا الكل بالصلح الأكبر الذي هو السبب الأعظم لحفظ البشر.)، دعوة الملوك والرؤساء الى العدل: (اعْدِلُوا يَا أَيُّها المُلُوكُ بَيْنَ النَّاسِ وَكُونُوا مَظاهِرَ العَدلِ في الأَرْضِ وَهذا يَنْبَغي لَكُمْ وَيَليقُ لِشَأنِكُم لَوْ أَنْتُم مِنَ المُنْصِفينَ)، الأمر بتحريم التلصص والجاسوسية على أتباعها: (يمكن تحمل كل مذلة الا خيانة الوطن وكل ذنب يكون قابلا للعفو والمغفرة الا هتك ناموس الدولة والإضرار بملة)، تؤكد على الأخلاق الحسنة والأدب كما كانت دعوات الأديان السابقة من قبل:- (إِنّ◌َا اخ◌ْتَرنَا الأَدَبَ و◌َجَعَلناه سَجِيَّةَ المُقَرَّبينَ، إِنَّهُ ثَوبٌ يُوافِقُ النُّفُوسَ مِن◌ْ كُلِّ صَغ◌ِيرٍ وَكَب◌ِيرٍ، طُوب◌َى لِمَن جَعَلَهُ طِرازَ هَي◌ْكَلَهِ وَي◌ْلٌ لِمَن◌ْ جُعِلَ مَح◌ْرُوماً مِنْ هذا الفَض◌ْلِ العَظ◌ِيمِ)، التأكيد على أن الدين أساس المحبة: (يا أهل العالم إن دين الله وجد من أجل المحبة والاتحاد فلا تجعلوه سبب العداوة والاختلاف)، التعامل بالمحبة بين البشر (أيها الأحبّاء الأودّاء، يجب أن تعاملوا جميع الملل والطّوائف والأديان بكمال المحبّة والخلوص والصّداقة والوفاء والمودّة ملتمسين الخير لهم)، اختيار لغة عالمية وخط جديد بجانب اللغات الأم لتكون بذرة اتحاد شعوب الأرض: (فليتشاور حضرات الملوك أيدهم الله أو وزراء العالم ويختاروا لغة من اللغات المتداولة أو يقرروا لغة جديدة ويعلموا بها الأطفال في مدارس العالم وكذلك الخط. فحينئذ تشاهد الأرض قطعة واحدة)، ترتيب أوضاع الناس المادية والمعاشية: (ان تنظيم الأحوال العامة يجب أن يتم بطريقة توجب محو الفقر فيكون لكل فرد على قدر المستطاع نصيبه في الحياة والتمتع على قدر رتبته فلا نعود نرى أشخاصا مثقلين مزودين

بالأموال بينما الآخرين يموتون من العدم والجوع)، ضرورة الرحمة بالفقراء ومساعدتهم وترتيب شؤونهم: (يا مَعْشَرَ المُلُوكِ إِنَّا نَرَاكُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ تَزْدادُونَ مَصَارِفَكُمْ وَتُحَمِّلُونَها عَلَى الرَّعِيَّةِ إِنْ هذا إِلاَّ ظُلْمٌ عَظِيمٌ، اتَّقُوا زَفَرَاتِ المَظْلُومِ وَعَبَرَاتِهِ وَلا تُحَمِّلُوا عَلَى الرَّعِيَّةِ فَوْقَ طاقَتِهِمْ وَلا تُخْرِبُوهُمْ لِتَعْمِير قُصُورِكُمْ)، ضرورة مساواة حقوق المرأة بالرجل: (قد أُعلنت المساواة بين الرّجال والنّساء من كافّة الوجوه، إلاّ في مواقع جزئيّة)، محبة الانسان لأبناء جنسه عموماً وليس لأبناء وطنه فقط: (لا يفتخر الإنسان أنّه يحبّ وطنه، بل يفتخر بأنّه يحبّ جنسه..)، التوصية بتعليم الأطفال والتشديد على ذلك: (نوصي الكل بتعليم الأطفال وتربيتهم. كُتب على كل أب تربية ابنه وبنته بالعلم والخط ودونهما)، التأكيد على قيمة الانسان وأهميته: (الانسان بمثابة معدن يحوي أحجاراً كريمة تخرج بالتربية جواهره الى عرصة الشهود وينتفع بها العالم الانساني)، وأهمية كسب العلوم والفنون الجميلة: (تحصيل العلوم والفنون من كل الأنواع جائز ولكن المقصود منها العلوم النافعة التي هي العلة والسبب في رقي العباد.)، التوصية بالصدق واحترام كل ذي صنعة وحرفة وفن جميل: (وأن يتكلموا بالحق والصدق ولا ينكروا فضل أحد. ويحترموا أرباب الفنون)، تبجيل شأن العلوم ومقام المعارف: (إن العلم من النعم الكبرى الإلهية ويجب على الكل تحصيله)، توصية الالتزام بالمبادئ والأخلاق السامية: (الانسان يرتفع بأمانته وعفته وعقله وأخلاقه ويهبط بخيانته وكذبه وجهله ونفاقه. لعمري لا يسمو الانسان بالزينة والثروة بل بالآداب والمعرفة)، تنصح العلماء بشد الهمة في تعليم جميع البشر: (على علماء العصر أن يأمروا الناس بتحصيل العلوم النافعة كي ينتفعوا منها بأنفسهم وينتفع منه أهل العالم)، وتعطي للغناء والموسيقى والألحان للفنون الجميلة دورها في رقي الذوق العام: (انّـا حلّلنا لكم اصغآء الاصوات والنّغمات ايّـاكم ان يخرجكم الاصغآء عن شأن الادب والوقار)، وتأمر بتحري الحقيقة قبل اتخاذ القرارات: (أنْ تُشَاهِدَ الأشياءَ بعينك لا بعين العباد وتَعْرِفَها بمعرفتك لا بمعرفة أحدٍ فى البلاد)، وتدعو البهائية الى ايجاد محكمة عدل دولية لها سلطة وقدرة على حفظ السلام بين الأمم، والى إلغاء شريحة رجال الدين ومهنة الإفتاء وإبطال درجات الشيوخ والملالي والقساوسة والرهبان والأحبار. تنصح بخروج رجال الدين الى العمل وتعلّم الحِرف والصنائع ومشاركة غيرهم من العباد في بناء الأوطان ونفع البشر: (قُلْ يا مَلأَ الرُّهْبانِ لا تَعْتَكِفُوا فِي الكَنائِسِ وَالمَعابِدِ أَنِ اخْرُجُوا بِإِذْنِي ثُمَّ اشْتَغِلُوا بِما تَنْتَفِعُ بِهِ أَنْفُسُكُمْ وَأَنْفُسُ العِبادِ)، وتنصح بانتخاب حكومة عالمية من بين جميع علماء وحكماء وفلاسفة شعوب العالم لفض الخلافات والنزاعات بين حكومات الدول وشعوبها، إضافة لوجود الحكومات الوطنية:- (لا بد أن تشكل في الأرض هيئة عظمى يتفاوض الملوك والسلاطين في تلك الهيئة بشأن الصلح الأكبر. وذلك بأن تتشبث الدول العظمى بصلح محكم لراحة العالم)، ضرورة انتخاب مجلس شورى، وبرلمان، ومجلس شيوخ عالمي من بين جميع حكماء شعوب الارض لتسيير أمور البشر بأفضل السبل الحكيمة؛ والبهائية تدعو لتقليص أعداد الجيوش وتخفيض كميات السلاح والعتاد والمنشئآت العسكرية والأسلحة النووية وترساناتها. فلو صرف ما ينفق في ذلك نحو تحسين مستوى معيشة البشر وراحتهم، لتغيّر وجه الأرض نحو الرخاء العام. تهذب الديانة البهائية النفس الانسانية وتحرّم (مثل غيرها

من بقية الديانات السابقة) الصفات الرذيلة مثل جرائم القتل والاعتداء والزّنا والخمور والغيبة والافترآء والنميمة والكذب والسرقة والتدليس وغيرها. تأمر باستبدال سلاح السيف والسنان بسلاح الحكمة والبيان (قُلْ سَيْفُ الحِكْمَةِ أَحَرُّ مِنَ الصَّيْفِ وَأَحَدُّ مِنْ سَيْفِ الحَدِيدِ)، تحرم مهنة التجدّي والتسوّل. ترفع الديانة البهائية مقام العمل وممارسة مهنة أو حرفة يدوية أو فكرية الى مرتبة العبادة: (وجعلنا اشتغالكم بها نفس العبادة لله الحقّ). تنادي بكل صراحة بتحريم الرقّ وعبودية البشر بمختلف أشكالها. (قد حرّم عليكم بيع الامآء والغلمان ليس لعبد ان يشتري عبداً نهيًا في لوح الله)، ترفع من شأن مهنة التعليم وإعلاء شأن المعلم والمربي. تحرّم البهائية مبدأ حكم الجهاد، أي نشر الدين بالعنف وبقوة السلاح. وتحظر وتمنع مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا سلطة لإنسان على آخر وتمنع التدخل في شؤون الآخرين، فهو أمر خاص بالسلطة التنفيذية والقضاء ومحاكم الدولة وما تسنه من دساتير وأحكام قانونية، ولا أمر ولا سبب يدفع انسان للتسلط على آخر (إنا قد أرفعنا حكم السيف والسنان وقدرنا النصر بالبيان وما يخرج من اللسان وأنه لهو المستعان). وكذلك:- (إياكم ان، لا تجادلوا في أمر الله مع احد لأنا رفعنا حكم السيف وقدرنا النصر بالحكمة والبيان فضلا من لدنا على الخلائق أجمعين). كل هذه المبادئ وغيرها الكثير مما يتناسب مع حاجة شعوب الارض في هذا اليوم ويتناسب مع تطور أحوال البشر وعقليتهم وثقافتهم. هي ما جاءت بها الديانة البهائية، وبانتشارها ستكون هذه المبادئ أس أساس السلام العالمي.

أفليست هذه المبادئ الانسانية أفضل مما يدعو له أتباع الإلحاد من فوضى وهدم للنظام العام وإطلاق الحريات لمن هبَّ ودبْ؟ فأي عواقب وخيمة وأليمة يتوقع أن تنجم من هذه المبادئ السامية؟ هذه مبادئ إلهية دينية صرفة، فليناقشها كما طلب بحريته ولنر ما أنواع أضرارها.

من الصفحة 108 وحتى 112، يشغل دوكنز عقل القارئ بالكلام عن نظرية بعنوان (حجة باستخدام مبرهنة بايز)، حيث يصفها:- (اعتقد بأن أكثر الأدلة غرابة في محاولات البرهان على وجود الله هو هذا الذي وضعه ستيفان أونوين في كتابه "احتمالات الله". صراحة ترددت قبل أن أضعه مع بقية الحجج كونه أضعف الحجج وأقلها لمعانًا مما سبق ذكره).

ولا أدري لماذا ذكرها إذن، طالما أن لا قيمة فكرية للحجة.

## الفصل الرابع

# (لماذا الاحتمال الأكبر هو عدم وجود الله)[1]

يبتدئ فصله بسؤال، فيضع مقدمة عن رأي لتوماس جفرسون سبق وأن أشرت اليه، حينما قال:- (رجال الدين من مختلف الطوائف.. يعانون من تقدم العلم كما يعاني السحرة من موعد شروق الشمس، ويعبسون في وجه تلك الاطلالة التي تعلنهم بأن تلك الأوهام التي يعتاشون عليها في طريقها للزوال).

بالفعل، فالعقل البشري في تطور مستمر وسيدخل سريعاً ـ أو لنقل قد دخل بالفعل ـ مرحلة الاستغناء عن رجال الدين والسحرة والمشعوذين بسبب انتشار التعليم.

من صفحة 114 الى صفحة 117، لا يوجد ما يستحق الذكر أومر يستحق الرد عليه، فهو مجرد حديث مسامرة على مصطبة صخرية تطل على ساحل بحيرة هادئة.

وفي عنوان جانبي (الانتخاب الطبيعي والوعي) يقول:- (ينقل الكاتب عن أحد قرآء كتبه أنه "بلا فخر" تسبب في إلحاده، قال القارئ:- "أفضل الرهبة الناتجة عن العلم، على الرهبة الناتجة عن الجهل في أي وقت").[2]

أوافقه وأوافق القارئ الرأي، فهذا أمر طبيعي اذا استعمل الانسان العلم في تمحيص الأمور العقلية، وطالما لا هو ولا القارئ يملكان مفاهيم دينية عصرية، وما زالا يخوضان في بحور تفاسير الأديان القديمة البالية، فمن الطبيعي أن يصلا لهذه النتيجة التي توافق تقدم العقل في طوره الحالي. لكن السؤال: ماذا لو ظهرت مفاهيم دينية جديدة توافق العلم والمنطق والعقل السليم كما ظهرت في الديانة البهائية. فهل سيسارعان الى تأييدها والأيمان بها، أم سيبقيان على ذات التعنت والجهل؟

*****

منذ سنوات وحتى اليوم، وصاحب هذه السطور بصدد تأليف كتاب آخر ـ لم أنته منه بعد ـ في ذات مجال علاقة الدين بالعلم، والكتاب أوسع تناولاً للأمور العلمية والدينية حيث شمل علوم التاريخ والحضارات والأديان والرجال المميزون (الآلهات/الأنبياء) وعلم النفس والفلك والتنجيم، وكان من الضروري الاطلاع ودراسة مختلف أنواع الكتب والمصادر المترجمة ذات العلاقة، فهي ذخيرة ومتاع تعد من مستلزمات تأليف الكتاب، وبالفعل تكدست كمية كبيرة ومن بينها بالطبع كتاب أصل الأنواع لداروين. وكلما كنت اقرأه باحثًا عن عبارة أو فقرة تقول بمعنى واضح حسب ما ينشر عنه، أن داروين إدعى بـ "تغيير" الأنواع،

---

[1] - الصفحة 113

[2] - الصفحة 118.

أي تحول مخلوق معين نتيجة التطور الى مخلوق آخر ـ حتى ولو كان من نفس الفصيلة ـ لم أجد لذلك أثراً؛ ولكن كل ما وجدته أنه قال بعملية "التطور"، أي تحسن ذات الفصيل أو النوع، بمعنى تطور حالة الحيوان أو المخلوق الى حالة أرقى. وقد أكون قد سهوت ولم أنتبه أو فاتني مقصده أو أن المترجم أساء التعبير أو تعمد إخفاء هذه النقطة. ولكن جميع هذه الاحتمالات قليلة الاحتمال، لماذا؟ فمثل هذه النقطة الجوهرية التي أقامت الدنيا ولم تقعدها لا يمكن للمترجم أن يغفل عنها أو يتركها أو يتقصد تغطيتها بكلمات مبهمة، لأن الكتاب سيفقد بذلك جوهر أساسيته، لذا لا بد وأن ذكرت ليس لمرة واحدة أو مرتين، بل حتمية تكرارها لعدة مرات، فهي متن الكتاب، ناهيك عن شروحاتها وذيولها.

والآن.. أجد أن دوكنز يكرر ذكر تطور الأنواع وتحولها ولا يفصح في أي فصل قرأها من كتاب "أصل الأنواع" ليعيننا في الرجوع اليها مشكوراً. لكنه بقي يكرر استناده على فكرتها مراراً.

وها هو يتناول عبارة جديدة في اسناد فكرته الإلحادية، فإضافة الى ما يكرره من أسماء فردية لأصدقاء وزملاء ومعارف وكتاب مغمورين وغيرهم، فهو يكرر عبارة (الانتخاب الطبيعي). ويضعها بديلا عن نظرية الصدفة التي يقول عنها فرضية فاشلة.

في فرضية الانتخاب الطبيعي يحاول دوكنز القول أن نظرية التطور الى الأحسن في موجودات الطبيعة كانت (الانتخاب الطبيعي عملية تراكمية)، ويعني بذلك أن المخلوق كانت حالته وكيانه باقية في حالة تراجع وسوء حتى تأتي فرصة جديدة مناسبة تساعدة على إضافة صفة جديدة لتزيد من حالة تطوره، ثم يبقى الكائن على ذات الحال مرة أخرى الى أزمان غير محددة الى أن يحصل انتخاب طبيعي لمرحلة تالية فيراكم هذه العمليات الطبيعية الانتخابية، حتى انتهت النتيجة الى الطبيعة بحالتها الحالية وما هي عليه الآن.

وبمعنى تبسيطي، وكأن دوكنز يقول أن رجلاً لا خبرة له في سباق الخيول اختار عشرات الخيول ـ بل أكثر ـ وراهن على فوز كل واحد منها بعد الآخر بالتسلسل وبالتالي حين فاز آخرها، أصبح من أثرى الأثرياء بينما أفلس القائم على ملعب سباق الخيل.

في الحقيقة أتوقف عند كل جملة اتفحصها بمنتهى الدقة، فهذا الكتاب يستند على فرضياته، وليس من الممكن إغفال ما يقوله، إلا إذا كان هناك احتمالان آخران، أولهما أن دوكنز لا يملك حجة واضحة فيحاول إدخال القارئ في لعبة متاهة لا أول لها ولا آخر، أو أن فكرته من الصعوبة بحيث لم يفهمها المترجم فراح بدوره يزيد من تعقيدها بتغليفها بكلمات ومصطلحات تربك القارئ لتصيبه بالاحباط وبالتالي يظن في نفسه أن ذكاءه ليس بالمستوى المطلوب حتى يتمكن من فهم مثل هذه الفرضية الخارقة، فيسقط بيده ويتبناها باعتبارها فكرة عظيمة، كما هو حال المستمع لشرح فكرة الثالوث المقدس في المسيحية حينما يشعر السامع أن المتكلم قد استظهر عباراته استظهاراً.

إن "دوكنز" يظهر هنا كالفارس الوحيد (Lone Ranger) الذي يخرج من اللامكان بسرعة البرق على حصانه الأبيض لينقذ ليس أميرة واحدة بل أميرتين (أميرة الخلق الدينية وأميرة الصدفة العلمانية)، ويضع بدلاً عنهما (أميرة الانتخاب الطبيعي التراكمية).

وهنا أنقل حرفيًا ـ وبدون أخطاء إملائية ـ ما حاول به "تفسير وتوضيح فرضيته" ـ بل أقول تعقيدها ـ مطالبًا القارئ الكريم بفهم النص التالي ثم محاولة شرحه لزميل جالس بقربه، قال:- (الجواب هو بأن الانتخاب الطبيعي عملية تراكمية، مما يجزء مسألة اللاإحتمالية لأجزاء صغيرة. و كل منها صغير بحيث أن لاإحتماليته منطقية بشكل ما، و لكن ليست من المستحيلات الحدوث. و عند تراكم العديد من التركمات، فإن الناتج النهائي سيكون لااحتماليًا بشكل كبير جداً جداً بالطبع، لااحتمالي بشكل لا يقبل مجالا للشك أن يكون قد حدث عن طريق الصُدفة. والناتج النهائي الذي يُشكل الكائن الذي يحاجج به الخلوقيين بشكل مُرهق بأشكاله المختلفة. الخلوقي يخطئ الهدف. لأنه (لايجب هنا أن تنزعج السيدات من استبعادهن هنا في الضمير المذكر المُستعمل) يصر على أنهُ يُعامل أحتمالية التكوين المعقد كخطوة واحدة، حدث واحد. انه لايفهم قدرة التراكم).[1]

مرت حدود عشرين صفحة على هذا المنوال من الشطحات والكلام الملفوف المغلف وأشكال من لعب المتاهات و "اليويو"، استمر المؤلف يقدمها حتى وصل لصفحة 142، حيث قال:- (نستطيع التوقع بإطمئنان بأنه، لو أننا انتظرنا عشرة ملايين سنة أخرى، فإن مجموعة جديدة تماما من الاحياء ستكون متأقلمة تماما لظروفها في الحياة كما هو الحال مع أحياء العصر.). ثم يقول:- (المبدأ الانثروبي عاجز عن تفسير تنوع تفاصيل الكائنات الحية.).

إن القول بانتظار البشر عشرة ملايين سنة لمشاهدة صحة كلامه، ما هو إلا نوع من أنواع التخريف المخالف للعلم والعقل، وماذا لو لم يحصل؟ فهل سيخرج علينا "دوكنز" آخر ليقول: لننتظر عشرة ملايين سنة أخرى!!

أما الفكرة المقابلة ـ كما سبق ذكرها وكذلك ذكرها المؤلف في ذات الصفحة ـ هو أن تكوين تربة الأرض كان مهيئًا في أول زمن وجوده للتفاعل كيمياويا لمرة واحدة فقط لإظهار أنواع الحياة بأشكالها المختلفة، وانتهى. نقطة رأس سطر.

إن ما كان يحصل من تطور في أشكال المخلوقات وتغيير صورها في أول ظهورها، هو داخل حدود المخلوق الواحد وليس التحول من حيوان الى آخر، وهذا لا يعني تبدل الحمامة الى فرس نهر والأرنب الى كركدن، بل كل من هذه المخلوقات كان يتطور ويتحسن ويتوافق مع تطور ظروف الحياة المحيطة به، بمعنى أنه من الممكن أن بعض الحيوانات كانت باشكال أخرى ولها صور أخرى وأحجام أخرى، لكن صفات ونوعيه وخاصية الأسد بقيت للأسد، وصفات ونوعية وخاصية الفيل بقيت في الفيل.

---

[1] - صفحة 132.

وهذا يعني بالنتيجة أن تربة الأرض استنفدت فاعلية كيمياويتها في الإيجاد منذ ملايين السنين بل قد يكون منذ بليارات السنين (إن الأرض أقدم من ذلك، إذ يقدر عمرها حالياً بما يقرب من 4,6 مليار سنة.)[1] ولم يعد بمقدور تربتها تقديم مخلوقات جديدة من تفاعل مواد تربتها، لكنها استمرت في تقديم الغذاء لاستمرار بقاء المخلوقات وعملية التطور. وكما هو متفق عليه علميا، فإن النباتات هي أول ما ظهر على الأرض ثم ظهرت الحيوانات ثم كان ظهور الانسان في المرحلة الأخيرة. فيظهر أمامنا سؤال:- لماذا هو المرحلة الأخيرة، لأنه هو ثمرة الوجود، ولأنه هو المميز الأعلى والأسمى، هو من يعمر الأرض وهو من سيبني الحضارات وهو من سيمتلك العقل الفريد وموهبة التفكير والوعي العظيمة، وهكذا سيكون أمام البشرية ملايين السنين أو بليارات السنين لمزيد من تطور هذا العقل وتقدمه وبهذا لن تظهر مخلوقات جديدة على الارض بفعل قوة الطبيعة لوحدها، لا عفاريت ولا جن ولا سعالو ولا أي نوع من المخلوقات الخرافية التي يقرأها في كتب الأساطير والتاريخ، بل الاحتمال الوارد هو أن علماء الأحياء قد يصلون الى تركيب أو صنع خلايا حيّة بنسب كيمياوية معينة صحيحة لمركبات تكوينها، وفي لحظة اكتمال ذلك التصنيع البشري ستحل فيها روح مختصة بنوع تلك النسبة الكيمياوية المركبة ويظهر مخلوق جديد أو مشابه لما هو موجود على الأرض ويبدأ بالحركة والحياة والنمو، كما يحصل حينما تخرج الدودة من الثمرة، فالثمرة هي آخر مراحل نضوج مرحلة النبات، والدودة هي أول مرحلة من مراحل بداية عالم الحشرات. لأن أرواح الكائنات موجود بشكل بدائي أولي تسبح عائمة في غلاف جو الأرض بأشكال بسيطة مختلفة وأعداد مهولة، وعندما تكون الخلية المصنعة أو التي يكتمل نموها في الثمرة كاملا بنسب صحيحة تكون كالمغناطيس جاذبة لأرواح خاصة بما يتفق مع نسبة تركيب موادها، حينها وفي لحظتها تحل الروح داخلها لتبدأ الخلية بالحياة والحركة؛ وقد يحصل مستقبلاً بقوة العلم أن يوجد علماء الأحياء مخلوقات جديدة لم يسبق أن رأينا مثلها. فلقد ظهرت المخلوقات لأول مرة عندما تهيأت التربة الصالحة للإيجاد، وسنرى خلقاً جديداً حينما يتمكن الإنسان من حلّ هذا اللغز المعقد. وهذه الفكرة جاء على تأييدها الكاتب في الصفحة اللاحقة مباشرة بشكل مقارب حينما قال: "بدون كيمياء لا توجد حياة. وحسب الفيزيائيين، فإنه لو اختلفت الثوابت الفيزيائية عما هي عليه ولو بشكل ضئيل جداً، فإن الكون سيتطور بشكل تصبح معه الحياة مستحيلة.".

**صفحة 149:-** (إن أي إله قادر على تصميم كون بشكل دقيق وببصيرة كاملة بشكل يؤدي لتطورنا فيه، عليه أن يكون على درجة من التعقيد واللاأحتمالية مما يجعل وجوده يحتاج لشرح أكبر من الذي يفترض إنه يقدمه؟).

عند وصول "دوكنز" لهذه النقطة في محاولته لتفهم كيفية خلق هذا الكون المعقد التصميم، يقول أن عملية فهمه وظهور المخلوقات على بعض كواكبه ومن ثم ظهور الوعي عند جنس محدد منها، هي عملية غير مفهومة لشدة تعقيدها، وهذا ما يجعلنا

[1] - الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون. ستيفن وينبرغ. صفحة 43.

نفترض ـ حسب قوله ـ أن الخالق هو أعقد تصميماً من هذا التعقيد الكوني حتى يمكنه إيجاد مثل هذا الخلق.

قد ترد نظرية وجود حالتي "القدرة والعجز" عند مخلوقات الطبيعة على هذا التساؤل، وهي حالة موجودة بأشكال متدرجة تبدأ من أعظم الموجودات الى أصغرها، بمعنى إن القدرة على المشي ـ على سبيل المثال ـ يقابله العجز عند الرضيع في عدم القدرة على ذلك، والقدرة على صنع آلة ميكانيكية يقابله العجز عنها عند من لم يدرس مادتي الهندسة والفيزياء، والقدرة على القفز العالي والركض السريع، يقابله العجز عن ذلك لدى آخرين. والمعنى أن حالتي القدرة والعجز موجودتان كقانونين ضمن قوانين الطبيعة، فما دامت حالة العجز موجودة داخل صفات الموجودات، كذلك ستكون هناك صفات قدرة موجودة عند غيرها، إضافة الى تفرد بعض البشر بقدرات لا يمتلكها غيرهم، كما هو الحال في قدرة التفكير والابداع، فالعجز عن فهم أمر ما، يقابله القدرة على التفهّم عند شخص آخر. وبهذا تكون حالة فهم بعض الأمور المعقدة، يقابلها العجز عن تفهّم الفكرة الأعقد في كيفية وجود الله وكيفية خلق الكون وظهور الوعي عند الانسان، فهي عمليات طبيعية تدخل في نطاق حالة العجز عن فهم اللامفهوم، وهذه حالة طبيعية لا تدعو الى الاستغراب، فالكون بذاته مبني على نظام قوتي "القدرة والعجز". وهذا القانون ينقلنا الى موضوع فهم سبب وجود الوجود. فاذا كان باستطاعة الانسان تفهّم بعض أسباب وجود الأشياء، فهذا يقدم بالضرورة الشق الثاني في عدم القدرة على فهم سبب وجود أشياء أخرى ومن ضمنها كيفية الوجود. فلو فهمنا ـ على سبيل المثال ـ كيفية حصول عملية البصر للعين والشم للأنف، فسيمتنع على المختصين فهم سبب استمرارية أجهزة القلب والرئة والكبد في حركتهم اللاإرادية المستمرة المسببة لاستمرار الحياة، والأمثلة على ذلك لا تنتهي مع جميع أجهزة أجساد المخلوقات، والاقتراح المقدم للدكتور دوكنز، هو السعي للانتهاء من فهم إعجازية حركة أجزاء جسده – وهذا مجال اختصاصه - ثم الانتقال لفهم تعقيدات خلق الأكوان، فعملية البحث الطبيعي ـ أقصد أي بحث ـ تبدأ بفهم ما هو قريب وتحت اليد ثم الانتقال الى البعيد ثم الأبعد. فعلى سبيل المثال، إن علماء الحضارات مع كل هذه الإكتشافات الأثرية وبمساعدة جميع نتائج العلوم الأخرى لم يستطيعوا التوصل الى فهم السبب الحقيقي في ظهور الحضارات، وكل ما قدموه من بحوث، هي شروحات عن أسباب إنهيارها وزوالها وليس انبثاقها وظهورها، ومن الوارد أن نسمع من دوكنز: "أن لكلٍ اختصاصه وجانب عمله". وهذا أمر صحيح، ولكن إذا أخذ بنظرية "القدرة والعجز" ونظرية "تضادد الكائنات والموجودات"، أي طالما يوجد المرض فهو دليل على وجود الصحة وطالما يوجد الموت فهو دليل على وجود الموت، وهلم جراً..، لأدرك أنه لم ينتبه لما وقع فيه من خلط بين القدرة والعجز والشيء ونقيضه.

إن فكرة خلق موجودات الكون بكل تعقيداتها، قد يضرب عليها مثال في فكرة لعبة التوالي والتدرج، حينما يضع المهندس حبة حمص صغيرة على ميزان نحاسي دقيق فتحركه بمقدار طفيف لتشد كفته الثانية خيطاً دقيقاً فيسحب عتلة المنيوم رفيعة مرتبطة بعود ثقاب لترفعه الى جهة محددة ليحرف سطح أفقي زجاجي قلق بدرجة قليلة مما

يدحرج كرة مطاطية أكبر لتقع على سطح حلزوني أكبر فينتج عن ذلك حركة مجموعة من الكرات الفضية تتجه نحو نهاية معينة محاطة بألواح بلاستيكية فتتساقط بترتيب منظم واحدة تلو الأخرى وتقع كل منها على كفوف مختلفة الأشكال منها المقعر والمحدب والمستوي وكل منها يرفع أو يدفع أو يزيح عتلة بطول متباين باتجاه معين، فتتكاثر النتائج والمحصلات وبالتالي تؤدي حركة كل منها الى نتيجة معينة تتسبب في دفع مجموعة أحجار تسد أنابيب مليئة بالمياه، فتبدأ قطرات الماء بالتساقط بترتيب منظم لتسقي مجموعة من النباتات المختلفة ويستمر ذلك فترة طويلة حتى موعد الإثمار.

فلو جئنا بالسيد دوكنز وأوقفناه عند مرحلة الثمرة النهاية وحجبنا عنه كل ما كان من مراحل الحركة و التتابع والتوالي، وطلبنا منه شرح سبب ظهور الثمرة؟ فبعلمه وذكاءه الفذّ لن يتمكن من تجاوز مرحلتين او أكثر، ولن يخطر في ذهنه إطلاقا تسلسل سابق العمليات الهندسية والفيزيائية ومحصلات الأوزان وما كان من امر الحركة الميكانيكية ولن يتصوّر أن كانت هناك فواصل زمنية وأبعاد مكانية وارتفاعات وانخفاضات وأنواع معادن وأشكال غير متناسقة تكاتفت بأتمها وتناسقت وتعاونت لظهور هذه الثمرة في نهاية الأمر.

ومن الوارد ان تكون هندسة خلق الوجود قد بدأت بحركة كونية ذرية واحدة تسلسلت تفاعلاتها الكيماوية والفيزيائية ـ كما في مثال لعبة توالي الحركات ـ وفي النهاية وصل الكون والخلق الى ما هو عليه الان. في هذه الحالة يكون مسبب الحركة أجزاء الثانية الأولى بعيد عن التعرف عليه لكثرة عدد الحركات والتفاعلات التي يصعب حصرها وملاحقة بدايتها وسببه، وذلك بسبب البعد الزماني والمكاني أو تصوّر تدرج مراحلها ونقلاتها واتحادها وتأثير حركة بعضها ببعض. فالعجز عن ملاحقة تتبع كل ما حصل خلال بلايين السنين، لا ينفي وجود المسبب الأول ولا ينفي وجود عملية توالي تسلسل التفاعلات والتأثيرات. فكما قلنا إن العجز عن المعرفة هو قانون طبيعي يقابل قدرة المعرفة، والعجز عن اختراق قدم الزمان أمر وارد حيث من الجائز انقطاع وصلات التأثيرات لتفرقها وعدم تشابه حركاتها الميكانيكية والكيمياوية التي تتقطع مظاهر تواصلها بسبب اختلاف أزمانها ومواقعها وعدم القدرة على تصوّر العلاقة فيما بينهما، كما في المثال السابق.

وهنا يأتي "العجز عن معرفة الجواب" هو جواباً منطقياً إيجابياً لا يدعو للاستغراب، لكن كل ما يهمنا في عملية التفكير والاستنتاج هو أننا علمنا أن هناك موجد مبدأي وحركة أولية محركة وتوالي أسباب ومسببات، وهناك فواصل بين موجودات لا تربط تركيبات موادها الكيمياوية والفيزيائية بعضها ببعض. فيأتي طفل الانسانية ليركز نظره على آخر نتيجة لآخر حركة وتفاعل فيتعجب منها ويبدأ المحاولة في معرفة كيفية الانتهاء الى هذه النتيجة النهائية. ولا غرابة أن يجد نفسه عاجزاً عن تعليل أكثر من مرحلة. ولكن هذا العجز لا يوجب القول أو الظن أنه لم يكن هناك مسبب أو قوة نظمت كل هذا الترتيب المسبق للوصول الى هذه النتيجة الإعجازية.

لو حددنا على سبيل المثال القرن التاسع عشر كأول سلمة من سلالم مراحل تطور العلم أو كبداية لمرحلة الإنفجار العلمي الحالي، ولو علمنا أن وجود الانسان على الارض

لن تكون له نهاية ـ مثلما لا نعرف كيف كانت البداية رغم أنواع التخمينات ـ وأن فكرة خراب الكون وتساقط النجوم وظلام الشموس هي فكرة رمزية غير طبيعية، فسنعلم أنه ( قـد ) يكون هناك وسائل للسفر والانتقال أسرع بنسبة لا يمكن تخيلها للانسان و ( قـد ) تصل الى سرعة الضوء و (قـد ) تتخطاها، ومن المحتمل أن الانسان سيتمكن من تخليق خلايا حيّة ومخلوقات جديدة من الوارد أنها لم تخلق من قبل أو أنها قد انقرضت منذ ملايين السنين، ومن الوارد أيضا أن نعثر على مخلوقات عاقلة شبيهة حتى بالخلقة والشكل الانساني وبذات المستوى الحضاري، وقد نجد أيضا كواكب ما زالت في طور النشوء وبداية ظهور مخلوقاتها البدائية، وقد نجد الانسان عليها وهو على شكل خلية واحدة أو أكثر أو نراه على شكل سحلية أو سمكة أو شكل قرد صغير، وقد يكون هناك تعاون واتفاق بين أمم الكواكب، كما لا يحتمل أن يكون هناك حروب وقتال وتفكير بإبادة بقية كائنات الكواكب الأخرى لاحتمال وصول الانسان الى مستويات عالية من الأخلاق والمثل العليا الحسنة تجبره على احترام حياة الآخرين وتدفعه للمحافظة على بسط قواعد السلام والاتحاد والمحبة بين موجودات الأكوان.

كل هذا ممكن الحصول طالما ان البشرية تقف على أول سلمة لحضارتها الكونية العالمية الجديدة؛ وقد تتطور عقول مشابهة لعقل العبقري دوكنز وفي ذات الاتجاه فيصلون الى قناعة في استحالة توصيل حلقات توالي حركة الإيجاد أو القدرة على الربط بين أجزائها. ويتوصلون كذلك الى أن المسبب والمحرك والمهندس والمفكّر والمصمم والباعث والمبدع والعقل والخالق والمرتب والمنشيء و و و ، كان واحداً أحداً صمداً لا ثاني له.

وقـد يتطور العقل البشري في المقابل الى درجة يكتشف من خلال تفحص موجودات الطبيعة إثبات وجود الله بطريقة محققة لا شك فيها، وقد تختفي فكرة الإلحاد والوجودية واللا أدرية بسبب ظهور دلائل قد تصل الى درجة (اليقين)، وتتوحد بذلك قطرات مياه علوم العباقرة والفلاسفة والحكماء كسيل واحد نحو إيجاد اتحاد عالمي بين بشرية الأكوان. لمَ لا ؟

(العديد من المناقشين في كامبردج زعموا بأن الله تكلم معهم، داخل رؤوسهم، بشكل واضح تماما كما لو كان شخصا آخر. لقد شرحت مواضيع الوهم والهلوسة في الفصل الثالث).

تجاوز واضح بأن دوكنز يعتبر نفسه العاقل الوحيد بين مجموعة العلماء ومن المثقفين.

(لو أن الله فعلاً تكلم مع أشخاص فإن هذا بحد ذاته يؤكد بأن الموضوع لا يقع خارج نطاق العلم).

الله هو العقل الكلي وهو خالق عقول البشر، وهو يعلم ما سيصل اليه العقل البشري من مستويات العلوم. ومن هنا تكون المعجزات الميتافيزيقية مستندة بالفعل على

العلم، حيث تكون درجتها في كل زمن أعلى في استعمالها لدرجات العلم من سابقاتها، بمعنى أن يرى الله ما هو بعيد عن حاسة العين، فلقد أوصلنا العلم لاستعمال آلاق تقنية تفعل ذلك، وما يعلمه الله بعلمه الغيبي عن أحداث الطبيعة من زلازل وبراكين وفيضانات استطاع الانسان بذات العلم التوصل الى معرفة هذه الأحداث الطبيعية، فعندما يضع في كتبه المقدسة إشارات محددة خفيّة لمواعيد ظهور رسله فهو يعلم أن هناك قلة من العلماء سيتوصلون لمعرفة هذه المواعيد ويصرحون بها ويستدلون عليها؛ كما كان من أمر ملوك المجوسية في معرفة زمن ظهور السيد المسيح(ع)، ومن قبله معرفة الكهنة والسحرة بزمن ظهور النبي ابراهيم والنبي موسى. فهل علينا تكذيب مثل هذه الوقائع التاريخية لمجرد أننا لا نستطيع رؤية الله بحواسنا الجسدية؟

(الله يأتي زاعقًا من عالم يقع في مجال آخر حيث يسكن عادة ويقتحم عالمنا حيث يكون بالمستطاع فهم رسالته من خلال الدماغ البشري، أتلك ظاهرة ليس لها علاقة بالعلم؟).

طبعا لها علاقة بالعلم، لأن ما يحصل هو في حدود عالم الطبيعة ولابد أن يكون له تفسير علمي. لكنه لا يأتي زاعقًا، بل يتكلم بلغتنا وبصوت مسموع، فنفهم ما يقول؛ أو يتكلم بلغة الروح فنفهمها وهذه ليست بحاجة الى أصوات وزعيق.

(الله القادر على ارسال الملايين من الاشارات المنفردة في نفس الوقت واستقبال رسائل منهم في نفس الوقت أيضا، لا يمكن أن يكون بأي شكل من الأشكال بسيطًا مهما كان! ربما أنه لا يملك دماغًا من النيوترونات أو ذاكرة من الرصاص ولكن القوة التي تعزى له تجعله ممتلكًا لأشياء مبهرة وليست عشوائية أبدًا وأعظم من أكبر الحواسيب التي نعرفها).

ولم كل هذا العجب؟ فالكومبيوتر بكل قدراته عاجز عن معرفة شخصيتك، ومن تفضل وأوجد هذا العقل البشري بكل إمكانياته، من المحتم أن هذا نفحة بسيطة جدًا من أفضاله ليرفع بها مقام الانسان مخلوقه المفضل المميز بهذا العقل، ومن يدري، فقد يكون هذا برنامجه الأبدع. أما أن نعرف ما لديه، فهذا أمر محال فالسبيل مسدود والطلب مردود.

صفحة 158 */ (ولكن من الممكن أن تكون هناك نظريات أخرى تنتظر الاكتشاف "لمعرفة الله")؟

صرح جميع الأنبياء والرسل أن معرفة كنه الله تعالى، هو أمر محال، مع أنهم أقرب المخلوقات اليه، فمحمد (حبيب الله) والمسيح (روح الله)، وموسى (كليم الله) وابراهيم (خليل الله)، وآدم (صفي الله) وعلي محمد (ذكر الله) وحسين علي (بهاء الله). كل هذه الذوات المباركة هي الأقرب الى ذات الخالق، لكنه لم يكشف لهم عن حقيقة كنهه، والجميع ماتوا حسرة في التعرف على حقيقته مع أنهم نشروا أديانهم وخدموا أمره وضحوا بحياتهم وتحملوا كل انواع العذاب في سبيله. فهل من المعقول أن يكون له اتصال معك وأنت المشكك الملحد الذي يرفض حتى ذكر اسمه باحترام وتبجيل؟ الله مقدس ولا

يتصل إلا بمقدسين وبطرق تتناسب مع درجة تقديسهم. وحتى يمكن اختراع طريقة توصلك أنت أو زملائك الملاحدة بمعرفة الله، فها نحن معك منتظرين .

/* (ربما يكون هناك مصمم خارق ولكن في هذه الحالة لن يكون مصممًا أتى من العدم بالتأكيد. ولو كان كوننا مصممًا "وإن كنت لا اصدق هذا حتى الان").

منطق ناقص. فلو قضى جهاز الحاسوب الذي بين يديك بكل برامجه الذكية كل حياته في التفكير وأنت قائم على مساعدته، فلن تتمكنا من معرفة الله. ولكن عدم تصديقك ان كل ما في الوجود مُرتَب ومُهندَس، فدعنا ننظر الى الطبيعة ونرى الفرق بين فوضى الغابة وترتيب وتنسيق البستان أو الحديقة، فلو ترك الكون دون تصميم فمن أسهل الأمور أن لا نرى هناك شموسًا وكواكب وأفلاك وأجرام معلقة في الفضاء كل يدور في مجاله وفلكه لا يحيد عنه مقدار ستمتر واحد، ولولا هذا الإبداع والتصميم لما احترت في عملية التمثيل في ورقة النبات وما سببها ودافعها، ولإحترت في عملية سيلان الماء نحو السفل بينما يتسلق بقوة عجيبة داخل صخور الجبال ويظهر من قممها على شكل عيون وشلالات. ولولا التصميم الإلهي لما نبض قلبك نبضة واحدة، فمثل هذا الإعجاز، مثل المراهنة على خمسين حصان أو أكثر على التوالي في حلبة سباق الخيل وتحقيق الفوز في النهاية. فلو كان هناك خطأ واحد في هذا الترتيب وفي عملية ترتيب التسلسل، لانهارت جميع كجرات الكون ولما وجد الوجود أصلا. فالعالم مليء بمثل هذه الأمثلة الإعجازية التي تدل على اعجازية التصميم ودقته. كل ما في الأمر، لن يؤثر شخص بتفكير هلوسي على اعتراف المؤمنين بوجود مصمم مبدع خلاّق لجميع هذه الأعاجيب المادية. فلا تصدق ولا أحد يطلب منك ان تصدق وعش كما أنت حتى تخترع شيئًا يثبت غير ما نؤمن به يحقق لك أصغاث أحلامك .

# الفصل الخامس

# (جذور الدين)[1]

الطبيعة لا تملك مساحة لـ "بهجة روحانية" طائشة. النفعية العديمة الرحمة تنتصر.

ومن أخبرك أن الطبيعة على الأرض لها مشاعر روحانية حتى تبتهج؟ وإنها لا تسير على قانون النفعية عديمة الرحمة، فقانون الطبيعة كان وما زال هو "البقاء للأقوى". فالحيوانات تأكل بعضها والنباتات تتراكم فوق بعضها لتصل قبل غيرها الى ضوء الشمس وتمد بجذورها الى أبعد المجالات كي تصل الى مصادر المياه غير آبهة بحاجة غيرها، والطيور تتغذى على الحشرات. المخلوق الوحيد الذي لديه بهجة روحانية هو الانسان ومصدرها الأديان الروحية، ولولا التعاليم الروحانية وما علّمه الأنبياء للبشر من أخلاق، لبقي الانسان وحش مثل بقية الوحوش حتى اليوم.

عاد لينتقد الدين من خلال تصرفات أتباعه، دون تفريق بين الإثنين. كما قال:- (بإمكان الدين ان يُشكل خطرًا على حياة الانسان التقي، كما على حياة الآخرين. الآلاف عُذبوا بسبب ولائهم لدين ما واضطهدوا من قبل مُتعصبين ممن ينتمون لإعتقاد مغاير).

مسألة القوة واستعمالاتها مبدأ لا يختص به حزب أو فريق محدد، فمثلما كانت الحروب تبدو متعلقة بأصحاب الأديان، كذلك هو الحال مع اللادينيين، والباحث المنصف يستطيع المقارنة بينهما، لأن الحروب سمة من سمات الانسان القديم ودوافعها لم تقتصر على فريق دون آخر، ويمكن تقديم أدلة واضحة من التاريخ كلما جئنا على مثال لأحد الفريقين.

اتفقت روح القوة والشراسة التي قامت عليها جميع كائنات الأرض، أنظر الى مبدأ العبودية وما حصل جرائها من ظلم للبشر، فطوال عصور وقرون كان مبدأ العبودية هو السائد بسبب شراسة أخلاق المجتمعات البشرية والحاجة الى أيدي عاملة. إن تعاليم الأديان تأتي متدرجة لمواكبة منجزات ما قبلها وللتوافق مع تطور عقلية الجنس البشري، والمخطط الإلهي قد أخذ بيد البشرية منذ أن كانت مخلوقات فطرية دقيقة، ولولا هذه العناية، لإنقرض هذا الانسان الضعيف منذ ملايين السنين. ولكن بعد ظهور علامات نضوج الأرواح والعقول البشرية، نرى اليوم ظهور تعاليم روحانية راقية جاءت بها الديانة البهائية بتحريمها القاطع للإعتداء والضرب والقتل وشتى صنوف الأذى بتناغم رائع مع دعوتها الروحية والأخلاقية، كما وأنها تشجع على اكتساب العلوم والمعارف وتحترم مقامات العلماء. (تدخل هنا بعض التعاليم البهائية في احترا العلم والعلماء).

/* الدين يلتهم المصادر الانسانية وغالبًا على درجة هائلة.

---

[1] - الصفحة 162

لادارة أية مؤسسة أو شركة او مصنع أو معرض او حكومة، لا بد من مقر يحظى منظره بالاحترام، ومن الأمثلة على ذلك مكتبك في بيتك أو في مقر عملك. فلماذا لا تمارس عملك في طريق عام أو شارع مزدحم أو في حديقة ألعاب لاطفال؟

/* كاتدرائية من العصور الوسطى ربما استهلكت مئة رجل خلال قرن من الزمن لبنائها ولم تستخدم كمسكن أبدا أو لأي سبب مفيد آخر يمكننا معرفته.

طراز طرق البناء تختلف مع اختلاف الزمان وتقدم تقنيته، واليوم يمكن قيام بناء بعشرات الطوابق دون خسائر بالأرواح البشرية نظرا للإلتزام بقانون السلامة بسبب الدقة في أداء العمل. ومن الطبيعي أن تكون للأديان معالم جميلة تجبر المنكرين لوجودها. واما السبب المفيد الذي تبحث عنه، فبالاضافة الى أنها أماكن روحانية، فهي أماكن مخصصة للتفكر والتدبير في إدارة شؤون المؤمنين وغيرهم الدينية والمدنية. أما إذا كنت تقصد الاهتمام بهذه الأبنية أكثر من الاهتمام بالبشر، فهذا ليس خطأ في الدين، بل في ممارسات رجال الدين.

/* الموسيقى المقدسة ورسوم دينية احتكرت مواهب العصور الوسطى وعصر النهضة.

اختص كل زمان بنشاطاته، فلا يمكن إيقاع الملامة على أعمال الماضي بمقاييس اليوم.

المتعبدون قتلوا في سبيل آلهتم وقتلوا آخرين من أجله وأدموا ظهورهم بالسياط.

تصرفات قديمة جاءتهم من قرون عبادة الآلهات المتميزة بالعنف والقسوة، ومن الواضح أن نسيان حروب أوروبا منذ زمن الفايكنك مروراً بنابليون حتى هتلر وصولاً الى حرب يوغسلافيا.

/* أقسموا أن يعيشوا البتولية أو في عزلة أو صمت وكل ذلك من أجل الدين.

مفهوم خاطئ في طريقة نشر تعاليم الأديان ودور الانسان التقي. فالسيد المسيح لن يأمر بالبتولية، فلقد عاش فقيراً لا يملك شيئاً ولم يتوةج أو تكون له أسرة لهذا السبب، وليس لأنه فضل البتولية.

/* لم كل ذلك؟

لولا ظهور الأديان والآلهات والطواطم والشامان والبدد والأنبياء وكل نبي قدم نموذج مختلف لتربية البشر لما تعلم الانسان أي علم ولما قامت حضارات الأمم. فالدين أساس ظهور العلم.[1]

/* ما فائدة الدين؟

1 - لكاتب السطور ، كتاب في طور التأليف يبحث في أصل الأديان وعلاقتها بالعلم.

لولا ظهور الأديان لبقي الانسان مثل الحيوان لا يفقه من حياته ووجوده شيئاً، ويمكن تتبع ظهورها حتى عمق التاريخ، مما يبعث على التساؤل من الذي أوجدها وكيف تمكن ذلك الانسان البدائي الحيواني الطباع اختراع أمر روحاني بينما هو منعزل في عالم مادي صرف.

/* واقع وجود الدين في كل مكان ربما يعني بأنه ذات فائدة في شيء ما.

هذا ما يدعو للتأكد أن الدين شأن روحاني غير بشري. فعندما يكتشف علماء الحضارات والتاريخ والانثروبولوجيا أن الدين موجود في عقلية الانسان وحياته منذ أقدم الأزمنة، فمن المحتم أن كانت له فائدة، ومن ناحية أخرى نستنتج ان ذلك الانسان البدائي بعقليته البسيطة غير قادر إطلاقاً على اختراع فكرة روحية من منطلق واقع مادي، إذا لا بد وأن جاءته من قوى غير بشرية.

/* الصيادون والقاطفون كما الحال في القبائل الاوسترالية الأصلية، يعيشون بطرية أقرب ما تكون لطريقة أسلافنا الأقدمين.

هذا أمر متفق عليه، فكلما عدنا الى عمق التاريخ في تفحص أحوال البشر، كلما اكتشفنا زيادة نسبة البدائية والجهل.

السحر.

السحر هو مهنة مرتبطة بالتعلم، والتعلم مرتبط بالعلم، والعلم جاء من الكهنة وهؤلاء أخذوه من الآلهة/الأنبياء القدماء، لأن اصل العلوم جاءت منهم. فالسحر نوع من المهن المرتبطة بالتعلم استعمل بطرق غير صحيحة للكسب المادي او السيطرة على عقول وحياة بسطاء البشر.

/* مع أن التفاصيل تختلف عبر العالم ولكن ليس هناك حضارة معروفة لم يكن فيها نسخة من الطقوس المستهلكة للوقت والصحة ومثيرة للعداوة والتخيلات المخالفة للواقع.

نظرة استغلالية لكسب مزيد من الأدلة الواهية لمساندة فكرة الكاتب الإلحادية، حيث أن مثل هذه المقارنة ليست من العدالة العلمية في شيء. فبالنسبة لكثرة الطقوس، فقد كانت من طرق التعبد لامتلاك الانسان كثير من أوقات الفراغ في ذلك العالم البدائي. وبالنسبة للصحة، فعلم الطب لم يدخل مرحلة التقدم الانفجارية إلا في القرون الأخيرة. أما إثارة العداوات، فلا تتوقع من أطفال حارة لم يدخلوا المدراس التصرف بحكمة طلاب جامعة اكسفورد. أما عن التخيلات فمن المؤكد أنها تخالف الواقع بسبب انتشار الجهل والأمية والتمسك بالعادات البدائية والتقاليد البالية وقلة المعارف والمدارس والجامعات.

/* ربما أن بعض المثقفين أهملوا الدين ولكن الجميع تربى في حضارة دينية وكان عليهم في وقت ما أن يتخذوا قرارا لتركه.

لو علم أن الدين هو مصدر الأخلاق ووالده وجده، وبسبب الأخلاق وصلت البشرية الى هذا المستوى من الرقي في التعامل الحسن بعد اختبار تجارب تصرفات البشر واختيار المستحسن منها، لما فكر أن تكون هناك احتمالية لترك الدين في الزمن الماضي. أما اليوم، فدعوته خطيرة جدا حيث أنه يتصور أن طائر البشرية يمكنه الطيران بجناح العلم فقط، وهذا امر محال، فالعلم لا يتفق مع الأخلاق دائما، ويخالفه في مجالات كثيرة، والعلم لا يوقف عملية التمرد ضد الأخلاق، فمثلما يصنع العلم الدواء يصنع سموم المخدرات، ومثلما يصنع أحدث وسائل النقل، يصنع أحد وسال التدمير. ومثلما يوجه الفكر نحو البناء والرقي، يوجهه في نفس الوقت الى التخريب و اختراع وسائل القتل الحديثة الجماعية. فدعوتك لترك الدين دعوة غير صائبة لأنه غذاء روحاني من المؤكد أنه لم يستذوقه من قبل، فهو يختلف عن غذاء الطعام والشراب للجسد، فلا الجسد قادر على الحركة بدون طعام، ولا الروح قادر على الابداع بدون قوة روح الدين المتصلة بقوة العقل والتفكير. اما خطورة ترك الدين فلن تتوصل عقليته لها، لعدم تجربتها، ولكن لو تفحص جميع مذابح وحروب التاريخ، فسيجد أن أعظم أسبابها الجهل وخلو روح الانسان من تأثير أرواح الأديان، نعم هناك الكثير من الحروب قامت باسم الدين، ولكن هؤلاء الأتباع لم يعرفوا من الدين إلا اسمه ومن كتبهم المقدسة إلا رسمها. فكيف تتصور أن لمجاميع أطفال البشرية الماضية إمكانية التصرف بطريق الحكماء، هذا امر محال حتى بوجود تعاليم الأديان. ومهما كانت تلك التصرفات سلبية يبقى لها تاثيرات إيجابية بين البشر، فكم مليون من البشر توقف مهاجمهم أو قاتلهم وارتد عنهم بسبب ومضة رحمة أو مخافة الخالق عن قتل ضحاياه؟ مثل هؤلاء لا يمكنك إحصاء أعدادهم لكنهم كانوا موجودين بالفعل وما زالت أحفادهم تعيش بسبب حصولهم على فرصة للحياة والزواج والإنجاب، وقد نكون نحن من أحفادهم. فلسنا بحاجة الى ترك الأديان بقدر ما نحن بحاجة الى دين عصري يتناسب مع هذا التقدم الحضاري العالمي الجديد.

/* والنكتة الايرلندية، "هل أنت ملحد كاثوليكي أم ملحد بروتستانتي؟".

هذا يؤيد ما جئنا عليه، فمثل هذه الفرق والمذاهب والانقسامات في جميع ديانات الأرض لم تكن موجودة حين أول تأسيسها ولم يدعو لها مؤسسو الأديان، بل هي مخترعات رجال الدين. فلا موجب لإلقاء تبعاتها على الأديان ومؤسسيها بل على أمثاله ممن يظهرون على البسطاء بأفكار تشتتهم وتفرقهم وتبعدهم عن صميم الفضائل والأخلاق كما فعل، فليس هناك فرق بينه وبين من قام على تأسيس مذاهب دينية مفرقة للبشر في قديم الزمان، فلكل زمان هناك رجال يفكرون بطرق غير سليمة.

/* ولكن ما هو تفسير التصرف الديني؟ لماذا يصوم الانسان؟

لأن الأنبياء لهم علوم راقية لا يمتلكها البشر، فينصحون بالحمية لفترات محددة مغلفة بقوة العامل الديني المنغرس في صميم قلوب لمصحلة البشر وللحفاظ على صحتهم، فالناس قديما لا يفهمون معنى التوقف عن الأكل حتى التخمة، وقد اتفق مؤخراً أن التخمة وإدخال الطعام على الطعام يسبب مختلف أنواع الأمراض، لذلك ترى انتشار

فكرة ممارسة الرياضة بين لبشعوب المتحضرة، ولو سمع ما قاله ذلك النبي البدوي قبل أكثر من 14 قرناً في نصيحته لأتباعه للحفاظ على أجسادهم، لأدركت أن له علم غيبي لا يمكن مع جميع كتبه وثقافته إمكانية تخيل ولا تصور ظهور مثل تلك الأفكار في ذلك المجتمع الوحشي الجاهل. فلقد قال:- (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع. وإذا اكلنا لا نشبع). وهذا امر بالابتعاد عن التخمة. وقال:- (كل بيمناك). وهذا أمر بالعزل الطبي الذي ينصح ويأمر به أطباء اليوم، وبهذا فقد خصص اليد اليمنى لتناول الطعام، واليسرى للاستعمالات الأخرى، حيث لم يكن في مجتمعهم مياه كافية ولا مواد تنظيف ولا صابون. أما أمر الغسل عند الوضوء قبل الصلاة، فكان سبباً عظيما في الحفاظ على صحة الانسان حيث يبقى نظيفاً في ذلك الزمان المترتب الطيني الموبوء حيث رياح السموم تضربه من كل ناحية والتراب والأوساخ تعلوه حتى قمة رأسه. فعليك ان تتصور ان الأمر بالغسل خمسة مرات كم حافظ على صحة الانسان من الجراثيم والفايروسات التي لم يكن يتصور انسان الصحراء وجودها حتى لو شرحتها له عشرات المرات، بينما بقيت الأمراض والأوبئة تفتك ببقية شعوب الأرض بسبب الأوساخ والقذارة.

/* ويسجد (الانسان) ويركع.

هذا دليل على الاحترام والتقديس والشكر، ونحن نعلم أطفالنا منذ صغرهم أموراً لا يدركون معانيها إلا حين كبرهم. كما أن أي مهندس أو طبيب حين بداية عمله يبدأ بأصغر المهمات ثم يتدرج الى ما هو أعقد فما بعد. ولا نجد هناك من يتقدم لتحية ملك من الملوك ولا يحني رأسه احتراما للمقام الذي يمثل أمة ووطن وعلم.

/* ويضرب نفسه بالسوط.

هذه عادات منبوذة ليست من أصل الدين.

/* ويومئ برأسه بشكل جنوني أمام حائط.

عادات قديمة جاءت من زمن ما قبل اختراع الكتابة، فلم يكن هناك وسيلة لحفظ آيات الأديان القديمة إلا بالاستظهار عن ظهر قلب، واستمرت الى الوقت الحاضر، رغم ظهور المخترعات التقنية التي عوضت ذلك. ولكن الناس اعتقدوها من الفروض المقدسة الواجب المحافظة عليها.

/* ويتطوع في الحروب الدينية.

رغم ان اتباع الديانات قاموا باشعال حروب باسم أديانهم، إلا ان لكل زمن ظروفه ومن الصعب أقناع الانسان المعتقد بمسألة دينية اليوم بأنها لم تكن من الدين بشيء، ومن ذلك مسألة القتال وشن الحروب. ولكن في المقابل، فإن البشر في قديم الزمان كانت صفاتهم وأخلاقهم مقاربة لصفات الحيوانات ومسألة استعمال السلاح بشكليه الفردي والجماعي، مسألة ما زالت آثارها موجودة حتى اليوم بين مجتمعات تدعي الحضارة، ناهيك عن دور الكهنة ورجال الدين في إثارة النعرات الطائفية بين الناس، لأنهم كانوا

المستفيدين قبل غيرهم من غنائم الحروب. واول المنسحبين والهاربين والمنافقين عند الخسارة.

/* تصرفات مكلفة قد تستهلك موارده (الانسان) المهمة لحياته.

من الواضح لمن لا يعرف مشاعر الرحمة في حياته أو سبق له رؤيتها في عيني فقير يتضور جوعاً أو يتيم يقدم له كساءً في يوم مطير بارد، وما هي قوة مشاعر الرحمة التي تهز أوتار القلب وتشعر بفرحة مخلوطة بالألم والسعادة عند القيام بمثل هذا العمل، وما هو تأثير ذلك على الفقير حينما يلمس مظهر الرحمة من غريب لا يعرفه، ومدى ذلك على تغير تصرفه وسلوكه تجاه الآخرين، فمشاهدة ترقرق دمعة ساخنة في عيني ام وأنت تقدم لأطفالها الجوعى وجبات طعام أو ملابس يسترون بها أجسادهم النحيلة تهز مشاعر أقسى القلوب. من المؤكد أن من لم يحتاج ولم يقابل محتاجا، يعجز عن فهم قوة هذه التأثيرات والمشاعر الانسانية على النفس والقلب.

ما زال يتكلم عن أتباع الأديان أكثر مما يتكلم عن الأديان ذاتها، وحينما يتناول موضوع التداوي بالأدعية وقراءة القران والإنجيل، ومهما كان من امرها فهي اعتقادات أتباع الأديان. أما التداوي بالأعشاب، أفلا يعلم أن غالبية الأدوية والأمصال الطبية تأتي من الأعشاب والنباتات؟

/* في كثير من الأحيان أشعر وكأني "شفيت" مباشرة من بعض الأمور البسيطة بمجرد الشعور بالاطمئنان لصوت يخرج من وجه ذكي عليه سماعة طبية. ذلك العلاج الوهمي وتأثيره موثق ومدروس بشكل جيد وليس حتى بلغز.

نعم إنها حالة نفسية عرفناها في الزمن المعاصر، أما في القرون القديمة فلا احد يعرف معنى الأمراض النفسية، وما كان يحصل من شفاء لهذه الأمراض البسيطة كانوا يعتقدونه نوعا من تأثير الأيمان أو السحر. فالتأثير واحد بين الطريقتين ولكن التسمية مختلفة. كما إن القول (شعر بالاطمئنان من وجه ذكي عليه سماعة طبية). هنا قد يكون الخطأ كبيراً، حيث أن درجة الذكاء لا يمكن رؤيتها في كل الحالات بمجرد النظر الى الوجه، فكم من جميل وجه يتفوه بالترهات ويعتقد بالخزعبلات.

يقول دوكنز:- (ربما كان السلوك الديني مجرد حادث، مجرد ناتج عرضي لنزعة نفسية خفية، والتي في أحوال أخرى قد تكون أو كانت مفيدة).

في الحقيقة لا تخرج هذه الحالة عن نطاق تفسيرين، فإما الجهل التام بشؤون الأديان والتاريخ الى حد يباسة قاع البرميل، او مخادعة حتى النفس. إن جميع علماء التاريخ والحضارات اثبتوا بالدلائل المادية والأثرية وجود الدين عند جميع شعوب الأرض منذ ازمان تاريخية عميقة يصعب الوصول اليها وتحديدها، وكلما تعمقوا أكثر كانت آثار الأديان تظهر وتعلن عن نفسها بشكل لا يمكن تجاهله، ولا تستثنى من ذلك أرض او شعب من الشعوب. فإذا كان انتشار الأديان بهذا الشكل العام العمومي، فكيف يمكن القول أنه

(مجرد ناتج عرضي)! مثل هذا الوصف لا يستعمل إلا على حالة شاذة تأتي وتذهب دون ترك أثر واضح. وكيف بالامكان وصفها (نزعة نفسية خفية)! هل يصاب البشر جميعا بهذه النزعة؟ أليس من الأفضل القول أنها قاعدة أصلية والخروج عنها هو الأمر العرضي والنزعة النفسية. لقد علمنا بالمثل القائل: "يغرد خارج السرب". لكن يبدو أنها "سابحة على التراب والرمال".

/* إن النزعة التي انتخبت طبيعيا في أسلافنا لم تكن ديناً بحد ذاته بل كان لها منافع أخرى، وبلورت نفسها كدين مصادفة.

عدنا الى قانون "التصادف" العجيب، فدوكنز قد ابتعد قدر الإمكان عن استعمال هذا المصطلح حينما بقي يستعيض عنه بعبارة "الانتخاب الطبيعي"، لكنه لم يستطع في النهاية إلا العودة اليه، فلا الاصطلاح الأول كان مجدياً ولا الثاني كان فعالاً. إن علماء النفس والانثروبولوجيا يؤكدون على وجود قوة خفية تربط بين النفس البشرية والمعتقد الديني وأنهما مرتبطتان بقوة منذ ظهور الانسان حتى اليوم، وأن للدين مظاهره المتصلة من فروض صلاة وتعبد وطقوس وله رجال وكهنة وأنبياء، بينما يأتي الاستاذ دوكنز ليقول أنه (لم يكن دين بل كان له منفع أخرى)!

ولنستمر في قراءة ما ينعم به علينا من عبقريته ولنر ما هي هذه المنافع التي بلورت نفسها لتخرج لنا الدين، ولماذا لم تخرج لنا شيئاً آخر، وأين دور المصادفة في الموضوع.

يقول أن الدين قد ظهر مثلما يقلد الأطفال للكبار وما يوصونهم به من جيل الى آخر! وما يواجه هذه الفكرة من تفنيد، التعرف على أول موجد لفكرة الدين، إذ لا بد وأن يكون قد اخترعها ولم تنتقل اليه. ثم أن البشر قديماً كانوا يعيشون في جميع مناطق الارض بشكل منعزل لدرجة حتى أن كبريات القبائل والشعوب لم يكن قد ظهر لها شكل تجمعات بعد، فكيف راحت كل مجموعة تقلد غيرها أو من يعلمها؟ وهل كان برنامجا متفق عليه بين معلمي الأديان أن ينتشروا في جميع أنحاء الكوكب وبجميع اللغات وفي مختلف الأزمان ليعلموا الناس ضرورة التمسك بالطوطم والتابو وبطيعوا الكهنة والشامان؟ لا يبدو في هذا المخرج أي معقولية أو تطابق لعملية التقليد التي استنتجتها أو استعارها. وعندما يضرب مثال انتشار الفايروس في جهاز الكومبيوتر وكيف يسري ليدمر الجهاز وينطلق في رسائل الى بقية الأجهزة ليعبث بها. فالمثال جاء غير موفق أيضا، بسبب اختلاف استقرار البشر في أقاصي الارض والجزر النائية مما يستبعد فكرة انتشار الفايروس التي جاء بها، حيث تجد آثار الأديان في أقصى بقاع الارض وبين أكثر جماعات البشر انعزالاً.

وعلينا أن نتوقع أيضاً أن الغيبيات والأمور الأخرى الغير واقعية ستتطور محلياً وتتغير عبر الأجيال بشكل عشوائي أو بشكل يتبع نوعا من الانتخاب الداروبني.

هنا تدخل قصة أمية حضرة بهاء الله لاثبات الواقعية، اضافة الى أمية بقية الرسل.

فلماذا هذا التوقع؟ وعلى أي أساس فرضت وجوده وانتشاره؟ ولماذا لم يأخذ به ولم يصله؟ سأقول لماذا، لأن الأفكار الدينية كانت لها اثباتات ودلائل ملموسة في حياة الأفراد لحاجتهم الى القيادة الإلهية بسبب طفولتهم العقلية، بينما انعكست الحالة عنده ومن حذا حذوه،فلقد لأنه أصبح للعلم قوة لم تكن متوفرة في العهود السابقة فتغلبت على المفاهيم الدينية العتيقة، وليس لأن فكرة الدين كانت فايروسية.

صفحة 178 /* حتى نرى ظهور أشكال جديدة من المعتقدات المستحدثة التي تختلف كلياً عن الأصل.

ولماذا لا نقول ان الدين فكرة حيّة تتطور مع تطور العقل البشري ومع تطور مجتمعاته فتظهر في كل زمن جديد عقائد تتوافق مع تطور أحوال البشر. فمن فكرة الآلهات الى فكرة الكهنة الى ظهور الأنبياء الى انتشار الأديان العالمية؟ ثم ان فكرة الانتشار الطبيعي التي افترضها، يعارضها تصرف البشر في مواقفه تجاه ظهور أفكار المعتقدات، فلا يوجد دين على الأرض إلا وقام الناس ضده لمحاربته وقتل أتباعه، مما يدل على أن ما يقوله لا يمت بالواقع بأي صلة.

/* في انتقاده لفكرة ظهور القائد والقيادة ومدى تأثيرها على سير أحوال مجتمع، جاء مخالفاً لجميع النظريات المؤيدة لضرورة وجود القيادة ـ بغض النظر إن كانت حكيمة أم متهورة ـ لكن البشر قديما، وبسبب انتشار الأمية وقلة المعرفة كانت فكرة الأب والقائد والكاهن إحدى الحلول التي وافقت سبيل تطور بالمجتمعات، حيث نجد هذا النظام موجوداً بين جميع المخلوقات والانسان من ضمنها، وقد أيد ذلك الفيلسوف توينبي وغيره. أما لو لم يكن هذا النظام موجوداً، لما ظهرت المجتمعات ولا الحضارات ولا تمكن الانسان من البقاء، ولأكل وقتل كل انسان صاحبه، إلا أن نظام القائد وما يترتب عليه من طاعة والتزامات أبقت هذا الكائن البشري على قيد الحياة وأوصلته الى هذا المستوى المعرفي.

/* يستشهد بمجموعة من "علماء" السلوك ويقول: (ذكروا كل على حدة فكرة الأديان كناتج عرضي لعوامل نفسية طبيعية).

سبق وقلنا أن الانسان استمر في الوجود لملايين السنين ولم يخرج من حالته البدائية إلا في القرون القريبة الماضية، فإذا كانت الاستنتاجات الفكرية بهذه السهولة، فلماذا بقيت البشرية واقفة على سفح جبل البدائية لملايين السنين؟ ولماذا لم تقفز في يوم من الأيام أو سنة من السنين بالصدفة بمثل ما قد حصل في القرن التاسع عشر حيث تفجرت العقول بالاختراعات والاكتشافات بحيث غيرت وجه الأرض، فلقد كانت هناك ملايين التصادفات لنتائج عرضية ؟ عندما يصعب على العقل البشري التوفيق فيما بين العلوم المادية بعضها ببعض، ويعجز أن اختراع ما يمهد له سبل الحياة وهي أمام عينه وبين يديه، فمن غير المعقول أن يجري مثل هذه القفزة المستحيلة من عالم المادة الى عالم الغيبيات والأرواح؟ إن هذا الأمر الخطير بحاجة الى إعادة تفكير لاكتشاف سره.

وعندما يضرب مثالاً بما تعتقده مجموعة بدائية من أهل الكاميرون عن دور الساحرات في تخريب محاصيل الزرع ويعتبره دليلا على ضحالة العقائد الدينية، فهي عودة لانتقاد تصرفات البشر البدائية الموروثة، ناهيك عن أن مثل هذه الاعتقادات كانت مفيدة في وقتها لوقف كثير من البشر من ذوي العقلية البسيطة وقليلي الأخلاق والبعيدين عن احترام الآخرين وما يشعرون به من ضرورة السيطرة بقوة الجسد على الآخرين عن مثل هذه التصرفات مخافة انتقام الآلهة والساحرات والعفاريت التي كانوا يعتقدون بوجودها. فمثل هذه الأوهام كانت في وقتها مفيدة لحفظ المجتمعات وانظمتها البدائية فلم يكن الانسان حينها متعمقًا في تفاصيل القوانين الاجتماعية حتى ينتظر منه تصرفًا يماثل تصرف انسان قرن اليوم.

/* بالنسبة لعلماء الانسان خاصة أنهم يهتمون بتنوع الأديان في العالم وتناقضاتها كما هو الحال بما هو مشترك بينها.

لم يكن القصد من إيراد مثل هذه الجملة هو الاشادة بفوائد الدين داخل المجتمعات، بل بالعكس فالقصد منها هو التركيز على (تناقضاتها). وهذا أمر طبيعي أن نجد تناقضات في مفاهيم الأديان القديمة والحديثة، كما هو الحال في اختلاف وتناقض قوانين الشعوب الحديثة في هذا اليوم، فلا توجد أمة على الأرض تتوافق في جميع بنود احكام قوانينها مع الأخرى، وأن ما يعتبر جريمة في مجتمع ما، قد يكون عملا ليس ذا أهمية في مجتمع آخر، وقد ينظر لمن يستغربه او يستهجنه بعين الاستغراب والشذوذ عن القواعد الاجتماعية العامة. كما ان الأديان تتعامل في محتواها مع حالة الانسان النفسية الفردية والاجتماعية، وبهذا كان لا بد من الاختلافات الحتمية بين قوانينها ـ إلا في مسألة الأخلاقيات فهي متفقة عليها ـ حيث لا نجد إنسانًا يشبه آخر في جوهره النفسي وبالتالي لا يوجد شعبًا يشبه آخر في سلوكه العام.

/* كل أنواع الأيمان الديني تبدو غريبة لانسان لم يتربى داخلها.

عبارة دسيسة غاية في الدقة، في تصويره القاعدة العامة كحالة شاذة، فالغرابة هي في ظهور من يعزف بنغمات شاذة مختلفة عن الجوقة المتناسقة ويبحث عن غايات دفينة سعيًا وراء شهرة أو ثروة. فهذا عكس واقع الحال التاريخي لمجتمعات البشر تماما، فلم يوجد شعب من الشعوب أو حتى قبيلة من القبائل المنعزلة في أقصى جزر البحار إلا وكان لها معتقد أو دين مهما كانت مظاهره بسيطة وساذجة وخرافية.

أما الغرابة الحقيقية، فهي ظهور مجموعة من العلماء الماديين الأذكياء بعدما تفوق العقل البشري في علومه ونضوجه على مفاهيم الدين البالية وأدرك أن تصرفات رجال الأديان وأتباعهم وما يدعون له قد وصلت في ضررها لتصبح أوبئة اجتماعية خطيرة عامة. فمثل هذا التردي الديني الروحي لا يدعو لاتهام الأديان ذاتها بالسوء، فهذا حكم يفتقد للمصداقية، ضاربين بعرض الحائط أن توافق وجود الأديان مع وجود الجنس البشري كان أبديًا منذ القدم وكان نوعًا من التربية الروحية والاجتماعية الإلهية حافظت على النظم

الاجتماعية حينما لم يكن هناك رجال قانون وقضاة وسياسيين وأجهزة سلطة تشريعية وتنفيذية كما هو الحال الان. وما دام أن دور الأديان كان بهذه الفائدة وهذا الاتساع، فمن الضروري استمراره وعدم انقطاعه فهو الحافظ الداخلي للنفس البشرية من فعل الشرور حين غياب حافظ النظام الخارجي (القانون والشرطي). فالغرابة تكون في انقطاع المدد الإلهي وليس في استمرار حلقاته، لأن التواصل كان السمة التاريخية العامة الأبدية للأديان. وبهذا كان لابد من التحقق من دور الأديان المفيد وإيجابياته وليس بالدعوة لليعاد عنه وتركه، فقد سبق وجرّبت الأديان كدواء اجتماعي لحفظ النفوس والمجتمعات لملايين السنين وكان ناجعاً.

/* صفحة 179 في كتاب يستند في عرضه على المسائل العلمية والعقلية والاستشهاد بأقوال العلماء والكتّاب والصحفيين ويكرر ذكر ما جاء عن البروفيسور فلان وما قال نظيره داخل قاعة الاجتماع الفلانية من أمور التأييد للفكر الإلحادي. فمن السوء بمكان تقديم أمثلة غاية في البساطة عما يعتقده البدائيين عن الساحرات وكيف يجلسن في الليل على أوراق شجر الموز ليرمين بسهامهن لأذية البشر. مثل هذه الأمثلة "التافهة"، مثل من يعترض على طفل ذو أربع سنوات حينما يظن أن النملة تتكلم وقطته تذهب الى السباحة في الليل.

/* هناك دعوة مرة اخرى لما سبق وذكرناه في موضوع ولادة المسيح(ع) من أم عذراء. وقد سبق وأوضحنا استحالة ذلك.

/* إحياء شخص ميت (اليعازر). وسبق وقلنا أن للموت في المفاهيم الدينية معنيان جسدي وروحي.

/* كذلك موضوع عودة المسيح(ع) للحياة. وذكرنا أن للعلم درجات، يتعلمها البشر بالتدريج، بينما هي مكشوفة للأنبياء بمنتهى آفاقها، وبذلك كل ما كان خفياً وإعجازياً في يوم من الأيام أظهره العلم التدريجي من عالم الغيب الى عالم الشهود، وهذا دليل على ان آفاق العلم والعلوم غير محدودة، يصلها العقل البشري بالتدريج.

/* ظهور السيد المسيح(ع) بعد اربعين يوماً.* لقد استطاع البشر اليوم بقوة العلم الظهور على شاشات التلفزيون وهم على مسافات بعيدة، واستطاع تسجيل أحوالهم وحركاتهم وأقوالهم وعرضها مرة أخرى بعد عشرات السنين، وكأنه موجود في كل هذه الاختراعات تقترب من تلك الأحداث التي كانت معجزة بالنسبة للقدماء.

صفحة 180 /* سماع السيد المسيح(ع) وعلمه بما يفكر غيره.* سبق وقلنا أن مبدأ الممكن وغير الممكن، تحتم وجود مثل هذه القدرات، فهناك الكثير من الأمور التي يعجز عن أدائها إنسان بينما يتمكن منها غيره، إضافة الى أن وجود غير الممكن دليل ثابت على وجود الممكن، فطالما أن قوى حواس الإنسان على سبيل المثال محدودة، إذن فهناك ما هو غير محدود.

/* يبقى يكرر ـ بسبب أو بدون سبب ـ عبارة (الشخص الذي ليس له أب).* من الواضح أنه يتخذها كنقيصة مشينة، رغم أنها إرث ومعتقد ديني عن بشر عاشوا قبل أكثر من ألفين سنة.

/* يكافي السيد المسيح(ع) أفعال البشر في حياتهم وبعد مماتهم حتى ولو كان بعيداً عنهم أو بعد وفاته.

إجابة ذلك تدخل تحت باب قانون الممكن وغير الممكن السابق، وتحت مجال التجارب الشخصية ودرجات الايمان.

/* (والدة الشخص "الذي بدون أب"، لم تمت أبداً بل صعدت الى السماء.

معتقدات قديمة ساعدت على انتشار معتقد الدين الذي كانت فيه حاجة اجتماعية للبشر أدت بعد انتشارها لظهور مجتمع مسيحي متطور.

/* الخبز والنبيذ لو باركهما القسيس ـ وهنا يأتي بعبارة لا تستحق نقلها في وصف القسيس ولا موجب ليذكرها ـ يصبحان جسد ودم ذلك الرجل (الذي بدون أب).

إنه معتقد ديني ساعد في انتشار مبادئ الأخلاق وضبط النفس والتقليل من انتهاكات قوانين المجتمع ونشر الطمأنينة بين الناس.

/* أخيراً يعلق على إن مثل هذه الأفكار لو قدمت لعالم إنساني محايد (ماذا سيقول عن تلك الأمور)؟ سبق وتمت الاجابة، ولا حاجة للغرابة والحزن على ذلك العالم الانساني.

/* والتطوريين النفسيين اقترحوا التالي: كما ان العين تطورت.. والجناح تطور.. كذلك الدماغ الذي هو مجموعة من الأعضاء (أو الوحدات) التي عليها تقع مسؤولية التصرف حيال المعلومات. هناك وحدة للتعامل مع الأقارب وأخرى لمعالجة التبادل وأخرى للتعاطف وهكذا. يمكن النظر للدين على أنه ناتج عرضي لمجموعة من هذه الوحدات وكمثال فإن الوحدة التي تكون مسؤولة عن تشكيل نظريات عن العقول الأخرى لتشكيل التحالفات وممارسة العنصرية لصالح من هو في الحلف وضد الغرباء. أي وحدة مماثلة قادرة على العمل كوظيفة مماثلة لتلك الوحدة التي يستخدمها العثّ للتوجه بمساعدة الأجرام السماوية، وحدة عرضة لنفس الخطأ الذي ذكرته حول السذاجة الطفولية.

يستند المؤلف في طرحه على دلائل غير علمية، فكل ما اورده هو نوع من الكلام غير الموثق والفرضيات الذهانية. فقبل كل شيء افترض أن الدماغ هو القائم على عملية التفكير، وهذا ليس صحيح علميا وليس له إثبات علمي على ذلك حتى الان، فهو يركض مع الراكضين دون معرفة وجهته. أما تصنيف فاعلية الدين على أنها فقط دوافع سلبية عدائية، فهو الاحجاف بعينه تاركاً كل ما كان له من تأثيرات حسنة في المجتمعات، أما إشارته للتحالفات والعنصرية، فهي تصرفات بشرية لا يدعو لها دين من الأديان إلا إذا كانت نوعا من انواع الدفاع عن النفس في مجتمعات وحشية تهدد سلامة الانسان وتتآمر للقضاء

عليه عندما لا يكون هناك سبيل أمام معتنقي الأديان إلا الدفاع عن أنفسهم. وهذا ليس بالأمر الباطل، فجميع الشرائع السماوية والوضعية قد حللت وأمرت بالدفاع عن النفس والعائلة. ولا أشك أبداً إذا دخل بيته شخص مجرم يريد الفتك به أو بعائلته أنه سيسمح له باسماً.

صفحة 181 /* يعرف (المثوي) بأنه يعترف بالفرق الاساسي بين الروح والمادة.

وهذا أمر واضح حينما يكلم الانسان نفسه وحينما يحلم بأشياء مستقبلية وحينما يموت الجسد ويخمد فلا نجد هناك فروقات مادية ولا بمقدار ذرة بين حالتي الجسد قبل وبعد الوفاة.

/* الروح هي شكل من أشكال المادة.

اتفق فلاسفة الإغريق واليونان وجمع كبير من حكماء على العلم على ان الروح مخالفة للمادة بطبيعتها. ولو كان الأمر كذلك لكان بالإمكان رؤيتها ولمسها مثل بقية الموجودات المادية.

/* يضرب مثالاً على وجود الروح: (مثل المادة في الدماغ أو حتى الكومبيوتر).

هذا كلام غير مسؤول من شخص يدعي الاعتماد على التجارب والأدلة العلمية حيث لم يثبت ذلك أي عالم فسيولوجي أو اعصاب.

/* بل ويحدد مكانها: (لا وجود "للروح" خارج المادة).

وهذا أمر مشابه آخر بحاجة الى تقديم دليل علمي عليه، رغم انه شبه قبل قليل وجود الروح في جهاز الكومبيوتر.

/* المثوي يؤمن بأن الروح غير متجسدة وتسكن الجسد وينتج عن ذلك أنه بإمكانه ترك الجسد والوجود في مكان آخر.

لا يوجد تعليل آخر يتقبله العقل غير هذا، وإلا لكان العلماء قد أشاروا اليه أو الى مكانه ووصفوه وشرحوه مثلما هو الحال مع بقية اعضاء الجسد المادي× وهذا ما يحدث أثناء النوم.

/* المثوي يفسر أن الأمراض العقلية هي "تلبس بالشيطان".

هناك فرق من السماء الى الأرض بين علوم الأمس واليوم، وبما ان أطباء الماضي وسحرته لم يتوصلوا الى معرفة الأمراض النفسية واقتصر علمهم الطبي على الأمراض الجسدية وحاروا في مسألة أنواع الأمراض النفسية والجنون والتخيلات، لذلك كان أقرب التفسيرات المقنعة لهم في زمانهم هو وجود الشياطين والجن وتلبسها للشخص المريض نفسياً.

إن علم الأمراض النفسية ما زال حديثاً، وكان من الصعب التعرف عليه بمحصلات العلوم القديمة، ومن الأدلة على ذلك حينما سأل الرسول محمد(ص) عن الروح، فلم يجب على ذلك لعلمه أنه ليس زمان كشف مثل هذه الحقائق العميقة لحاجة ذلك لعلوم تأسيسية معقدة، لذلك كان جوابه: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)، فلقد امتنع عن التطرق لهذا الموضوع المعقد لما يمر به عرب الجاهلية من طور طفولة، فالمجتمع العربي آنذاك بحاجة الى قوانين اجتماعية تنظيمية كأمور الحلال والحرام أكثر من الخوض في معارف متقدمة لم يحن وقتها بعد، مثلما يمتنع الآباء عن شرح مسائل كثيرة لأولادهم الأطفال، بينما نلاحظ السيد المسيح قد تطرق الى شيء من ذلك لاختلاف مستوى المجتمعين.

/* المثنويون يعطون معنى شخصياً للعناصر الفيزيائية الغير متحركة في أقرب فرصة ويرون الأرواح الشريرة حتى في الشلالات والغيوم.

مفاهيم متأخرة قديمة تناسبت مع عقول الأمم الجاهلة لا يؤاخذون عليها. لكننا لو نظرنا الى اولادهم وأحفادهم ـ ومن ضمنهم المؤلف نفسه ـ لوجدنا الفرق الكبير بين وسيلة التفكير التي لم ينتبه لها المؤلف أو أنه انتبه وبراوغ في استعمالها لصالح فكرته الطوباوية. ويعود ليضرب على ذلك مثلا في قصة كتبت في سنة 1882م. فيا للعجب!.

/* وكمعظم العلماء فأنا لست مثنوياً.

من الوارد أن يكون عالما في مجال اختصاصه (سلوك الأحياء)، ولكن يبدو الجهل واضحاً في علم الأديان والروحانيات وظهور الحضارات، بدليل قاطع لما يكتبه و يفيض به صنبور قلمه.

/* المثنوية الفطرية والغائية الفطرية تؤهلنا بوجود الظروف المناسبة للدين.

(تدخل هنا مجموعة من أقوال العلماء حول أهمية الدين ودوره).

كل ما جاء به المؤلف مجرد تصورات فكرية كانت تنطلق بعيداً عن هدفها في النيل من فكرة ضرورة الأديان، وتثبت في الوقت نفسه فشله حتى الان في اثبات عدم صحة نظرية المثنوية والغائية. وفي المقابل لو كانت هاتين النظرين أربعة أو أكثر، لحور السؤال وأدار بوصلة مطلبه الى ذات الناحية. وهذا يذكرنا بذاك الملحد الآخر حينما يعترض على الأنبياء ويقول أنه لا فرق بينه وبينهم. فلماذا لا يدعّي هو أنه نبي؟

/* مثنويتنا الفطرية تؤهلنا للأيمان "بروح" تقطن الجسد عوضاً عن كونها جزء من الجسد.

لو علمنا ان الجسد تتغير مجمل خلاياه خلال حياة الانسان لعدة مرات، لصعب التصور أن هناك توافق لا ينقطع بينه وبين "الروح"، إذ لا يعقل أن تسلم كل خلية آيلة الى الموت بنود اتفاقيتها لمن تحل محلها فتلتزم بها وتنفذها دون معارضة، ولإستغربنا أكثر من هذا التوافق والتناغم عند جميع خلايا أجساد البشر. أما الإدعاء بأن فطرية مثنويتنا تمهد

السبيل لحلول الروح في الجسد، فلا يعلم من أين له هذا الاقتراح ومن أين له هذا التصور، ولم لا يكون موقع الروح في الجانب الخلفي من الكتف الأيمن أو في داخل الرئة اليسرى في الطرف القريب من الضلع المتوسط؟ إن كل ما يقدمه هو مجرد رجم بالغيب ومجرد لغو كلام غرضه هدم الفكرة الدينية دون تقديم تفسير بديل ومحاولة لإبعاد الايمان عن قلوب البشر، وبالتالي هو محاولة لاجراء نوع من الهدم لنظام روحي بقي ناجحًا لمئات الألوف من السنين يريد تحطيمه وترك فراغًا روحيًا يمكن ان يؤدي الى زوال المحبة من قلوب الناس وزوال المثل العليا طالما يقول أنها حالة عارضة قد تزول بمجرد أن يقنع قارئه، وبالتالي هي ليست سوى دعوة لاحلال الاختلاف لاختلاف والتباغض والكراهية بين البشر طالما ينفي وجود الروحانيات والمشاعر المعنوية. وبذلك ليست سوى أسوأ دعوة شيطانية قال بها شخص يتشبث بأهداب العلم باطلاً.

إن عملية اشراك الجسد المادي بالمشاعر المعنوية والروحية والظن أنه يقاسمها الأحاسيس المعنوية، كمن يقول ان المنشار والمطرقة ومقود السيارة وما شابه تفهم ما في عقل مستعملها فيتناغمان في الحركة الإرادية، ولا يمكن أن يظهر انتاج مادي إلا باتفاق فكري بين الإثنين، الجماد وإرادة الصانع.!

/* إذا كان كل شيء له هدف، فلمن ترجع هذه الأهداف؟ الله، طبعا.

بدلاً من الانتقاد والتشكيك والسعي الحثيث للمعارضة، كان عليه تقديم بديل مقنع يستعاظ به عن الفكرة القائمة وليس تقديم مجرد أضغاث أوهام وأحلام. أما طريقة التهديم والتنقيض، فهي الأسهل دائما. فبقدرة صبي صغير بيده فأس هدم بناء بناه ألف بانٍ.

/* فما يقدمه من بديل، هو: (حساباتي عن المثنوية الفطرية أفترضت أن الانسان يلد مثنويًا غائيًا بطبيعته).!

وكيف جاءت هذه الولادة ومن رتبها؟ ولماذا ليست ثلاثية أو رباعية أو عشرية؟ أو حتى بترتيب إلهي؟

صفحة 191 /* يبدو "محتملاً " أن اللغات تطورت بما يشبه الإنجراف الوراثي العشوائي.. وأنا أنطلق من أن الدين كاللغة تطور بشكل عشوائي من بدايات غير محددة.. لتعدديتها التي نلاحظها.

غالبية ما يأتي عليه المؤلف أفكار يُسبقها بكلمة(محتمل، ممكن، قد، إذا، من الوارد.. الخ)، وهو نوع من التذاكي الفردي لم يوصله الى نظرية علمية ثابتة، حيث نجده غالبًا ما يستعمل كلمات ومصطلحات يمكنه الاستعانة بها للتملص في حالة المواجهة بفكرة نظرية أكثر معقولية من فكرته.

وهنا يبدو واضحًا حينما لم يستطع الخروج عن نطاق الفكرة التوراتية بوحدة اللسان البشري قديما حينما كان جميع البشر يتكلمون لغة واحدة ثم حصل تبليل الألسن فيما بعد

فظهر تعدد اللغات، حيث يضرب مثالا على ذلك (تطورت اللاتينية لتصبح لغة اسبانية وبرتغالية وايطالية وفرنسية..). فالمثال هنا ليس له عمق تاريخي حيث لا يتعدى عمره المئات من السنين، مما يوحي أنه يؤمن بنظرية بداية الخلق في نقطة محددة من الارض ثم حصول الهجرات والانتشار. لذلك فهو نتيجة لهذا الاعتقاد يشبه انتشار الأديان بذات الطريقة، فيفترض وحدتها (أديان تحتوي على قواسم مشتركة) ثم تعددت.

فاذا عدنا الى الى موضوع وحدة لغة البشر الأولى و"تبلبل" ألسنتهم فيما بعد، فهذه الفكرة التوراتية ـ باعتبار المؤلف مسيحي الأصول ـ ولا يُستبعد تأثره بها دون انتباه، إلا اذا صرح بغير ذلك لاحقًا في صفحاته القادمة.

صفحة 192 /* يبدو أنه ليس هناك من شك بأن العديد من مواصفات الدين مؤهلة بشكل جيد للحفاظ على بقاء الدين نفسه وبالتالي البقاء لتلك المواصفات في خليط الثقافات الانسانية.

من أين للدين هذه القوة في المحافظة على ذاته، فالدين كفكرة مجردة لا يملك القدرة على ذلك. فمن أين جاء بها؟

/* السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو فيما اذا كان هذا التأهيل قد تم الحصوص عليه بـ "التصميم الذكي" أو أنه نتيجة الانتخاب الطبيعي. ربما يكون الجواب مزيجا من الاثنين.

المقصد من المفهوم الذكي هو أن هناك مدبّر، لكن ماذا عن الانتخاب الطبيعي؟ يقول:- (التصميم من طرف حيث القيادات الدينية قادرة بشكل تام على صياغة تلك الأفكار التي أدت لبقاء الدين بشكل فعال).

صحيح أن رجال الدين هم الذين يطيلون عمر الأديان، لكن ذلك يكون لفترات محددة، ثم ينقلب الحال بالعكس تماما، حيث يكونوا هم السبب المباشر في خروج أتباعه حين وفاة دينهم. والأدلة لا تحتاج الى أكثر من أن الكاتب نفسه يكره الدين ولا يترك فرصة في كتابه إلا وينتقده. فمن أين له هذه الكراهية وجميع الأديان تدعو الى رقي الناس وتفشي الأخلاق الحسنة بينهم؟ كما لا يمكن عزو هذه القدرة في الإبقاء على الدين الى رجاله، لأنهم سبب وجود الخلافات والتفرق بين أتباعه، فبعدما يكون الدين وحدة واحدة، يجعلون منه شيعًا ومذاهب وأحزاب، فيفتتون عضده وينهون حياته.

/* مارتن لوثر عرف بشكل جيد بأن العقلانية كانت هي عدو الديني الأعظم وقد حذر منها مرارا.

ما زال المؤلف يقارن بين عقلية القرن 21 وبين تعاليم روحية عمرها أكثر من 35 قرنًا (اليهودية). كما أن مارتن لوثر نفسه كان داعية ديني، فكيف يقول ذلك لو أنه لم يقصد أمرًا آخر.!

/* ولكن هذا لا يعني أنه، أو أي أحد آخر، قد صمم ذلك، من الممكن ان ذلك تطور بشكل (غير وراثي) بالانتخاب الطبيعي.

الدين ليس نباتاً أو شجرة حتى ينتخب من الطبيعة موادًا لإدامة حياته، إنه مجرد فكرة يأتي بها فرد ثم تنتشر حسب موافقتها لأفكار الناس. فمن الذي يبتدعها بهذه القوة في كل مرة؟ إلا إذا كانت قوة مفكرة عاقلة لتعطي الأديان قوة الإدامة دون غيرها من بقية الأفكار.

صفحة 201 /* فيما يلي قائمة لبعض الميمات التي يبدو أن لها قدرة على البقاء في البنك الميمي، لاستحقاقها أو بسبب تطابقها وتماشيها مع ميمات أخرى في مجاميع مركبة:

/* ستحيا بعد موتك.

هذه فكرة غيبية أصلها مختلف عن الواقع المادي تماما ولا يمكن للانسان استنباطها من هذا الواقع، حيث لا يوجد للطبيعة قدرة على إمداد العقل البشري بوصلة صلة فيما بين الطبيعي والغيبي.

صفحة 202 /* لو مت شهيدًا فسيكون لك مكان خاص في الجنة الرائعة حيث تستمتع بإثنين وسبعين حورية عذراء.

هذه طريقة حكيمة لتربية الانسان/الطفل في قديم الزمان كي يلتزم بتنفيذ القوانين الدينية والروحية للحفاظ على الحضارات البشرية وعلى سيادة القانون زمن ثم تطور العقل البشري. فالوالد غير ملزم ـ بل من العبث ـ شرح وتوضيح كل ما يأمر به ولده، لأنه من المستحيل ان يعقل الأسباب، بل من الوارد جدا أن تؤدي به الى محاولة التجربة العكسية التي ستدمر حياته الطبيعية والروحية.

/* الايمان بالله هو أهم عبادة.

فكرة دينية ازلية رافقت ظهور اول المعتقدات البشرية، وكان لها أعظم الفائدة للالتزام بالقوانين المنظمة لمجتمعات الشعوب الطفولية ولم يكن لها ضرر اجتماعي بدليل ما وصل اليه عقل الكاتب من قدرة على التفكير.

/* الأيمان (الاقرار بدون أدلة) عبادة.

نعم.. فى موجب لشرح الأسباب والنتائج المستقبلية للأطفال حين تنفيذ الأوامر.

/* الجميع وحتى هؤلاء الذين بدون معتقدات دينية، يجب عليهم بشكل مباشر وبدون أي تساؤل احترام هذه الأشكال من الأيمان.

مبدأ أثبت حكمته حيث هو الآن مطلب انساني عام، احترام معتقدات الآخرين.

/* هناك حقيقة أشياء غريبة والتى لم نخلق لفهمها.

سبق وجئنا على جواب العديد من الأمثلة المشابهة. إنها طفولية الانسان القديم الذي ينتظر النضوج العقلي لفهم أمور الحياة بالتسلسل.

/* الموسيقى الجميلة والفن والآداب هي في واقعها رموز ناقلة للأفكار الدينية.

من الثابت علمياً، علاقة الموسيقى بالمشاعر المتصلة بالأرواح، وإلا فلا شيء مادي يخرج من آلة الموسيقى ليدخل جسد الانسان. كما أن هذا المنطق لا يتفق مع الحيوانات حينما تهتز وتتمايل عند سماعها الموسيقى.

صفحة 203 /* الروم الكاثوليك والاسلام مثلا لم يصمما من قبل أفراد.

منطق غاية في الغرابة، ومن غير السيد المسيح والنبي محمد اللذان أوجداهما؟!

/* الأديان المنظمة يقوم عليها أشخاص: قسس ومطارين و حاخامات وأئمة وآيات الله.

إن ظهور مثل هذه الشرائح كان ضرورة اجتماعية بسبب انتشار الجهل والأمية والتخلف، وبما أن الانسان يحيا بتطبيق أحكام دينه، فكان لابد من وجود من يشرح له أحكام وسبل وطقوس الزواج والدفن والصلاة والصيام والحلال والحرام وغيرها. فالشخص الأمي لا بد له من معلم لمنهج الحياة. فهذه الشرائح لم تخلق الدين بل خدمته، أما المؤسسون فكان على الدوام هناك شخص واحد وليس أكثر. ومن الضروري أن يكون لكل منهج عملي قادة ومدراء ورؤساء عمل.

/* الأديان كما يبدو ولو بجزء ما مصممة بذكاء، كما هو الحال في المدارس والموضة في الفن.

اعتراف يبنى عليه وجود مصمم ذكي ولا بد أن يكون خارق حيث أوجد طريقة تربوية لمختلف اجناس وشعوب البشر ونجح في تطبيق هدفه.

صفحة 204 /* الدين الوحيد الذي صمم كلياً وبشكل مقصود بذكاء هو السينتولوجي..[1] والمثال الآخر عن الدين المصمم كلياً هو المورمون. جوزيف سميث، العبقري الكاذب الذي اخترعه ذهب لحد تأليف كتاب مقدس جديد بشكل كامل (كتاب المورمون).

من الغريب تحامل الكاتب على صاحب فكرة مخالفة ووصفه بـ (العبقري الكاذب)! مع أنه بذاته يحمل فكرة جديدة، لكن الفرق بينهما أن المرمونية تبدو مفهومة مما نتج عنه انضمام أتباع لها، بينما فكرة الكاتب يمكن وصفها بمجموعة أفكار غريبة غير متفقة يحاول بصعوبة إلباسها دراء العقل والمنطق.

[1] - العلمولوجيا أو السينتولوجيا Scientology تشكل مجموعة من التعاليم الدينية والمعتقدات، تستند الى فلسفة علمانية تأسست عام 1952 من قبل المؤلف رون هوبارد L. Ron Hubbard من ثم أعاد نفس المؤلف صياغتها باعتبارها "فلسفة دينية تطبيقية".

/* يستطيع (الدين) الظهور للوجود تقريباً بين ليلة وضحاها.

هذا كلام لا تؤيده أحداث الأديان وتاريخها، فالمسيحية استغرقت أكثر من ثلاثة قرون لتصبح ديانة معترف بها، والبوذية والزرادشتية احتاجتا خمسة قرون لتنتشرا، والمانوية احتاجت قرنين. أما البهائية فلها من العمر اليوم قرن ونصف تقريباً. والدين الوحيد الذي يستثنى من ذلك هو الدين الاسلامي وذلك لاختلاف وسيلة النشر.

صفحة 205 /* اكتشف أحد الرحالة في جزر غرب المحيط الهادي أن السكان البدائيون المنقطعين عن العالم في ذلك الوقت، أنهم يؤمنون بفكرة مجيء المخلص في آخر الزمان، قال: (دافيد آتينبوروغ يقص علينا... عُلماء الانسان تمكنوا من ملاحظة عوارض لحالتين مختلفتين ظهرت في كاليدونيا الجديدة، أربعة جزر في بحر السالمون وأربعة في فيوجي وسبعة في هيبريد الجديدة وحوالي خمسين في غويانا الجديدة، الغالبية كانت مستقلة وليس هناك علاقة بين احداها والأخرى. غالبية تلك الأديان تتدعي بأن هناك مُخلصاً ما سيأتي بشُحنة في يوم القيامة الموعود).

من الغريب أن يمر الكاتب على هذه المعلومة مرور الكرام ولا يتناولها بالشرح والتفسير، حينما يجد فكرة "المخلص" منتشرة ليس فقط عند أمم الأديان العالمية بل حتى في الجزر البعيدة المنقطعة عن العالم الى وقت قريب، ولا يتساءل من أين لهؤلاء البدائيين مثل هذه الفكرة كما هو الحال عند بقية شعوب الأرض. أفلم يلحظ قوة رسوخ هذه الفكرة وسعة انتشارها في عقول البشر وأديانهم ومعتقداتهم منذ قدم التاريخ، ومن أين جاءت؟ إذا ليس من المعقول أن أن يؤخذ مثل هذا الانتشار العالمي بهذه البساطة الساذجة على إنها اختراع بشري، وحتى لو قلنا بذلك، فسيكون انتشارها محدوداً عند امة من الأمم وليس في جميع قارات الأرض حتى عند قبائل الهنود الحمر ناهيك عن شعوب أقدم الحضارات. ألا يدل ذلك على قوة غيبية داعمة لها مدتها بالاستمرارية والانتشار لعشرات الألوف من السنين؟

صفحة 209 /* الأخلاق بدون شك سبقت الأديان.. ربما كانت ناتج عرضي لشيء آخر.

سننتظر الى الفصل الذي سيناقش فيه هذه فكرة الأخلاق ونرى كيف سيثبت ذلك، مع أن كثير علماء الحضارات وعلماء الأديان يقولون أن أصل الأخلاق من الدين.

# الفصل السادس

## (منشأ الأخلاق: لماذا نحن صالحون)[1]

صفحة 211/* الكثير من المتدينين يجدون صعوبة في تصور كيف أنه يمكن للمرء أن يكون صالحًا بدون دين، أو حتى كيف يُمكن أن يريد أحد أن يكون ذلك بدونه.

قبل البدء بقراءة بقية هذا الفصل، سأقول جوابًا على هذا السؤال، ثم لنقرأ ما علق عليه من تعليلاته على سؤاله. لو عدنا الى قدم التاريخ، لن نجد آنذاك علماء أو مفكرين أو فلاسفة أو حرفيين أو صنّاع، بل كل ما سنراه هم مجموعات من البشر منتشرة في كل مكان يتصرفون بمستوى وحشي وبدائي يركضون خلف الطراد لا يعرفون معنى الاستقرار او الزراعة ليس لهم علم ولا أخلاق ولا قوانين اجتماعية، فلقد كانوا يعيشون في حالة من الفوضى تقارب في إسلوبها حالة الحيوانات تمامًا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يظن الكثيرون أن هؤلاء الوحوش من البشر تطورت تصرفاتهم نتيجة التفكير والتأمل وأوجدوا لهم نظمًا للحياة، فأوجدوا المجتمعات البدائية ثم بدأوا بترقية تصرفاتهم حسب متطلبات التعامل فيما بينهم. وهذا منظور خاطئ تمامًا، حيث ان العقل البشري يعجز عن استنباط أفكار مادية أو معنوية طالما لا يستعمل غير حواسه الخمس في التعامل مع واقع فوضوي خرب حيث لا يوجد سوى الحيوانات والوحوش والنباتات والغابات، وكان لزامًا على ذلك الانسان أن يقتات مثل بقية الحيوانات وينافسها في تحصيل غذائه، وقد بقي على هذه الحالة ملايين السنين قبل ظهور حالة الوعي والإدراك لديه وهي حالة معنوية خاصة بالعقل وليست من مكتسباته بل جاءته من اللامكان. في مثل تلك الظروف وجد علماء الآثار عند قدماء البشر النياندرتال نوعًا من الآثار الخاصة بالمعتقدات، مثل طريقة الدفن، حيث كان الأقدمون يدفنون موتاهم بطريقة منظمة ويمدون الأجساد باتجاهات معينة متشابهة ويضعون معهم أزهارًا وحبوبًا وشيء من الأدوات الحجرية الخاصة المتعلقة بالموتى؛ ووجدوا أيضا أن هناك نوعًا من التابوهات والطواطم والجماجم التي يبدو أنهم اعتنوا بها وقدموا لها شيء من التقديس حسب ما كانت تدل عليه آثارهم، وهذا يعني أن المعتقدات الدينية كانت موجودة عند أولئك البشر منذ أقدم الأزمنة، ولقد أكد كثير من علماء الآثار والأديان ذلك، وهذا أمر ثابت علميًا وتاريخيًا في أمهات كتب الحضارات. ومهما تعمق الباحثون الجيولوجيون في قراءة الآثار، بقيت الآثار الدينية تظهر وتتكشف بين اللقى والمطمورات، بحيث لم يصل علماء الآثار الى فترة زمنية تخلو من آثار الأديان أو المعتقدات، لذلك استدلوا أن الدين او المعتقد أمر قديم قدم وجود الانسان ولا توجد مرحلة زمانية تخلو من ذلك.

[1] - الصفحة 210

هنا نرجع لتفحص مميزات تلك الفترة حيث نجد أن الطوطم والتابو والكاهن والساحر والآلهة صنو ظاهر في جميع الحقب التاريخية، وهنا يعلم الجميع ما لهذه الشخصيات من دور في تعليم البشر مقومات أديانهم ومعتقداتهم، ولو عدما بالتاريخ قليلا لوجدنا المنجمون والعرافون، وهؤلاء كان لهم دور في قيادة الشعوب وتعليم الملوك الذين كانوا، يعتمدون في قيادتهم وقراراتهم على رأي ومشورة الكاهن والمنجم؛ نفهم من هذا إنه لم يكن هناك مدارس أو معلمين بالمعنى المعروف حالياً، إذا تذكرنا أن الكتابة هي اختراع حديث بالنسبة لعمر الانسان على الارض حيث لا يتجاوز زمن ظهورها أكثر من اثنى عشر ألف سنة على أقصى تقدير، وليبقى في الذهن أن انتشار الكتابة لم يحصل في أول ظهورها حيث بقيت من أسرار الكهنة ورجال الدين فترات طويلة لما لها من أهمية في تقوية جانب القادة في سيطرتهم على أتباعهم لدرجة أنها كانت محرمة على عامة الناس، بل قد نجد أن بعض قوانين الكهنة تقضي بقتل أي مواطن إذا ما أكتشف أنه قد تعلم القراءة والكتابة.

من هنا نفهم أن قيادة البشر منذ القدم كانت بيد رجال الدين من الكهنة والسحرة والمتنبئين والآباء والأجداد وغيرهم، وهذا ثابت تاريخياً، كما لا نجد في المقابل أثراً لاسم معلم أو مدرس أو فيلسوف في التاريخ القديم. من هذا ألا يستنتج ان بداية العلم والتعلّم ومختلف أنواع العلوم والقراة والكتابة قد بدأت من هؤلاء الشخصيات المرتبطة بالمعتقدات؟ إن جميع علماء الحضارات أجمعوا على ذلك، ولم يخالفهم إلا من يعارض عناداً الاعتراف بدور هؤلاء المتنبئين والكهنة في تعليم البشر من دون أدلة مادية أو علمية رغم أنهم يرفضون أي فكرة او رأي بدون الاستناد على العلم والتجارب المختبرية والحقلية.

وفي نفس الوقت لا ننسى ما لتأثير فكرة الفيلسوف إبن طفيل الأندلسي في قصته الشهيرة (حيّ بن يقظان) على الفكر الأوروبي حينما ترجمت في القرن الثاني عشر ميلادي، مما أوجدت فكرة شاعت بين الأوروبيين في إمكانية تعلم الانسان بنفسه دون الحاجة الى معلم ومن ثم يمكنه الوصول الى أعلى مدارج العلم والفلسفة إذا جد في ذلك ذاتياً، مع أن ابن طفيل نفسه قد درس الفلسفة والطب ممن سبقوه من العلماء وكان معاصراً لزمن فيلسوف آخر وهو ابن رشد وصديقا له.

من هنا وما شابه ذلك من أفكار طوباوية، تولدت فكرة قدرة الانسان على التعلم بنفسه. ومن هنا جاء التنكّر لدور الدين في تعليم مبادئ العلم الأولية، بل حتى قدماء السحرة الذين اشتهرت بهم تلك العصور القديمة، حصلوا على علومهم من الكهنة والآباء والقادة الأجداد، لأن السحر بمختلف درجاته هو نوع من انواع العلوم وبحاجة الى التفكير، والتفكير بحاجة الى مبادئ أولية للعلوم والمعارف، وهذا لم يكن له مصدر سوى الكهنة والمتنبئية الذي أخذوا علومهم من الآلهة الذين هم في حقيقتهم أنبياء تلك الأزمنة، لكن اصطلاح الآلهة كان اصطلاحاً قديما تغير فيما بعد وانتشر مع ظهور أنبياء بني اسرائيل في الديانة اليهودية.

وطالما ثبت ان العلم التجريبي كان مصدره رجال الدين وهؤلاء جاءوا به من الآلهة، فعلموا ذلك الإنسان الوحشي مبادئ التربية والأخلاق والترقي وكيفية إنشاء العائلة والقبيلة وكيف يحافظ على نفسه وجماعته، ثم تسلسلت هذه التعاليم البسيطة لتصبح عادات وتقاليد يحترمها الانسان ويحرم تجاوزها واختراقها من خلال مراقبة الآباء والأجداد لبقية أفراد مجتمعاتهم.

اما موضوع ان الانسان الملحد يملك أخلاقًا قد تتخطى أخلاق المتدين، ليستدل به على أن الدين ليس مصدر الأخلاق، فهذا كلام غير علمي ولا فلسفي بعدما زرعت مبادئ القيم الحسنة بين الناس طوال مئات الألوف من السنين وأدرك البشر ـ كل مجتمع حسب عاداته وتقاليده ـ ما هو المقبول وما هو المرفوض من التصرفات المختلفة داخل مجتمعاتهم.

ولكن يبقى أصل مصدر الأخلاق قد جاء من المعلمين الأوائل وهم الآلهات/الأنبياء ومن الكهنة من بعدهم.

يقول الفيلسوف ويل ديورانت:- (الدين دعامة الأخلاق بوسيلتين أساسيتين هما الأساطير والمحرمات؛ فالأساطير هي التي تخلق العقيدة فيما وراء الطبيعة، ثم يكون من شأن هذه العقيدة أن تضمن بقاء أنواع من السلوك يريد المجتمع "أو يريد الكاهن" بقاءها؛ فما يرجوه الفرد في السماء من ثواب وما يخشاه لديها من عقاب يضطره اضطرارًا أن يذعن للقيود التي يفرضها عليه سادته أو جماعته؛ فالإنسان ليس بطبعه مطيعًا رقيقًا طاهرًا وليس شيء كالخوف من الآلهة – وذلك بعد القهر الذي خضع له الفرد قديمًا فأنشأ في نفسه الضمير – أخضع الإنسان لهذه الفضائل التي لا تتفق وطبيعته إخضاعها مطردًا صامتًا؛ فأنظمة الملكية والزواج تتوقف إلى حد ما على العقوبات الدينية وهي تميل الى فقدان قوتها في العصور التي يسود فيها الشك الديني؛ بل الحكومة نفسها التي هي أهم اداة اجتماعية اصطنعها الانسان، وأبعد أداة عن طبيعة الانسان، كثيرا ما استعانت بالتقوى وبالكاهن).[1]

صفحة 212

/* يأتي ببعض الأمثلة من رسائل بعثت له من متعصبين دينيين ليثبت ان أهل الأديان يخفون حقدًا كبيرًا لا يظهر إلا إذا احتككت بمعتقداتهم.

صفخة 214

/* أننا سنعود للعدم بعد موتنا.

يرد على هذا الرأي البروفيسور مودي في كتابه "الحياة بعد الموات" من خلال تجارب واقعية لأناس أسوياء عاشوها بأنفسهم تجارب روحانية بعد أن أعلن الأطباء

[1] - قصة الحضارة المجلد الأول. صفحة 64.

موتهم. إضافة الى ان هندسة كل شيء من حولنا وبهذا الإبداع الإعجازي، لا يمكن تقبل فكرة صدور هذا الوجود المعقد جداً عن طريق الانتخاب الطبيعي، لأن الطبيعة لو تركت كما هي فلن ينتج عنها سوى الفوضى والخراب، كما هو الفرق بين البستان والغابة، والحكيم والجاهل.

صفحة 216

/* من أين يأتي هذا السامري (الذات الطيبة) المتأصل فينا؟

الانسان مخلوق روحاني في جسد مادي. الروح طبيعتها الرفعة والسمو فتتوافق معها صفات الأخلاق الطيبة والحسنات وتحث عليها. أما الجسد فطبيعته تتركب من مواد تربة الأرض، وهذا ما يدفع الجسد للتفاعل مع كل ما هو مادي، أي أن حالة الطبيعة تتمثل في كل ما يتعلق بجسد الانسان. لذلك فهو يأكل من قوت الطبيعة، ويرتاح وينام من عناء الطبيعة في حدود الطبيعة، ويتعامل مع الأشياء بما يتوافق مع مادة جسده بعالم الطبيعة، وكل ما تظهر علاماته في الطبيعة موجود في مادة الجسد البشري. فالرغبات الجسدية بتمامها تدفع الانسان الى أمه الطبيعة. وبهذا لو بقي الانسان متمسكا وباحثا عن رغباته الجسدية، فلن يختلف شيئًا عن الحيوان في بحثه عن طعامه وشرابه وجنسه.

لكن جزء الانسان الروحاني المتعلق بالخالق صفته السمو والعلو، فهو يبتغي الرقي للروح المرتبطة بجسده المادي، فالرغبات الجسدية تسحب الانسان الى الالتصاق بشؤون الطبيعة، أي بموجودات الأرض، بينما شأن الروح المحافظة على رقيها ورفعتها، لكن ما يمنعها عن ذلك أنها حبيسة الجسد فتتأثر برغباته المادية، وليس هناك سبيل للتحرر من سلطة الجسد الا بتبنيها مبادئ الأخلاق والقيم والصفات الحسنة، وهذه ليس مصدرها الطبيعة المادية إطلاقًا، فالطبيعة لا تقدم أخلاقًا حسنة أو صفات طيبة أو تعامل إنساني سامي، بل تدعو على الدوام للالتصاق بطبيعة التراب فتظهر صفات حيوانية مثل الحرص والحسد والجشع وكل ما يشبع متطلبات حواس الجسد. لهذا كان مصدر الترقي الروحي هو شأن صادر من خارج حدود مكونات الطبيعة المادية، مصدر لا يمت للطبيعة في شيء ولا بأي صلة، وليس هناك في الوجود أمر لا علاقة له بالطبيعة المادية إلا المعنويات والغيبيات والأخلاق التي مصدرها من عند الله عن طريق رسله وأنبياءه. ولأن قوة جاذبية مادية الجسد للتمثل بها شديدة وعنيفة، ولأن قوة الجذب الروحاني معنوية ضعيفة التأثير على النفس البشرية، لذلك يعاني الانسان المؤمن من محاولاته في البقاء على درجة الايمان والنزاهة والصدق والرحمة والصفات الحسنة، وفي نفس الوقت يبقى شاعراً برغبات الجسد المادية. فالروح تحاول رفعته وتسعى للسمو، والجسد يحاول سحبه الى رغباته المادية، فيبقى الانسان تتجاذبه هذه القوتان. إما إذا قرر عدم الاهتمام بالأخلاق والروحانيات، وظن أنها مجرد مشاعر جسدية آنية، فلن يعاني من هذا التجاذب وسيستسيغ مجاراة رغباته الجسدية حيث أن قوة الروح لديه قد قاربت على الاستسلام. لذلك لا غرابة عندما لا يشعر بقوة روحيه داخله، ويستنكر بسهولة كل ما يتعلق بها من روحانيات ويبقى ينحدر في هذه المشاعر المادية حتى يصبح مادياً كما هو حال بقية المخلوقات الدنيا.

فهذا الانسان الطيب "السامري" الموجود في نفس الانسان قد جاء ووجد من مخزون تربية روحية دامت منذ ان وجد على الأرض وعانى على تربيته جميع الآلهات والطواطم والتابوهات والكهنة والأنبياء ورسل الله ليحرروه من ربقة عبودية رغبات الجسد، إنها طبيعة الجسد التي لا إنفكاك لها حيث تبقى تحاول سحب الانسان الى مستويات دانية وتبقى معه حتى حافة القبر، والسبب إنه التصميم الثنائي في خلقه الانسان (الروح والجسد)، وهذا ما يطلق عليه في التعابير الدينية (اختبارات إلهية)، فالهدف منه مكافئة من يقوم على مقاومة رغبات الجسد، حيث يدعوها البعض (شيطان او إبليس)، إنما هي في حقيقتها رغبات مادة الجسد، فالاستجابة لها مخالفة لسمات الروح السامية التي هي خلقة إلهية تنفر من رغبات الجسد، وبالتالي تكون هناك مكافأة إلهية لمن يتمكن من تحييد رغبات جسده ويسمو بأخلاقه وأفعاله الى ما يدعو له الأنبياء والرسل.

ليس من السهل محاولة إقناع الملحد بفكرة الله وأنه أوجد هذا النظام الطبيعي وأوجد فكرة (الانتخاب الطبيعي) التي يقول "دوكنز" بها، ولا يمكن إقناع من يبحث عن غير الله سبباً، فهو يريد التخلص من هذه الفكرة بأي وسيلة ممكنة ويتشبث بأي عذر للابتعاد عنها بعدما شاهد نتائج الفكر العقائدي من خراب ودمار وتأخر أمام قوة العلم ومنتجاته ومخترعاته، وفي المقابل ضعف الفكر الديني القديم وإنزواءه عن ساحات التنافس العلمي. فمن الطبيعي أن يعلو صوت الملحد في إغتنام هذه الفرصة المؤقتة وسيعلو أكثر كلما أضاف العلم اختراعا جديداً، لكنه صدى يعتمد في أساس وجوده على ضعف الجانب الديني وليس على حقيقة مؤكدة، إن القول بتطور الموجودات طبيعياً هو أمر صحيح، فكل ما مشهود يتطور وينتخب من الطبيعة ما يطوره ويقويه ويمد في عمره من ذرات وأجزاء ووحدات مادية، فهذا ليس تطور فوضوي إنما هو تطور بدرجات مدروسة منظمة لا يعقل إنبعاثها ذاتياً من تفكير مسبق للأشياء، حيث لم يثبت ولا يعقل إن تركت شجرة التين لمليون سنة أن نجدها قد تغيرت الى شجرة برتقال، ولا يعقل أن تترك خشبة أو حجر لملايين السنين ثم تتحول بفعل الانتخاب الطبيعي الى سلحفاة أو بقرة، بل سيبقى كل شيء على حاله. لكن قد يصح القول بالتطور على ما سبق وحصل في بداية وجود الأرض، حيث لم يكن هناك لا شجرة تين ولا بقر ولا حتى إنسان. وبهذا تصح نظرية (الانتخاب الطبيعي) في هذه الحالة ويمكن أن تغيرت أشكال الأنواع بعد مرور ملايين السنين؟

سبق وجئنا على ذلك حينما ذكرنا أن التقدير الإلهي في تكوين تربة الأرض كان انتخاباً مقدراً حيث لا يمكن لعقل بشر أن يتصور حجم الكون ولا حجم ما فيه من أنواع الصخور والأتربة، كما لا يمكن تصور درجات الحرارة والبرودة وسرعة حرجة السديم ومجريات التفاعلات الكيمياوية التي حدثت بالنسبة لكرة الأرض، وقلنا أنه كان مقدراً لأتربة سديم كوكب الأرض أن يتفاعل كيمياوياً بفعل حرارة الشمس وحرارة التراب والحركة، فيولد أو يكثف ما فيه من غازات الى مياه إضافة الى تأثير الحركة المستمرة في الخلط والتمازج مما أنتج عنه الموجودات الحيّة، وكل ذلك كان بتقدير مقدر وبنفحة روحية خلاقة في الأشياء التي أظهرت الحركة وبعثت فيها الأرواح. لقد كانت عملية كيمياوية مقدرة

الحدوث لمرة واحدة حتى تظهر الموجودات والمخلوقات ولن تتكرر، وهذا يعني أن عملية الخلق كانت وانتهى زمنها، وبهذا ففكرة الانتخاب الطبيعي في التطور قد تكون صحيحة حتى في طريقة تجمع سديم كوكب الأرض وفي بداية تجمعه، لكن ذلك التطور الطبيعي انتهى عند أداء دوره ولن يتكرر فلقد نفدت قوته الكيمياوية ولم تعد صالحة للتفاعل مرة أخرى، أي قد أد مسببات الوجود دورها وأنتهى، مثلها مثل كمية مادة كيمياوية استعملت في مختبر فانتجت المطلوب وتغيرت خواصها فلم تعد تصلح لأغراض أخرى، كما هو الحال مع أي مادة ويتعامل معها مختبريًا فتتبدل خواصها حال الانتهاء منها.

صفحة 216

/* إن الطريقة البديهية للمورثات لضمان "أنانيتها" البقائية في علاقتها مع المورثات الأخرى هو أن تُبرمج الكائنات لتكون أنانية. وهناك بالطبع العديد من الظروف التي يقتضي فيها بقاء الكائنات من أجل بقاء المورثات التي تملكها.

وهذه فكرة صحيحة لو فكرنا بها منذ أول الإيجاد، فالموجودات في بداية ظهورها قد استعملت صفة الأنانية في تحسين نوعها وتطوير ذاتها والعمل على انتاج تفرعات وأجناس مختلفة أخرى، لأن عملية الخلق كانت مستمرة طويلة الآماد ولم تقتصر على ظهور النبات من التربة فقط، بل الى تطوير أنواعها بفعل عملية تطور التفاعل فيما بين الموجودات واستمراريته، فكان أن ظهرت انواع أخرى من النباتات والحيوانات ليس من بعضها البعض فقط، فهذا نوع من التطور، ولكن أيضا ظهر الاختلاف بين الأجناس من أصل تفاعل ذرات التربة، أي ان الإيجاد كان في الأصل من تفاعل ذرات التربة الذي أظهر الكائنات الرئيسة الأولى ومن هذه التفرعات ومن أصل تفاعل ذرات التربة استمرت حالة الإيجاد على نمطين، الأول استمرار التربة في إعطاء مزيد من المخلوقات النباتية والحيوانية، وفي نفس الوقت كانت هذه المخلوقات الأولية تقدم أنواعًا جديدة من المخلوقات المشابهة من ذات الأصناف، فكانت عملية الخلق مستمرة من خلق الخلق الأساس ومن خلال المجموعة المتخلقة الأولى. لكن كل ذلك كان بفعل برنامج منظم من خبير عليم بالنتائج المرتبة مسبقًا وليس بالتطور والانتخاب الطبيعي التصادفي، فأمر التصادف وتعقّل الأشياء لذاتيتها لإيجاد أصناف مخلوقات جديدة بفعل التوافق التصادفي العبثي أمر محال يرفضه كل من ملَّت نفسه وعفّت من فكرة المعتقدات والأديان بعدما أصبحت صورتها سيئة بسبب تصرفات أتباعها ورجال أديانها الى درجة الكراهية المطلقة للدين ولأتباعه ولذات الله تعالى، مما دفع بالكارهين الى استعمال عقولهم في التفكير لإيجاد وسيلة أو فكرة مهما كانت غير علمية لتؤيد كراهيتهم للدين.

صفحة 217

/* الإيثار المتبادل او المتعايشات.

يحاول المؤلف إسناد فكرة التطور الطبيعي حيث اعتمد فيها على فكرة الإيجاد الذاتي للموجودات لتقوية فكرته بفكرة (الإيثار المتبادل)، أي وكما يطلق عليه علماء

الطبيعية التعاون بين الموجودات من أجل البقاء. حيث يجيّرها "دوكنز" لصالح فكرته. لكنه من المعلوم أن حقيقة تعاون الموجودات قد ظهر بسبب مشاعر الأنانية التي تملكها الموجودات في محاولتها للبقاء على قيد الحياة واستمرارية وجودها. إلا أنه هناك تفسير علمي آخر لا يخرج عن نطاق ترتيب الموجد الأعلى وتنظيمه. فهذه الحالة من التعايش بين الموجودات قد ظهرت من أصل واحد، أي من تربة معدة أساساً للتعاون والاستفادة من غيرها من أجل البقاء. فروح المحبة للوجود قد أوجدت روح التعاون بين الموجودات، فكل كائن يعتمد في وجوده على وجود كائن آخر، حتى عملية افتراس النباتات والحيوانات لبعضها البعض، إنما هي خلقة صميمية تعاونية طبيعية في أصل عملية الإيجاد والوجود، فمنذ بداية ظهور الكائنات وهي تتغذي على بعضها، إنها مسألة طبيعية للبقاء ولا يمكن اعتبارها نوعاً من العداء والكراهية بين المخلوقات. فالحيوانات والنباتات لا تكره بعضها بعضاً، بل تدرك بالغريزة أن متطلبات الجسد المادي تدفعه لتناول ما موجود من بقية الكائنات. إنها خلقة أصيلة طبيعية تعكس نظام التعاون بين المخلوقات ولا علاقة له بمشاعر العداء والكراهية، فالصفات المذمومة تظهر نتيجة الابتعاد عن النظام الطبيعي في أصل الخلقة وهي "المحبة والتجاذب"، محبة كل شيء لكل شيء، ومتى ما فقد قانون المحبة، ظهرت بدلاً عنها صفة العداء والكراهية وبالتالي دوافعها وأفعالها، فلا يمكن نسبة فتك وقتل الحيوانات لبعضها على أنه نوع من العداء، بل هو نوع من التعاون من أجل البقاء، بينما في المقابل نجد صفات العداء والكراهية عند الانسان بسبب تفسيره الخاطيء لتصرفات الحيوانات واعتبارها تصرفاً طبيعياً للموجودات لا غرابة في اقتباسه والتعامل به بين بني الانسان. إن دافع قتل الحيوانات لبعضها امر يدخل ضمن النظام الطبيعي لذلك العالم الحيواني، بينما أمر قتل الانسان للانسان يدخل في باب التردي والانحطاط نحو المستوى الحيواني بعدما حاول التشبه بما هو أدنى منه في الخُلق. والجدير بصفة (الإيثار المتبادل) التي يقول بها المؤلف أن تظهر على الانسان في التعاون على المحافظة على موجودات الطبيعة والمحافظة على وجود بني البشر، فبمجرد تبني فكرة المادية بشكلها المجرد في عملية تمشية النظام الطبيعي، سيؤدي حتما الى الاعتقاد بوجود نظام الكراهية والعداء كأمر طبيعي لا يمكن تجنبه، وبالتالي سيكون حجة للأشرار في تبرير أفعالهم الشريرة، كما سبق وشاهدنا في أفعال كبار عتاة القادة من مجرمي التاريخ حينما فضلوا طبقتهم او شعوبهم أو جنسهم او نوعهم على غيرهم من بقية بني البشر وبالتالي برروا عمليات الإبادة والقتل الجماعي، فما كان ذلك إلا لاستنادهم على فكرة "الانتخاب الطبيعي" وضرورة العمل بقانون البقاء للأفضل والأقوى. وهذا قانون طبيعي بمستوى حيواني لا يمكن نسبته الى قانون المحبة والتعاون الطبيعي الذي أوجد كل هذه الكائنات والوجود الكوني.

وبالمناسبة نورد نصاً لعبد البهاء عباس، يشير فيه الى دور المحبة والاتحاد في هذا الوجود المترامي، قال:- (..»اعْلَمْ حَقَّ اليَقِين أَنَّ المَحَبَّةَ سِرُّ البَعْثِ الإِلَهِيِّ وَالمَحَبَّةَ هِيَ التَّجَلِّي الرَّحْمَانِيِّ. المَحَبَّةُ هِي الفَيْضُ الرَّوْحَانِيُّ. المَحَبَّةُ هِيَ النُّورُ المَلَكُوتِيُّ. المَحَبَّةُ هِيَ نَفَثَاتُ الرُّوحِ القُدُسِ فِي الرُّوحِ الإِنْسانَيِّ. المَحَبَّةُ هِيَ سَبَبُ ظُهُور الحَقِّ فِي العَالَمِ

الإمْكانِيِّ. المَحَبَّةُ هِي الرَّوَابِطُ الضَّرُورِيَّةُ المُنْبَعِثَةُ مِنْ حَقَائِقِ الأَشْيَاءِ بِإِيجادٍ إِلهِيٍّ. المَحَبَّةُ هِيَ وَسِيلَةُ السَّعَادَةِ الكُبْرى فِي العَالَمِ الرَّوْحانِيِّ وَالجِسْمانِيِّ. المَحَبَّةُ هِيَ نُورٌ يُهْتَدى بِهِ فِي الغَياهِبِ الظَّلْمَانِيِّ. المَحَبَّةُ هي الرَّابِطَةُ بَيْنَ الحَقِّ وَالخَلْقِ فِي العالَمِ الوجْدَانِيِّ. المَحَبَّةُ هِيَ سَبَبُ التَّرَقِّي لِكُلِّ إِنْسانٍ نَوْرَانِيّ. المَحَبَّةُ هِيَ النَّامُوسُ الأَعْظَمُ فِي هذا الكَوْنِ العَظِيمِ الإِلهِيِّ. المَحَبَّةُ هِيَ النِّظَامُ الوَحِيدُ بَيْنَ الجَواهِرِ الفَرْدِيَّةِ بِالتَّرْكِيبِ وَالتَّدْبِيرِ فِي التَّحَقُّقِ المَادِّيِّ. المَحَبَّةُ هِيَ القُوَّةُ الكُلِّيَّةُ المِغْنَاطِيسِيَّةُ بَيْنَ هذِهِ السَّيَّاراتِ وَالنُّجُومِ السَّاطِعَةِ فِي الأَوْجِ العَالِي. المَحَبَّةُ هِيَ سَبَبُ انْكِشَافَاتِ الأَسْرارِ المُودَعَةِ فِي الكَوْنِ بِفِكْرٍ ثَاقِبٍ غَيْرِ مُتَنَاهِي. المَحَبَّةُ هِيَ رُوحُ الحَياةِ لِجَسْمِ الكَوْنِ المُتَناهِي. المَحَبَّةُ هِيَ سَبَبُ تَمَدُّنُ الأُمَمِ فِي هذا الحَياةِ الفانِي. المَحَبَّةُ هِيَ الشَّرَفُ الأَعْلَى لِكُلِّ شَعْبٍ مُتَعالِي. وإِذا وَفَّقَ اللّٰهُ قَوْمًا بِها يُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ مَلإِ الأَعْلى وَمَلائِكَةُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ مَلَكُوتِ الأَبْهى وَإِذا خَلَتْ قُلُوبُ قَوْمٍ مِنْ هذهِ السُّنُوحاتِ الرَّحْمَانِيَّةِ، المَحَبَّةِ الإِلهِيَّةِ، سَقَطُوا فِي أَسْفَلِ دَرَكٍ مِنْ الهَلاكِ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ الضَّلالِ وَوَقَعُوا فِي وَهْدَةِ الخَيْبَةِ وَلَيْسَ لَهُمْ خِلالٌ. أُولئِكَ كَالحَشَراتِ العَائِشَةِ فِي أَسْفَلِ الطَّبَقَاتِ. يا أَحِبَّاءَ اللّٰهِ كُونُوا مَظَاهِرَ مَحَبَّةِ اللّٰهِ وَمَصَابِيحَ الهُدى فِي الآفَاقِ، مُشْرِقِينَ بِنُورِ المَحَبَّةِ وَالوِفَاقِ، وَنِعْمَ الإِشْراقُ هذا الإِشْراقُ..».

صفحة 218

/* وبما أنه سيكون هناك غش بشكل دائم، فإن....

صفحة 220

/* معظم الوقت فيما قبل التاريخ عاش الانسان في ظروف تقتضي تفضيل مناحي الإيثار الأربعة المذكورة من أجل التطور.

قبل صفحتين فقط في تقديمة لفكرة الإيثار ذكر طبيعة مخالفة جداً لهذا المبدأ في نفسية البشر (وبما أنه سيكون هناك غش بشكل دائم)، ثم عاد ليمتدح مَلَكة الإيثار وما كان منها في سبيل تطور الانسان القديم. ومن المعلوم أن صفات الانسان السيئة ظهرت حينما تطورت مجتمعات البشر وعرف الانسان مفهوم التملك حينما انتقل من مرحلة الصيد والقنص الى مرحلة الزراعة والاستقرار وبات يعرف قيمة ما يساعده في ضمان قوت غده. نعود لأصل نفسية الإنسان في مبدأه وحتى اليوم وما يتعلق بحاجاته الجسدية ومنافعها ورغباته في تلبيتها، فلقد ظهرت هذه الرغبات مع أول ظهور الانسان باعتباره مخلوق غير واعي وكان جلَّ إهتمامه بتلبية حاجات جسده، فليس من المعقول ولا من المنطقي أن يؤثر غيره على نفسه، حيث كان يأكل أبناء جنسه الى وقت قريب حينما تشتد به حاجته للطعام، (ثم أضاف الانسان الى صنوف الطعام صنفاً آخر كان ألذها وأشهاها، وهو زميله الانسان، ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يومها شائعاً بين الناس جميعا، فقد وجدناه في كل القبائل البدائية تقريباً، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخياً مثل سكان إيرلندة وإيبريا وجماعة البكت، بل بين أهل الدانماركه في القرن الحادي عشر...

كان اللحم البشري من لوازم العيش بين قبائل كثيرة ولم يكن الناس يعرفون الجنائز).[1] كما إن رغبة الانسان في التملك والاستحواذ على كل ما يغريه من متطلبات الحياة ما زالت قوة فاعلة في نفسيته، أما مسألة الإيثار فلا تجدها إلا عند من زهد الحياة الدنيا وأدرك أنها الى زوال، أما الانسان المادي فهو حريص على التنافس والتسابق لمنفعته الشخصية؛ لذلك لا يعقل ان الانسان البدائي الهمجي كان يملك مَلَكة الإيثار وهو في بداية طبيعته المادية حريص على تلبية رغباته الجسدية، لأن هذه فكرة معنوية وليست فكرة مادية، أي هي من الأفكار وليست من المحسوسات وهي مَلَكة سامية لا تجود بها صفات الطبيعة الجسدية، فحاجة الطعام والجنس من أقوى حاجات الجسد، وبالتالي تجبر الانسان على تلبيتها، لذلك كان الله يبعث الرسل والأنبياء للتغلب وكبح جماح هذه الرغبات المادية ليسمو بمخلوقه المفضل ويرفع من شأنه الأخلاقي والروحاني حتى يصل الى ما هو مخطط له في البرنامج الإلهي طويل الأمد؛ فالله هو الخالق وهو العالم أن تطبيق البرنامج الروحاني سيكون طويل الأمد ويحاجة الى ملايين السنين ليترسخ في نفسية هذا الانسان حتى يمتاز عن بقية الحيوانات. ومثل هذه الأفكار المادية قصيرة الأعمار نسبيا، ما زالت تتفاعل داخل النفس البشرية حتى اليوم، إلا ان الوجود البشري على الأرض لم يصل الى نهايته ولم تظهر ثمرة وجوده وما زال هناك بلايين السنين لتفاعل حالات التطور الأخلاقي والمعنوي ليرقى الى مستويات ملائكية. فتقديم مثل هذا الأفكار المحبطة في مجمل كتابه والسعي على إثباتها بكل الوسائل العلمية والنفسية والتاريخية والمادية، إنما جاءت مشوهة ممسوخة حاول المؤلف جاهداً ترتيب أحجار دومينو أفكاره مختلفة الأشكال والأحجام لترتيب هرم بارز جالب للنظر على قاعدة غير مستوية وسطح مهتز قلق، فلم يفلح. إن القول بأن الانسان في قديم الزمان كان يمتلك صفة الإيثار هو نوع من ضروب الخيال، فمثل هذه الصفة الحميدة لا يمتلكها حتى "هو" حينما حاول جلب الأنظار والشهرة اليه على أساس واه معتمداً على مستواه العلمي وعلى المستوى الثقافي والعلمي العام للبشر. إنه يمرر ماءً ملوثاً من تحت اكوام قش الجهالة ويركب لوحاً على أعلى أمواج الفكر المادي المنتشر اليوم. وعندما يقول: (لماذا كان أسلافنا جيدين بالنسبة لمجموعاتهم) فهذه تمريرة مدسوسة من تحت الطاولة، وهو أمر مخالف تماما للطبيعة البدائية والحضارية للبشر خلال الزمن القديم، فالرغبات الجسدية طالما تحفز حتى المؤمن على تبني فكرة المادية والسعي لتلبية رغبة التملك الشخصية ولم يكن هناك في يوم من الأيام ان كان إنسان الغاب او البدائي او الهمجي على هذه النحو من الإيثار والأخلاق العالية إطلاقاً. إن طبائع الانسان البدائي مماثلة للطفل في بداية حياته، فهو لا يعرف أي معنى للإيثار بدليل أنه يتقبل مشاركته ثدي أمه أو سلبه لهايته (مصاصته)، ويستعمل البكاء أداته الوحيدة في التعبير عن الاعتراض مطالباً باستعادتها ورفضه للدخيل عند التقرب من ثدي أمه.

أما أن نجد أشخاصاً او مجموعات في هذا الوقت تأخذ بمبدأ الإيثار وتفضل مساعدة الآخرين وتسعى جاهدة لمواساتهم، فما أصل ذلك إلا بسبب تلك القرون والأعصار الطويلة من التعاليم الروحية المخالفة للرغبات الجسدية التي جاهد الأنبياء على ترسيخها في

[1] - قصة الحضارة. ويل ديورانت. المجلد الأول. صفحة 11.

قلوب وعقول ونفوس البشر، فكان لا بد لهذا الجهد الجهيد من أثر وثمر يطفو على السطح في يوم من الأيام، وها هو "دوكنز" يحاول تجيير هذه النتائج الطيبة لصالح فكرته ونسبتها الى الرغبات الجسدية، فما فعله ويفعله الأخيار من أعمال لمنفعة وصالح الآخرين ويؤثرون الناس على أنفسهم ولو بهم خصاصة، إنما هي ثمار تلك التعاليم الروحانية الإلهية المستمدة أصلاً من تعاليم الأنبياء وليست نتيجة رغبات جسدية مادية داخلية.

صفحة 221

/* الانتخاب الطبيعي في زمن الأسلاف عندما كنا نعيش في مجموعات جوالة كالبابون، برمج في عقولنا الميول الإيثارية الى جانب الجنسية والجوع والخوف من الأجنبي..الخ. إن الرغبة الجنسية هي رغبة جنسية في النفس.

نلاحظ هنا الخلط الفضيع بين متطلبات حواس الجسد وملَكات النفس او الروح، فالجنس والجوع متطلبات جسدية مادية، بينما الخوف هو مسألة معنوية. أما أن يُظن ان الانسان الهمجي أو البدائي كان يخاف من الأجنبي حال رؤيته، فهذا أمر ظني على أكثر تقدير، فلو كان الأمر كذلك لما بقي إنسان على ظهر الأرض ولتقاتل كل متقابلان، فلا بد وان كان هناك نوعاً من الاختبارات البدائية بين البشر حين التقابل، مما أوجد في النهاية حالة التجمعات البشرية إضافة الى الحالة الاقتصادية البدائية، ولا يمكن الافتراض أن الوحشية التامة المدمرة كانت هي الصفة العامة للبشر. كما أن الظن ان الانسان الأول كان يشعر بالخوف من غيره او من الموجودات الأخرى، فهي حالة لا تنطبق على الانسان الطفل، فهو يتقرب من كل الأخطار دون تردد لأنه لم يكن يملك قوة الوعي والإدراك، وهذه الحالة نرى بعض اشكالها عند البدائيين، فلو كان الأمر كما يدعي البعض من علماء النفس المعاصرين، لما استطاع مستكشف أو عالم من رواد علم الانثروبولوجيا التقرب من مجاميع القبائل البدائية في أول زمن اكتشاف وجودهم ولما وصلنا عنهم وعن اخبارهم شيئاً.

/* ثم يزيد في الخلط المبهم، وكأنه يقف في مطبخ ويقدم اقتراحاته في تنسيق مائدة طعام، حيث يقول: (وانا أقترح هنا أن الحاجة والدافع هو نفسه بالنسبة للّطف والطيبة والإيثار والكرم والتعاطف والرأفة.)!

إن جميع ما ذكره من صفات حسنة تقع تحت عنوان المعنويات وليس الماديات، فطالما لا يمكن استعمال حواس الجسد في التعامل مع هذه الملكات، فهي في حقيقتها معنوية نفسية او روحانية، فلا يمكن رؤية او لمس اللّطف والطيبة والإيثار والكرم والتعاطف والرأفة، إلا حين ترجمتها الى أفعال، إذ من المستحيل رؤية هذه السمات بمجرد النظر أو لمس الشخص المقابل. وإن القول بضم هذه السمات الى الصفات الجسدية لهو خطأ كبير فادح غايته الحقيقية تمرير أفكاره.

صفحة 223

/* لو أن ميولنا الأخلاقية مثلها مثل ميولنا الجنسية متجذرة فينا بسبب ماضينا الدارويني قبل دخول الأديان على الساحة، فعلينا أن نتوقع أن البحث في العقل الإنساني سوف يرينا بعض الأخلاق عالمية وليس لها حدود جغرافية او ثقافية، وكذلك، بلا حدود دينية.

بعدما خلط الرغبات الجسدية مع الملكات النفسية والمعنوية واعتبر إلإثنان رغبات جسدية، وهذا امر مرفوض ليس عند علماء النفس والطب فحسب، بل حتى عند بسطاء الناس، راح يقدم ما عنده من أفكار مفترضًا وقوفها على قاعدة ثابتة وهي في حقيقتها تقف على قاعدة هشّة بل لا قاعدة تقف عليها. فحينما يفترض زمانًا لا وجود للدين فيه، فهذا أمر لا يؤيده علماء الأجناس أو علماء الحضارات، حيث أثبتت آثار البشر وجود عامل الدين عند أقدم المجموعات البشرية، ومهما تعمق العلم في بحثه، لم يصل الى مرحلة زمنية خلت من وجود الأديان حتى ولو على شاكلتها الطوطمية او التابوهية. وبعدما افترض جزافًا أن هناك زمن لم تكن للأديان فيه وجود، حاول تمرير فكرته في ان الأخلاق موجودة قبل الأديان ـ باعتبارها حسب قوله مرتبطة بوجود الجسد وليس النفس ـ حسب مغالطته الواضحة. فطالما أثبت علم الآثار وعلم الانسان وجود الأثر الديني في جميع ما تم العثور عليه من آثار الانسان القديم، إذن لا يمكن له الافتراض أنه قد مرّ زمن على البشرية لم يكن فيه دين، وبالتالي ـ وحسب فرضيته ـ كانت توجد الأخلاق.

لو علمنا أن الانسان لا يمكنه الخروج عن حالته الجسدية الحيوانية إلا بالتعليم، وهذا التعليم لا يأتي من إنسان آخر بذات الصفات إذ يستحيل عليه ذلك لتساوي المستويين، لأدركنا دور الآلهة والطواطم والأنبياء في تربية البشرة ودورها في زراعة مبادئ المثل والأخلاق في النفس الإنسانية، فالانسان في قديم التاريخ لم يملك إلا صفات طفل، وهذا لا يمكن أن يحسن تصرفاته ويسمو بأخلاقه إلا بالتعليم، والتعليم بحاجة الى معلم من مستوى أعلى، وهذا العلى غير موجود بين عموم البشر، وبالتالي لا يوجد سبيل لوصل هاتين الحلقتين إلا بقبول فكرة وجود معلم بصورة بشر يملك روحًا غير بشرية تمكن هو وغيره الآلاف على مر الزمان من تعليم هذا الانسان الذي لا يستطيع تعليم نفسه. وطالما كان للبشر حضارات ـ مهما كانت نسبة تقدمها وأينما وجدت ـ فهذا يعني أنهم كانوا تحت رعاية وتعليم معلم سماوي. وبهذا لا يمكن تخيل فترة زمانية مهما كانت قديمة في أعماق التاريخ تخلو من التعاليم الدينية ووجود الآلهات. ولهذا السبب يظن بعض المفكرين ـ مثل صاحب الكتاب ـ أن انتشار الأخلاق والثقافات عند القدماء قد جاء من أصل بشري، ودليلهم في ذلك ان الأخلاق موجود عند مختلف الشعوب الحديثة والقديمة وحتى البدائية، وطالما أن هناك أزمان لم يكن فيها أديان، فهذا يعني أن مبادئ المثل والأخلاق منشؤها الانسان. وهذا افتراض مخالف لطبيعة الانسان الجسدية والفكرية. وعند القول ان الطبيعة هي التي صممت (الصح والخطأ)، فالطبيعة لا تملك إلا المحسوسات المادية، فلا يمكنها التدخل في عالم المعنويات ولا في عالم الروحانيات وبالتالي يكون لها القدرة على تمييز الصح من الخطأ.

في الحقيقة هذا ما إبتغاه المؤلف حينما صنّف وبوّب الملكات المعنوية تحت باب الماديات الجسدية وهذا هو هدفه الذي يرمي اليه، فالغرض الحقيقي كان الإيحاء بعدم ضرورة الأديان، وإنها ـ حسب تعبيره ـ حالة عارضة وبالتالي الانتقال لمرحلة تالية لنفي وجود خالق. لكن مثل هذا الخلط الفاشل لا أظنه يمر تحت أعين الحكماء دون الانتباه للزيف المطلي بمكر العلم.

صفحة 228

/* هل نحتاج حقيقة لأن نكون تحت مراقبة الله أو بعضنا البعض كي نتوقف عن الأنانية والسلوك الإجرامي؟

نبع مثل هذا التساؤل من واقع خلفيات الأديان القديمة، فرجال أديانها هم من نشروا هذا النوع من التفكير، رغم أن كثير من فلاسفتهم قالوا بعكس ذلك، إلا أنه ونتيجة لقانون الولادة والفناء، فإن الأفكار الجيدة لها مرحلة زمنية للإنتشار لكنه لا بد لها وان تختفي ويظهر بدلها زَبَدها فيسود الردئ والهابط منها. وهنا بنى المؤلف سؤاله على ما شاهده من تردي اوضاع الأفكار الدينية فحاول استغلال ذلك لدعم فكرته. إن شأن الأديان بالدرجة الأولى لتربية البشر حتى يؤسسوا مجتمعات تسودها المبادئ الصالحة وبالتالي يعيشون في حالة نسبية من الإطمئنان والسلام. أما مسألة عبادة الله فكم هي النصائح الدينية القائلة إن الله لن يزيد من ملكه وشأنه مقدار قطميرٍ لو عبده جميع البشر من الأول الذي لا أول له الى الآخر الذي لا آخر له. فأصل الدين وهدفه هو وضع قانون وضعي اجتماعي للبشر لأن طبع الانسان في أصله يميل الى الماديات مثل بقية الحيوانات، لذلك لن يفكر الانسان في خلق مجتمع منظم تحكمه القوانين بسبب استمرار مرحلة طفولتيه، وبهذا كان الدين هو مصدر أولى مبادئ القوانين التي اختلطت في صميمها مع القوانين الأخلاقية، مع أن شرائع الأديان كانت تتغير دائماً لتلائم ظروف أحوال المجتمع واختلاف الزمان وتحفز نفوس البشر على الأخذ بالجديد من مبادئها للتقدم.

ولما كان الانسان (حيواني الطباع) في الأصل لتعلقه بمتطلبات جسده المادي، كان لا بد من وجود قانونين اثنين، قانون سماوي وقانون وضعي بشري (وهذا موجود في جميع شرائع الأديان)، فللحفاظ على كتلة المجتمع من التشرذم والتفتت والحد من سيادة الجريمة والظلم، كان لا بد من قانون يكمن في نفس الانسان بأن هناك من يراقبة ويحسب عليه نتائج أعماله، ولقد كان هذا القانون فعال ومهم جداً وله تأثيرات لا يراها المكابرون، فكم من جريمة وعمل سيء بين شعوب الأرض على مر التاريخ تراجع الانسان عن ارتكابه بسبب اعتقاده بحساب الآخرة وعقاب الله، اعتقد أنه لا يمكن تعداد ذلك. وفي المقابل كم هناك من لم يتأثر بمخافة الله ولم يثنه ذلك على ارتكاب الجرائم بحق غيره، وهؤلاء لن يفلح معهم ولن يوقفهم إلا القانون الوضعي الموكل الى شريعة قانون المجتمع في أي زمن كان.

إن طبيعة الأنانية التي سبق وتكلم عنها المؤلف ونسب جوهرها الى الرغبات المادية الجسدية، وإنها دائمة النشاط تحث كل إنسان على إشباعها وقد يتخذ كافة السبل المشروعة لاشباعها، هي الدافع الحقيقي الذي بحاجة الى إيجاد شرطيين يراقبان الانسان، شرطي الأخلاق داخل النفس، وشرطي القانون داخل المجتمع.

أما لو قلنا إن الانسان ليس بحاجة الى مراقب كي يستوي تصرفه، فمبدأ ذلك ان نترك الأطفال أحراراً دون تربية وتعليم أو توجيه لأنه لا فائدة من ذلك وهو مضيعة للجهد والمال والوقت، لأن الطفل سيكون صالحاً مؤدباً حال كبره. وهذا منطق غاية في العوج علينا الحذر منه.

إن فكرة مراقبة الله للانسان، في أصلها في البدء كانت فكرة سليمة، حيث شعر ذلك البدائي بوجود محاسب له على أفعاله وسيعاقبه عليها، وكان من نتائجها مجتمعات عاشت مسالمة في قديم الزمان حتى بين القبائل البدائية، ومن خلال ذلك نمت وتطورت العادات والتقاليد والموروثات المحببة للنفوس التي استحسنت المجتمعات تأثيراتها، فحافظت عليها وشجعت على استمرار التمسك بها مما ولّد الأعراف والتقاليد وبالتالي سنّ القوانين الاجتماعية للمحافظة على الأملاك الخاصة والعامة وصالح المجتمع. إذن ففكرة مخافة الله ومراقبته حتى ولو كانت فكرة لا أساس لها، لكنها كانت مفيدة للمجتمعات القديمة، ولولا وجودها لما وصلت البشرية في هذا اليوم لهذا المستوى من التطور وليس هناك ما تدعو لنكران جميل تلك النظم الأساسية.

ونعود للإشارة الى خطأ المقارنة بين مجتمعات اليوم ومجتمعات الأمس، فالمجتمعات القديمة كانت في طور البدائية وطفولة التأسيس، ومجتمعات اليوم في طور الدخول الى مرحلة النضوج والرشاد، فليس من الحكمة أن يعيب الراشد سلوك الأطفال والتركيز على أخطائهم وتضخيم صورتها، فلقد كان الوْلف ذات يوم في ذات المرحلة وربما كانت تصرفاته أسوأ منهم. وطالما لا يكف عن سرد ذكرياته وقصصه وأخبار جلساته وزياراته ويسترشد بأحداث فردية لا يمكن استمداد صحيح الأفكار منها (فهذا خطأ علمي اجتماعي). فلنتذكر على سبيل المثال ما يحصل عند احتلال جيش لمدينة معينة في هذا الزمن، فلقد شاهدنا كيف ينقسم الجنود الى فئتين، فئة تستمرئ الإعتداء على النساء والأطفال وتسرق حتى ممتلكات القتلى والضعفاء، وفئة تبتعد عن مثل هذه الجرائم وتستنكرها. فما هو الدافع لهذا النقيض في انقسام التصرفات؟ فالفئة الأولى استغلت إختفاء شرطي القانون و "شرطي" السماء وشعرت أن لا سلطة فوقها، ففعلت حسب ما تدعو له رغبات الأنا لكل فرد منهم وما تدعو له النفس الحيوانية، وفئة امتنعت عن سبيل الاعتداء والإجرام نتيجة تأثير نازع أخلاقي قوي التأثير في نفوسها مصدره التراث الأخلاقي. فإذا كان الانسان هو من وضع القوانين الأخلاقية، فهذا أمر محال لأن جميع البشر يحملون ذات صفة الأنانية وحب الذات ويميلون بقوة عنيفة يصعب لجمها لتلبية متطلبات الجسد المادية. ومن الواضح ان هذه التصرفات المثلى ليست من مصدر بشري وإنما من مصدر فوقي يسمو فوق متطلبات الطبيعة البشرية المادية.

ولننقل مما ذكره المؤلف مثالاً على صحة رأي كاتب السطور فيما حصل في مدينة مونتريال، قال نقلاً عن شخص آخر:- (لنقوي ثقتنا ولنستمع الى ستيفن بينكر وتجربته الحقيقية خلال اضراب للشرطة في مونتريال، والذي وصفه بـ "اللوح الأسود": كيافع في كندا الفخورة باستقرارها وسلامها خلال الستينات كنت مؤمنًا تماما بالفوضوية التي دعا لها باكونين. وكنت أضحك من رأي أهلي القائل بأنه لو القت الحكومة سلاحها فإنها تفتح أبواب الجحيم. وآراؤنا المتفاوتة وضعت قيد الامتحان عندما أضربت قوات الأمن في مونتريال في الساعة الثامنة من يوم 17 تشرين الثاني 1969. وعندما بدأ اضراب الشرطة في الساعة 11:20 تعرض أول بنك للسرقة. وعند الظهر أغلقت معظم متاجر المدينة أبوابها بسبب السرقات. وبعد بضع ساعات أحرق سواق التكسي كاراجًا لسيارات الليموزين كان ينافسهم على زبائن المطار. قناص من السقف قتل شرطيًا محليًا واقتحامات حصلت في العديد من الفنادق والمطاعم وحصيلة النهار كانت، ستة بنوك ومئة متجر و12 حريقًا و 40 سيارة محملة ببضائع على واجهات المحلات المُهشمة وثلاثة ملايين دولار أضرار بالممتلكات. حتى اضطرت المدينة أن تستعين بالجيش لإحلال النظام؟ ذلك الامتحان التجريبي لآرائي تركها ممزقة كخرقة بالية...).[1]

والشيء بالشيء يذكر، فالرجل يتكلم عن الأخلاق النابعة من الذات البشرية، وهو يعيش في العالم الغربي الذي أكثر في مدح أوصافه وحسناته وأخلاق أفراده. لكن ذلك لا يبدو واضحًا بمثل هذه الصورة، حيث أن سوء النوايا والبغضاء والاحتقار والتحفز للاعتداء على أملاك الغبر وحجب المساعدة والأنانية وتفضيل النفس وحب الاستحواذ وغير ذلك من الصفات موجود حتى في ما تعتبر (أرقى) المجتمعات العالمية. كيف؟

ألا يلاحظ ندرة الاعلان عن وظائف شاغرة في وسائل الأعلام رغم وجودها؟ ألا يجري التواصي فيما بين القائمون على نشر هذه الاعلانات فيما بينهم لتعيين أقرب الناس اليهم؟ ألم يحصل أن وقف شخصًا غريبًا عاجز عن اتخاذ قرار صائب بسبب جهله للقوانين واعتماده على شهامة وأخلاق الموظف المختص في مساعدته. فاستغل الموظف هذا الجهل وبتر شيء من حقوقه؟ ألا يحدث أن يسير المرء باحثًا عن عنوان معين، فيصادف من ينكر معرفته بالمكان مع إنه قريب ويمكن الإشارة اليه. ألا يحدث أن تحاول تحية بعضهم لتوقفه بضع ثوان للسؤال، فيتركك وكأنه أصمّ وأعمى لا يسمع ولا يرى؟ ألا يحدث ان تفاجئك الشرطة لتفتيش بيتك نتيجة إخبارية من جار منتشي مدمن بدعوى حيازتك للمخدرات؟ ألم يحدث أن تجد مكانًا شاغرًا لرصف سيارتك، لكنك تأخذ بعض ثواني لتهيئتها. فتفاجأ بمن يستغل انشغالك وارتباكك ليركن سيارته بدلاً منك و يتركك عائمًا في استغرابك وكأنه لم ينتبه لك؟ ألا يحدث أن يدفعك شخص أو يزاحمك ويأخذ مكانك بطريقة مبتذلة عندما يكون هناك مجال للتنافس؟

صفحة 230

[1] - صفحة 229.

/* يطرح رأياً آخر زاعماً أن متبنو الإلحاد غالبًا ما يكونوا من المتعلمين والأذكياء وهذا يتعاكس مع صفات الإجرام. (والامكانية الأخرى هي أن الإلحاد يتناسب مع عامل مشترك ثالث، كمستوى دراسي أعلى أو ذكاء أو تفكير والتي بشكل عام تتعارض مع الاندفاع الاجرامي).

والرد على ذلك، إن العلم لوحده غير كافٍ لالتزام الانسان بالأخلاق والمحافظة على المجتمع، فجميع المخترعين في العالم من الأذكياء والمتعلمين ومن مختلف الأعراق، لكن منهم من يصنع المخدرات والسموم وحبوب الهلوسة ويؤسس مراكز للدعارة والمواخير ويشكل عصابات إجرامية خطرة ويقوم بعمليات سطو جريئة ومعقدة، كما وأن الأذكياء فقط من ينبري ليخرج بنظريات إجرامية لا تتضح عواقبها المأساوية إلا بعد تطبيقها وقتل وظلم ملايين البشر مثل الماركسية والشيوعية والماوية والنازية والبعثية وغيرها الكثير. فهؤلاء لابد وأن يكونوا من الأذكياء والمتعلمين، لكنهم كانوا وبالاً على البشرية مات بسبب تطبيق نظرياتهم من الجوع فقط عشرات الملايين.

لذلك فالقول أن التعليم والثقافة المادية كافيتان لخلق مجتمعات جيدة هي نظرية ثبت بطلانها تماما رغم إنها لم تنادي بالضرورة وبصراحة بترك الأخلاق جانبًا. فما بالنا بمن يدعو الى عدم وجود علاقة بين الأخلاق والله! في هذه الحالة سيخلو المجتمع من المراقبين الأساسيين الوحيدين (الضمير والقانون). لذلك لا بد من التحذير أن هذا السبيل سيجلب على البشرية وبالاً لم يسبق أن مرّ على البشرية من قبل، حيث سيظهر علينا أحد الملحدين الأذكياء بمثل هذه النظريات الزائفة ـ وفي هذه المرة ـ سيشعل حربًا كونية لا تبقي ولا تذر. فالحذر من انتشار فكرة الإلحاد فهي الجرثومة الأخطر على الإطلاق.

صفحة 230

كما هو الحال مع عالم الفضاء الرائع كارل ساغان، فقلَّ من يجاريه في مجال علمه، لكنه عندما تطرق الى المواضيع الدينية والأخلاقية والضمير والنفس والروح البشرية، نرى بوضوح أنه حشر نفسه حشراً. وفي هذا الكتاب نرى "ريتشارد دوكنز"، يقدم آراءه في الأديان والأخلاق والعقائد وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا وهو يقرأها بعين وفكر إلحادي، وهذا ما يظهر أفكاره بشكل ساذج يدعو لسرعة الرد عليها. فهو لا ينفك يقارن خطئًا بين درجة تقدم مستويات المجتمع الأمريكي في هذا اليوم مع مستويات الشعوب القديمة، وبين عقليته ومستواه العلمي مع عقلية بدوي جاهل من الصحراء وبين حالة المجتمعات المتحضرة بمستوياتها العلمية وبين معتقداتها بأديان قديمة ولدت قبل أكثر من الفين عام. لذلك من المؤكد أنه سيحصل على نتائج مشوهة خاطئة، ثم يستدل بها على صحة افكاره إن كان استنتاجًا خاطئًا، أم مراوغة منه عن سبق إصرار وتعمد.

يستشهد كذلك بكتاب لأحد الباحثين حينما قال:- (قارن "جورج س. باول" سبعة عشر بلداً ناميًا واستخلص النتيجة المرة التي تقول بأن "الايمان المتزايد بالخالق يرتبط

ارتباطاً طردياً مع نسبة أعلى من جرائم القتل والموت المبكر والعدوى بالأمراض الجنسية وحمل صغيرات السن والاجهاض مقارنة بالدول الديمقراطية والأكثر صحية").

هنا ومرة أخرى يقدم مقارنة غير منصفة قد تنطلي على السذج من قراءه ومشجعي أفكاره. فالمثال الذي قدمه لابد وان شمل مجتمعات تعتنق أحد المذاهب أو الأديان العالمية القديمة. ونعود لنقول إن تلك المعتقدات كانت لأزمان وشعوب عاشت قبل آلاف السنين وبالتالي من الخطأ قياس تصرفات اتباعها ونسبتها الى جوهر تعاليم أديانها التي إختفت حقائقها منذ مئات السنين، أما ما يراه منها فمصدره موت الأيمان والأخلاق في الضمائر والقلوب. ثم إن جرائم القتل لا تقتصر على البلدان النامية فقط، كما أن من أسباب الموت المبكر هو فساد الحكومات وسوء إدارة الحالة الإقتصادية وتردي مستوى التربية والتعليم. أما الأمراض الجنسية وحمل الصغيرات، فأينما وجد الفقر والجهل وجدت مثل هذه الحالات بل وأبشع منها.

صفحة 231

/* لو كان هناك أي علاقة ايجابية بين الأخلاقيات والتدين او الممارسات الدينية او الأيمان فإنها ستكتشف قريباً.

ما دام ينتظر احتمال اكتشاف علاقة بين الاخلاق والأديان، فكان من الأجدر عدم تأليف كتابه "وهم الإله" وانتظار ظهور النتيجة. أما نظرته الى الأديان الميتة القديمة بعدما انتهت وزالت قوتها الروحية وانتظار تصرفات أخلاقية مثلى من أتباعها، فهذا أمر محال إذا علم ان للأديان روح مؤثرة تُبعث حال ولادتها وتموت حال ظهور دين سماوي لاحق. فولادة أي دين سماوي هو بحد ذاته إعلان عن موت روح الدين السابق. فلا يمكن بعد ذلك توقع علاقة كاملة الجوانب بين تصرفات عامة المنتمين الى دين قديم وبين صفات الأخلاق بشكل عام ولا ننتظر من جميعهم أن يكونوا على مستوى أخلاقي رفيع. صحيح أن تأثير أخلاقيات الدين الجيدة تبقى عند البعض لكنها تبقى بدرجات منخفضة. حتى إننا نسمع عن جرائم الشذوذ بين بعض رجال الدين في اعتداءاتهم على الأولاد واليافعين.

عندما نرى تمسك الناس بالأخلاق في غياب الشرطة أو كاميرات المراقبة أو عدم الاعتقاد بوجود مراقبة إلهية، فهذا لا يعني أنهم اخترعوا الاخلاق اختراعا. فالأطفال لا يخترعون نظاما ليحكمهم إذا تركوا أحراراً وطلقاء بدون تربية وتعليم، وما سينتج بالتأكيد هو مجموعة من الحيوانات على شكل بشر قد يدمرون كل ما هو مفيد وصالح لأنفسهم ولغيرهم وستشتد حالة تخريبهم وتدميرهم كلما قويت سواعدهم وعضلاتهم. لذلك فما يظهر من تصرفات أخلاقية من البشر حتى ولو أنهم لا يؤمنون بدين حيّ أو حتى من الملحدين، فهو نابع من تمييز المجتمع على العموم لأعمال الخير وأفعال الشر التي جاءتهم من أسلافهم عبر آلاف السنين حينما لم يكن هناك علم ولا تدريس ولم تكن الكتابة قد اخترعت بعد، فأصل الأخلاق جائتنا من تلك الأمم الدينية القديمة التي كانت تعاقب أشد العقاب من يحيد عن سبيل القانون والعادات والتقاليد والموروثات الاجتماعية.

من هناك جاءت بقايا صفات الأخلاق التي حاول المؤلف الاستفادة منها وتجييرها لصالح نظريته في عدم الحاجة الى أديان والى الله.

صفحة 233

/* لحسن الحظ وبشكل عام فالأخلاق لا يجب أن تكون مطلقة.

من المؤكد أن الأخلاق لا يجب ان تكون مطلقة، لأنها على العموم تنقسم الى عام متفق عليه وخاص تتباين إلتزاماته بين أمة وأخرى؛ فمثلاً مبادئ الأخلاق العامة جاءت بشكل مختصر في الألواح الموسوية وفي جميع الأديان التالية لها، حيث اتفقت جميع شعوب الأديان العالمية على الإلتزام بالصدق والمحافظة على حياة الآخرين واحترام الملكية الخاصة والعامة، بينما نلاحظ أن جميع إلتزامات مبادئ الأخلاق جاءت بشكل مفصل في الألواح البهائية، فنراها قد اتسعت لتتوافق مع دخول البشرية الى مرحلة العالمية وتضع قاعدة عامة تبني مجتمعات أكثر استقراراً. صحيح أن هناك إختلافاً في خلفيات الشعوب الثقافية فما قد يرفض إجتماعياً وأخلاقياً في مجتمع قد لا يعتبر مستهجناً عند مجتمع آخر، مثل ذلك الأزياء، فملابس السباحة قد تحرم أو تمنع أو تكون غريبة عند بعض الشعوب، بينما لا تثير أي اهتمام عند شعوب أخرى؛ وكذلك موضوع الطقوس الدينية، فما هو محبب ومعقول عند أمة دينية من الأمم قد يكون موضع انتقاد عند أمة أخرى. ومن الوارد أنه بدخول البشرية الى مرحلة العالمية سيكون هناك اختلاط في عموم المفاهيم وستختزل وتتصفى بالتدريج مع مرور الوقت ليبقى ما هو متوافق عليه بين جميع البشر.

صفحة 234

/* ليست كل القواعد المطلقة نابعة من الدين. بالرغم من ذلك من الصعب أن ندافع عن الأخلاقيات المُطلقة على أسس غير دينية.

اعتراف بأهمية الأديان في تربية البشر، وقد حاول أن تكون عبارته مطاطة لأنه يعلم أن العامل الديني أس أساس ظهور المبادئ الأخلاقية منذ ظهور الوعي عند الانسان قبل مئات الألوف من السنين، وهذا البعد الزماني فسح مجالاً لمحاولات التشكك بهذا الأصل القديم لعدم القدرة على تقديم الأدلة المادية المؤكدة رغم اتفاق الفلاسفة عليه على اعتبار أن الانسان هو "حيوان اجتماعي" لا يمكنه العيش إلا داخل مجتمع وبالتالي كان من الضروري وضع أسس أخلاقية واجتماعية للمحافظة على حقوق هذه الجماعة وأفرادها، لأنه لو ترك الانسان دون روابط لعادت ملكته الحيوانية الى الاستقواء والظهور وعاد بذلك المجتمع الى سلوك تصرفات حيوانية وحشية نتيجة الرغبات المادية الجسدية التي تخلق داخل النفس منذ أول ولادته.

/* لا يجد المؤلف باباً يدخله ليعترض على نسبة أصل القواعد الأخلاقية من الدين، غير مثال "الوطنية"، فقوله:- (ليست كل القواعد المطلقة نابعة من الدين.. والمنافس الوحيد الذي استطيع التفكير به هو الوطنية).

من خلال استقراء تاريخ الإنسان القديم، ونتيجة لطبيعته الحيوانية، نجد أن ملكة الاستحواذ والحرص ورغبة التملك موجودة حتى عند الطفل الرضيع، فإذا لم تكبح هذه الصفة غير الحميدة وتقوّم منذ بداية الولادة، فستنمو لتتطور الى رغبة نفسية جامحة كلما إزداد العمر حتى تصل الى محاولة تملك ما يخص الغير، ولن يمنع نار هذه الغريزة من الانتشار، إلا الصدّ والإعتراض، فإذا وجد الشخص الوضيع المجال مفتوحاً أو أن الضحية ضعيفة وحيدة أو عاجزة عن طلب المساعدة، فأول ما يخطر في ذهن قليل الأخلاق هو الاستيلاء على حاجة الآخر، لأن وازع الأخلاق والرحمة ضعيفان في نفسه أمام وحش الأنانية، فالسارق لا يفكر بمقدار حاجة الضحية الى كمية المال المستولى عليه، ولا يفكر بمدى الواجبات الاجتماعية والعائلية للضحية عندما يقتلها أو يغتصبها.

من هنا ظهرت بالتدريج فكرة مسؤولية المجتمع في المحافظة على كيانه وبالتالي المحافظة على الفرد وأملاكه، فأصبح ذلك مع مرور الوقت، عادة وعرفاً ومن ثم قوانين كتبت وحددت لها عقوبات. ولما كانت الأنانية لا تحدها حدود إذا ما تركت دون تربية وتعليم، كانت تظهر بشكل جماعي بين القبائل البدائية في المنافسة على المكان الخصيب أو بسبب الرغبة في تملك ما لا تملكه القبيلة القوية فامتدت آثار الأنانية الى الاعتداء العام وشن غارات بسبب الشعور الجماعي بالأنانية، وبهذا كان لزاماً التعلّم من هذه التجارب وضرورة أخذ الحيطة للدفاع عن النفس والمجتمع، ومن هنا بدأ التفكير بالتكتل والتحصن واستعمال السلاح لرد الغزاة. لكن هذا لا يعني أن القبائل الضعيفة كانت تكتفي بالدفاع وتتمتع بالاستقرار والهدوء طالما ليس هناك غزاة، فقد تمر عليها ذات الظروف الصعبة ويجوع أبنائها ونسائها وتشعر بذات مشاعر الأنانية ـ لأنها تخضع لذات رغبات النفس الأمارة ـ فتعتدي على مجتمع قبلي آخر أضعف منها حينما تتأكد من الفوز وعدم وجود من يساعد المعتدى عليه. ومن خلال هذا التكتل والاستعداد لصد أي هجوم خارجي، وجدت فكرة البقعة المحمية والمنطقة الخاصة بالجماعة والقبيلة لتتطور الى فكرة المدينة والوطن وضرورة الدفاع عن الحدود من الغزاة. والتاريخ يخبرنا أن روح الأنانية وحب التملك كانت الدافع الرئيس وراء كل إعتداء على أراضي الشعوب وأملاكهم، إنه مرض عضال لا يلجمه إلا التربية والتعليم، وأن للناس حقوقاً مثلما لغيرهم حقوق، ومن الضروري الالتزام باحترام حقوق الغير. بهذا تطورت فكرة البقعة الخاصة الى "وطن". لذلك عندما تكون أهداف الأديان أساساً لتربية أنانية النفس البشرية ورفع روحانيتها لتحجيم متطلبات جسدها المادية، إنما هو في حقيقته تربية الإنسان لوقف غريزة التملك التي امتدت الى فكرة تملك أرض ووطن. من هذا يمكن اعتبار "فكرة الوطن" فكرة بدائية جماعية نبعت لصد ووقف غريزة التملك منذ ان كان الانسان على حالته البدائية، إنها فكرة تخالفها وتقوم ضدها مبادئ الدين في أساسها، وطالما أن الأديان تدعو الى الكرم وتفضيل الغير والعطف على الآخرين ومحبة الجار ووصل صلة الرحم وفي الأساس تدعو الى إنسانية رحيمة وتمتد

للعطف على الحيوان والنبات، كل هذه الصفات كانت لتحجيم غريزة التملك والأنانية التي يدخل من ضمنها فكرة الوطن.

إذن يستنتج من كل ذلك أن مبدأ "الوطن" و "الوطن المقدس" هي فكرة ثانوية وليست أساسية ظهرت من أصل غريزة "الأنا" و "الأنانية"، وبالتالي فهي فكرة عملت الأديان منذ قديمها على تحجيم قوتها وإطفاء سعيرها داخل النفس البشرية.

وبهذا فعندما لم يجد "دوكنز" مثالاً ينفي به الأديان أو ينتقدها، قال:- أن "الأخلاقيات نابعة من الأديان بشكل مطلق"، فلقد جاء ذلك خطئًا كبيرًا منه حينما ظن أن فكرة الوطن نابعة من الدين ومن مبدأ الأخلاق السليمة، وطالما يعتبر أن الأخلاق نابعة من الدين! فسيتنتج حتمًا أن الدين ليس منزهًا ولا كاملاً، ومن ثم لا حاجة للانسان به، لأن فكرة الوطن هي فكرة وهمية. أخذت بحدود الدين، فلا يمكن تحديد نهايات حدود انتشار الأديان، ولو أخذت بمفهوم العرق والقومية، فكذلك لن نجد لهاتين الصفتين حدودًا معينة بين شعوب الأرض، حيث نجد جميع هذه المبادئ لا تحدها حدود.

لو بحثنا عن أول مبادئ الأديان في محاربة غريزة "الأنا" أو "الأنانية" ومسعاها لتهذيب نفس الانسان، فسنجدها قديمة جدًا حتى في تعاليم "أول" نبي ظهر على الأرض، ألا وهو النبي آدم عليه السلام، فلقد ورد في تعاليمه وما سجل في كتابه "كنزا ربا"، أقدم الكتب المقدسة للأمة المندائية، ما يلي في تعليم الإنسان مبادئ الأخلاق الحميدة،[1] قال:- 1 قل يا عبادي لا تزنوا، 2 ولا تسرقوا، 3 ولا تنتهكوا حرمات الناس. 4 لا تبدلوا في الكلام، 5 ولا تحبوا الكذب والآثام. 6 لا تكنزوا الذهب والفضة، فالدنيا باطلة ومقتضياتها زائلة. 7 لا تسجدوا للشيطان. 8 ولا تعبدوا الأصنام والأوثان. 9 لا تتعلموا رقى الشيطان 10 ولا تشهدوا زورًا على إنسان. 11 وإذا جلستم للقضاء فاشهدوا منكم ذوي العدل والذمّام 12 ولا تسيئوا الأحكام 13 لا تسلموا العبيد الصالحين الى أسيادهم الأشرار ولا الضعفاء الى الظالمين الفجّار. 14 احترموا آبائكم، واحترموا أمهاتكم، واحترموا إخوتكم الكبار أجمعين. 15 لا تنظروا الى ما ليس لكم. لا تشتهوه ولا تبتغوه 16 ولا تعترضوا على ما وهبكم ربكم خاطئين. 17 إن أصابكم سوء فاصبروا، واثبتوا في إيمانكم. 18 لا تلووا ألسنتكم. 19 ولا تثنوا ركبكم. 20 ولا تحنوا رؤوسكم. 21 ولا تسجدوا للشيطان الرجيم. 22 ادعوا من تحبونه ليستمع الى التسابيح التي وهبكم ربكم لعله يؤمن ويطيع. فإن آمن بالله وشهد له فاكرموه، واليكم قربوه، واحسنوا اليه بما تملكون. أما إذا أبى أن يسمع، أو سمع ولم يخشع، فربه هو الأرفع. 23 إذا رأيتم أسيرًا مؤمنًا صادقًا فافتدوه. 24 لا تحسبوا الذهب والفضة. 25 ارشدوا الأعمى. 26 احسنوا الى الفقير. 27 وإذ تهبون صدقة يا أصفيائي لا تُشهدوا عليها. 28 لا تعلم يمينكم بما وهبت شمالكم، ولا شمالكم بما وهبت يمينكم. بئس من وهب صدقة فأفسدها بالتشهير. 29 إذا رأيتم جائعًا فاطعموه. 30 وإذا رأيتم عطشان فاسقوه. 31 وإذا رأيتم عاريًا فاكسوه. 32 طوبى لمن وهب فإنه لمأجور. 33 طوبى لمن كسا فسيكسى أردية من نور. 34 طوبى لمن انقذ أسيرًا فسيستقبله رسل ملك النور. 35

[1] - كتاب "كنزا ربا" – القسم اليمين، صفحة 10.

صوموا الصوم الكبير، صوم القلب والعقل والضمير. 36 لتصم عيونكم، وأفواهكم، وأيديكم. 37 لا تغمزُ ولا تلمز. 38 لا تنظروا الى الشر ولا تفعلوه. 39 والباطل لا تسمعوه. 40 ولا تنصتوا خلف الأبواب. 41 نزهوا أفواهكم عن الكذب. 42 والزيف لا تقربوه. 43 أمسكوا قلوبكم عن الضغينة والحسد والتفرقة. 44 أمسكوا أيديكم عن القتل والسرقة. 45 أمكسوا أجسادكم عن معاشرة أزواج غيركم، فتلك هي النار المحرقة. 46 أمسكوا ركبكم عن السجود للشيطان ولأصنام الزيف. 47 أمسكوا أرجلكم عن السير الى ما ليس لكم. 48 من أخطأ ثم تاب، ثم الى رشده ثاب، فإن الله غفور رحيم. 49 لا تقربوا الملوك والسلاطين والمردة في هذا العالم، ولا تثقوا بهم.. لا بأسلحتهم، ولا بحشودهم. 50 ولا تلووا أعناقكم للذهب والفضة التي يكنزون. إنها سبب كل فتنة. 51 لا تأكلوا الدمّ، ولا الميت، ولا المشوّه، ولا الحامل، ولا المرضعة، ولا التي أجهضت، ولا الجارح، ولا الكاسر، ولا الذي هاجمه حيوان مفترس. 52 إذا ذبحتم فاذبحوا بسكين من حديد. 53 ليحفظ أحدكم الآخر. 54 اعتنوا ببعضكم عناية العيون بالأقدام. 55 ليحب بعضكم بعضاً. وليحتمل بعضكم بعضاً. 56 لا تبكوا موتاكم، ولا تقيموا عليهم الأحزان. 57 من أحب موتاه فليطلب لأنفسهم الرحمة. 58 هبوا الخبز والماء والمأوى لبني البشر المتعبين، وللمضطهدين، وكونوا عادلين، وتحابوا صادقين. 58 لا يبت عندكم أجر أجير. 59 ولا تسرقوا شريكا. 60 ولا تنتقموا بغدر من صديق. 61 إذا عاهدتم فابسطوا أيمانكم. 62 لا تخونوا عهدكم. 63 اعلموا أن معلميكم يعلّمونكم كلمة الحق والحكمة فلا ترفعوا رؤوسكم عليهم. 64 كونوا هادئين متواضعين. 65 لا تحلفوا كذباً، ولا تفسقوا ولا تمِل قلوبكم الى غواية الشيطان. 66 لا تغضبوا ولا تهتاجوا. 67 إذا رايتم حكيما صادقاً فتقربوا اليه، وخذوا من حكمته. وإن رأيتم حكيماً شريراً فابتعدوا عنه ما استطعتم إن حكماء الشرّ من اتباع الشيطان. 68 أحبوا لأصحابكم ما تحبون لأنفسكم، واكرهوا لهم ما تكرهون لها. 69 تزودوا لآخرتكم بالعمل الصالح. 70 انظروا بأعينكم. وانطقوا بافواهكم. واسمعوا بآذانكم. وآمنوا بقلوبكم. 71 لا يأسرنّكم جمال الأجسام فجمالها زائل. 72 لا تلقوا بأبنائكم في بيوت الأسياد عبيداً، إن ذلك وزرٌ عظيم. 72 أيتها النساء اللواتي تكنَّ للرجال، حذار مما لا يرضي الله، ولا يحسن لدى الناس، الزنى والسرقة. 73 إن من لم يرشد أولاده، ولم يعلمهم يحاسبه الله، ومن سعى لهداية أولاده، فلم يهتدوا يحاسبهم الله. 74 من اخطأ منكم فقوّموه وأسندوه، فإن أخطأ ثانية فقوّموه وأعينوه، فإن اخطأ ثالثة فأرشدوه، والصلاة والتسبيح لله أسمعوه. فإن عصى واستكبر وأبى إلا المنكر، فاجتثوا هذه الكرمة من الجذور، وازرعوا مكانها كرمة تعرف طريق النور. 75 إياكم والهُزء بمعوّق، او السخرية من ذي عاهة. إن الأجساد قد تبتلى بالأوجاع ولكن نشماثا (الروح) لا تهان ولا تزدرى إلا بأعمالها. 76 لا تقولوا ما لا تعرفون. 77 لا تكونوا كالنبت الرديء.. يشرب الماء ولا يعطي ثمر.[1]

لذلك ـ والشيء بالشيء يذكر ـ أن قدمته الديانة البهائية من مبادئ تتناسب مع تطور العقل والروح البشرية في القرن التاسع عشر، بعد إثنى عشر ألف سنة من نزول تعاليم النبي آدم وتكملة لما سبق وجاءت به الأديان السابقة بشكل أوسع حينما تضع مبدأ "كلكم

[1] - كتاب كنزا ربا من صفحة 10 الى صفحة 25.

أثمار شجرة واحدة وأوراق غصن واحد"، ومبدأ "ليس الفخر لمن يحب وطنه بل لمن يحب العالم".

من هنا نفهم أن الأديان مناهج إلهية موصولة بعضها ببعض طالما كانت وما زالت متطورة سبّاقة لتلبية حاجات النفس البشرية، وإنها أساس مبادئ الأخلاق، وقد دعت على الدوام الى تهذيب نفوس البشر لتحجيم مشاعر الأنانية والى قتل "النفس الأمارة"، وأنها لم تخترع مبدأ الوطن بل هو اختراع بشري مادي اقتضته ظروف المجتمعات القديمة الاجتماعية، وبذلك يكون رمز الوطن غير مقدس كل الظن أن السياسيون والحكام هم من ألبسوه صفة التقديس ورفعوه الى هذا المقام المزيف.

وبهذا عندما يقول دوكنز أن "الوطنية تعتبر ميزة مطلقة"، إنما هو رأي خاطئ غير سليم، لأنه مخالف لما استمرت الأديان تدعو للجم هذا الوحش النفسي، فهو سلوك نابع تدرجاً من الأنانية الجماعية البدائية في ضرورة المحافظة على الممتلكات العامة والخاصة من نواتج إعتداء غريزة الأنانية التي يشعر بها البشر بشكل عام. أما إذا انتشرت فكرة "زيف" هذا المبدأ (الوطن) وأدرك الإنسان إن أصل جذره نابع من محاربة فكرة الإعتداء على أملاك الغير، فسيتجه الى حب العالم وحب البشرية عندما تبدأ غريزة "الأنا" بالاضمحلال تدريجياً في نفوس الناس.

ماذا نستنتج من كل ذلك؟ 1 هناك تخطيط إلهي مسبق لتخليص النفس البشرية من الأنانية دامت دعوتها منذ بدء الأديان التي لا يعرف لها بداية على الأرض. 2 أن تربية البشر لتخليصها من غريزة حب النفس كانت الدرس المستمر للأديان. 3 إن الإنسان باقي الى الأبد على هذه الأرض طالما أن أحد مبادئ التربية بدأ تعليمه منذ بليارات السنين حتى اليوم. 4 إن الانسان لم يصل الى مرحلة نضوح ثمرة وجوده بعد. 5 أن فكرة الإلحاد بالله والقول بعدم وجوده هي فكرة وقتية ستزول بمجرد إنتباه الانسان لحقيقة موضوع الأنانية، وإنها موجات عابرة متقطعة من موجات الضعف العقلي وغفلته عن حقيقة وجود الله تظهر وتختفي وان مصيرها الزوال. وندعو الله أن لا تحقق فكرة الإلحاد غايتها في الانتشار لأن عاقبتها ستكون أكثر وبالاً ونتائجها أكثر تخريباً من نتائج جميع حروب البشرية السابقة قاطبة.

## الفصل السابع

# الكتاب (الصالح) وأخلاقيات روح العصر المتغيرة[1]

السياسة قتلت الآلاف، لكن الدين قتل عشرات الآلاف.

عملية التدليس في تقديم الفكرة واضحة هنا كما هي الشمس، وكان المفروض أن يغير العبارة ويقول (السياسة قتلت الملايين...) ثم يكمل عبارته، فاذا تذكرنا أن البشرية يقل تعدادها كلما توغلنا عمقًا بالتاريخ، فسنعلم أن رقمًا مثل المليار أو المليون لم يكن يستعمل قبل مائة أو ألف عام تقريبا، لا في الأعداد المالية ولا في تعداد النفوس ولا الجيوش. وكل ما نتذكره من عمق التاريخ الديني بوضوح هي حروب الأمة اليهودية والمسيحية والاسلامية، ورغم ان التوراة يذكر قصصا عن حصول إبادات، فلم تكن تتجاوز إبادة سكان قرى أو مدن بأعداد سكان بالآلاف، رغم إنه عمل إجرامي. ولكن ماذا عن ما حصل من حروب سياسية، فعلى سبيل المثال، حدث في الصين:- (فتكفلت مملكة التسين بتوحيد البلاد. وابتعلت بالتدريج الدول الأخرى. كانت الحروب تدور بقسوة غريبة. مثلاً عندما خضعت إمبراطورية التشو للتسين، أبيد جيشها المؤلف من 400 ألف عنصر. وذبح الحكام وذووهم. وفي العام 221 قبل الميلاد، أعلن حاكم دولة تسين امبراطورًا على الصين، وتوحدت البلاد).[2] فما علاقة هذه المذابح الكبرى بالأديان، وأين المؤلف من ذكراها؟

يمكن إدراج جميع ما حدث من حروب إن كانت دينية او سياسية تحت بند تصرفات البشر الصبيانية الفوضوية، وهي مرحلة كان لا بد للبشر من المرور بها. أما مستقبلاً، فمشاعر الانسانية بدأت تنضج في نفوس البشر وظهرت معالم الاعتراض على القتل والحروب وأصبحت دعوات السلام ونبذ الحروب شعارًا إنسانيًا يزداد إتساعًا.

/* صفحة 238 */ قصة نوح تستحق التمحيص.

سبق وذكرنا أن تاريخ وجود الأمم القديمة، كان ملتصق بأزمان الآلهة والطواطم والشامان وأمثالها، وهذا يعني إن ما وصلنا من كتبها ـ كما يلاحظ ـ يغلب عليه طابع الرمزية، وما زالت كثير من نصوص "العهد القديم" غير مفسرة. أما عن قصة النبي نوح فجرت محاولات لا حصر لها لكشف معانيها، منها اعتبار السفينة رمز دين نوح بذاته، فمن ركبها نجى من الغرق في بحر الكفر؛ ومنها أن الحيوانات ترميز لأحوال البشر بمؤمنيهم وملحديهم وبقسوتهم ولطفهم وتجبرهم. وما يؤيد هذا التوجه أنه يستحيل على النبي نوح أن يسافر طوال هذه المسافات ليجمع مختلف أنواع الحيوانات ثم يتركها عند قومه الذين يعادونه ويكرهون دعوة دينه، ليطعموها ويعتنوا بها ويوفروا لها الحماية حتى حين عودته

---

[1] - الصفحة 236

[2] - الحضارات القديمة. دياكوف. ج 1 صفحة 235.

من سفراته المتكررة التي تدوم الواحدة منها شهوراً أو سنين نتيجة صعوبة المواصلات آنذاك، ناهيك عن حيوانات القارات البعيدة غير المكتشفة مثل امريكا واسترالية والقطبين.

أما أن تكون قصة نوح "مقتبسة" من قصة "انوبشتم"، فهذا ما سبق وجئنا عليه في اسلوب الخطابة القديم المرمز والمخلوط بذكر الآلهات والطواطم التي لم يكتشف حقيقتها كثير من المؤرخين بعد. وهناك رأي علمي آخر يقول إن حدث الطوفان كان جزئياً شمل منطقة واسعة من أرض العراق وليس جميع الأرض.

/* إن الغالبية العظمى من الناس لا تزال تأخذ الكتاب المقدس، بضمنها قصة نوح، بشكل حرفي.

رأي صحيح يتفق عليه، خاصة وكتاب التوراة له من العمر عمره اليوم أكثر من 35 قرناً، وليس من المعقول ان نتخذ كتابا، مصدراً مطلقاً لمعلومات أبناء القرن 21، لا من الناحية الدينية ولا من الناحية التاريخية، فالكتاب يتضمن احكاماً خاصة فقط بتلك العصور المظلمة. ولم تعد تصلح حتى قصصاً للأطفال قبل النوم.

/* لماذا يجب على الخالق والذي في عقله تكمن الأزلية والخليقة أن يكترث لتصرفات خاطئة تصدر عن انسان تافة؟

بالفعل هذا مفهوم صحيح، فالله لا يلتفت لتصرفات أفراد البشر، فطالما كان اسلوبه النصيحة كما سبق وأوردنا ذلك في تعاليم نبي آدم وكذلك بقية الأنبياء كما جاءت في كتبهم، فبهذا يترك الناس لقانون الجبر والاختيار، فمن شاء يتبع هذه النصائح ومن شاء تركها.

صفحة 239

/* في تحطيم سدوم وعمورية، وقصة النبي ابراهيم وزوجته سارة مع الفرعون، وقصة النبي لوط وإبنتيه وضيفيه، وقصة ابيميليخ ملك جيرار مع سارة زوجة النبي ابراهيم.

قصص كل ما يمكن ان يقال عنها، إنها من الأساطير القديمة كانت موجودة قبل زمن النبي ابراهيم ولوط واستمر تداولها كقصص من التراث القديم، أو أنها قصص مرمزة، حيث لا يعقل أن يفعل ذلك حتى لو كان قاض مبتدئ ويقتل سكان مدينة باكلمهم، فكيف يعقل أن يفعلها خالق العقل والرحمة ويوجدها في عقول وقلوب مخلوقاته؟ لأن العقل الإلهي كامل أزلي، وليس كما هو المخلوق ينمو عقله بالتدريج والتعليم. إلا إذا كان لها معاني أخرى اختفت مع اختفاء عادات وقصص الأمم القديمة. كما علينا أن لا ننسى أن التاريخ يخبرنا بالمؤكد أنه كان هناك تدخلاً من قبل رجال الدين في الكتب المقدسة السابقة وخاصة كتاب التوراة الذي كتب فيما بعد ظهور اليهودية في العراق بقرابة الألف عام.

صفحة 243

/* قصة ذبح الإبن إسحق او أخيه اسماعيل.

قصة قديمة من عمق التاريخ قد تجاوز عمرها الخمسة ألف سنة، تبقى بحاجة الى وقائع تاريخية موثقة لفهم حيثيات أحداثها. إذ لا يمكن تناولها بهذا الشكل غير المنطقي. فنعود الى القول أن تفاصيل أحداثها لا يمكنها الاتفاق مع العقل الكلي الإلهي.

صفحة 246

/* سفر العدد يخبرنا كيف حرض الله موسى بأن يهاجم المديانيين.

من الواضح عند قراءة العهد القديم أن نجد فيه كذلك قصصاً وروايات تتفق مع سماحة الدين والرحمة والعقل السليم، وهذا ما يدعو للظن أن الكهنة والأحبار قد أضافوا اليه من عندهم ما ظنوا أنه يزيد الكتاب عظمة ومحبة في صدور أتباعه ويشجعهم على قتال غيرهم من الأمم باعتبار أن الشجاعة والقتال كانتا من الصفات المحببة بين البشر. فليس من المعقول أن يأمر خالق البشر بقتل البشر! فلم كان أساس الخلق إذاً؟ ومثل هذا ما فهمه المسلمون من كتابهم أيضا حينما خرجوا من شبه جزيرتهم المقفرة ليحتلوا الأوطان ويخربوا الحضارات بإسم الله والدين الحق.

ونعود للقول لا يحق لنا في هذا اليوم قياس قوانين تلك الأزمنة السحيقة بمفاهيمنا الحالية ولا يعرف ماذا كان من تصرفات جميع الأطراف التي دعت الى سلوك مثل هذه التصرفات التي لا يقرها عقل حكيم، كما أن الإشارة اليها وانتقادها لا تدعو للظن أن من يشير اليها منتقداً مستهجناً هو بالضرورة انسان رحيم منصف عطوف أكثر من غيره، فمن يدري لو كان في ذات تلك الظروف القديمة، لكان من الداعين والمشجعين للقتلة وسفاكي الدماء. من يدري؟

صفحة 247

/* وهذا مثال آخر على الهوة الموجودة بين الكتاب المقدس والأخلاق العصرية.

هذه النقطة بالذات هي التي يقع في هوتها بعض المفكرين وصيادي المياه العكرة، فلا أحد من هؤلاء حاول التفكير وخلق المعاذير لما كانت عليه الظروف قبل أكثر من ثلاثة ألف سنة، و يستنتج دوافع تلك التصرفات العنيفة المستهجنة دون استغلال تلك الأحداث لتشويه أهداف الأديان، فقد تكون من دوافع محبة وتقديس جهلاء الشعوب القديمة لأديانهم وظنهم أن هذه القصص تزيد من هيبة الأديان، كما حصل فيما بعد مع المسيحية والاسلام. ولنتذكر قول الفيلسوف "ويل ديورانت": (كل التاريخ وهم وظن).

/* وبعد وعده (يهوه) بطرد العموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين من الشعوب من أرضهم يبدأ الله بأهم الأشياء: الآلهة المنافسة.

الحكمة تقول أن الانسان لا يتخذ قراراً إلا بعد سماع رأي الطرفين. ونحن الان نسمع لطرف خصمٌ للأديان، ولكن لا أحد يعلم ما كانت عليه الظروف في قديم الزمان

وماذا فعل هؤلاء حتى تقوم تلك حروباً بينهم وبين اليهود. لكن ألا تلاحظ عزيزي القارئ غرابة نتائج هذه الحروب وكذلك حروب المسيحيين والمسلمين؟ ألا ترى أنها في بداية ظهور هذه الأديان كانت سمتها الانتصارات تلو الانتصارات. فكما سبق وقلنا أن البرنامج الإلهي للأديان التوحيدية كان (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) حسب النص القرآني، فكان لا بد وأن يقوم أهل هذه الأديان بالتخلص من الأصنام والأوثان والمعبوات والآلهات القديمة، لأن أصل هذه الدعوات كان لإزالة فكرة الآلهة والأصنام القديمة، لكن فكرة القوة والعنف هي التي كانت سائدة في تلك الأزمان. فما العيب في ذلك؟ هل لو بقي البشر يعبدون الأصنام حتى اليوم لكان ذلك أفضل؟ فما هي الفائدة المادية والعلمية والدينية في ذلك؟ وكل الظن، لكان خرج علينا من يهاجم عبادة الأصنام ويدعو لعبادة الإله الواحد مرة أخرى وعلى ذات المنوال. كما أن الأستاذ دوكنز لو كان يعيش في تلك الأزمنة، فليس من المستبعد أن كان من انصار أحد الطرفين المتحاربين خضوعاً للرأي العام آنذاك.

/* كل ما أريد أن أؤكده هنا هو بأن الأخلاقيات الحديثة، مهما كان مصدرها، فمصدرها ليس الكتب المقدسة.

نلاحظ هنا تركه لمجهولية المصدر، حيث لا جواب له مع علو درجة ذكائه ومستواه العلمي. لذا من ينتقد رأياً معينا، عليه ان لا يكتفي بالاعتراض والرفض فقط، بل تقديم البديل والرأي الآخر، فالجميع قادرون على الاعتراض، ولكن أين الرأي البديل؟ فلقد سبق وجئنا على مجموعة كبيرة رائعة من التعاليم والأوامر الأخلاقية لأول نبي مرسل في قدم التاريخ وكيف كانت روعة تعاليم النبي آدم. ألم تكن تلك تعاليم أخلاقية؟ ألا يستغرب من عظمتها وروعتها في تلك العصور البدائية الظلامية؟ ألا يستحق الاعتقاد أنها انتشرت بين البشر نتيجة استحسانهم لها؟ أليست الأثنى عشر ألف سنة كافية لاستقرار هذه المبادئ الأخلاقية فيما بين الشعوب؟ في الحقيقة العقل والمنطق يجيب: بـ "نعم". وهنا أتذكر وحوش المغول في زحفهم الأسود على شعوب الشرق وما فعلوه، كيف انهم بعد عدة عقود اعتنقوا دين ضحاياهم وعادوا لبلادهم لينشروه بينهم؛ ونتذكر كيف ان جنود الرومان اعتنقوا المسيحية خلال وجودهم في فلسطين وعادوا الى بلادهم لينشروا المسيحية.

صفحة 248

/* لا يمكن للمتدينين التملص هنا بالإدعاء .. ولن يفيدهم خدعتهم المفضلة عن تفسير الكتاب بشكل "رمزي" عوضاً عن حرفي. ما هي المعايير التي تجعلك تقرر ما هي العبارة الرمزية وما هي الحرفية؟

مع إنه سبق وجئنا على هذا الموضوع، لكنه المؤلف يعود ليطرحه بطريقة جديدة. من المؤكد أن دوكنز هو أول الداعين الى فكرة التطور، وكتابه بتمامه يرتكز على مناصرة هذه الفكرة، ونحن نؤيد ذلك أيضاً. لذلك فإنه يقر معنا ويؤيد أنه كلما تعمقنا في سنين الماضي قلت نسبة العلوم والمتعلمين ـ كما أثبت ذلك علماء الحضارات ـ ويصف علماء

النفس والإنثروبولوجيا إنسان الماضي "بطفل الانسانية". لذلك فمن المؤكد ان تعليم الأطفال يختلف عن تعليم الكبار، فلابد ان يكون التعامل مع الأطفال عموماً باسلوب الترغيب والترهيب، بالمكافأة والعقاب، وهذا اسلوب تربوي متفق عليه حتى اليوم ـ ولأ اظنه سيتغير مستقبلا ـ لذلك كانت معاملة الله للبشر في قديم الأزمنة تنتهج هذا الاسلوب في التربية، بدليل أن كتاب القران كشف عن ذلك في إحدى آياته حينما قال: (وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)[1] وهذا يعني أن الترغيب والترهيب كان سبيل التربية الإلهية بالفعل، بدليل أنه عندما اقترب الزمان ونزل القرآن جاء توضيح بعض تلك المعاني الخفية وسببها، أما بمجيء الديانة البهائية، فلقد تم تماماً الكشف عن كامل تلك الرموز القديمة وتوضيح معانيها وأسبابها.

أما مسألة الرمزية والحرفية في النصوص المقدسة، فلها دلالات عديدة: منها عدم نضوج العقل البشري لمثل هذه العلوم الإلهية الرفيعة، لذلك جاءت بمثل هذا الترميز، حيث لا يمكن الإفصاح للأطفال عن جميع العلوم المعقدة مرة واحدة ولا بد من تدرج المناهج التربوية والتعليمية مع مرور السنين، فعلى سبيل المثال حينما سُئل النبي محمد عن ماهية الروح، أجاب (قل الروح من أمر ربي). فلم يجب عنها ولم يشرح أحوالها، والسبب ان المجتمع العربي آنذاك لم يكن بمقدوره فهم هذا الأمر المعقد، بدليل أن الملحدين في هذا اليوم ومع كل هذا التقدم العلمي ينكرون وجود الروح، رغم أن كبار فلاسفة البشر مثل أفلاطون وارسطو وسقراط اعترفوا بوجودها، ولا يعقل ان يكون صاحبنا أكثر علماً وحكمة وفلسفة من أولئك الأفذاذ. ولقد قدم النبي محمد سبب عدم شرح موضوع الروح في تكملة الآية حينما قال: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[2]. وما يؤكد هذا التسلسل في تناول المعارف الإلهية التدريجي، ان بهاء الله جاء على شرح موضوع الروح وعلاقتها بالنفس والعقل والجسد الإنساني في ألواح عديدة. ولنعود لنقول ان سبب هذا الافصاح الجديد جاء نتيجة وصول العقل البشري الى مستوى عالي من العلم والفهم يمكنه من خلالها استيعاب مثل هذه العلوم الفلسفية العالية خاصة بعد ظهور علوم جديدة مثل علم النفس وبقية العلوم المتصلة. ثانياً: إن الاسلوب الإلهي لا بد ان يكون على عال المستوى رفيع الإسلوب ليرفع معه مستوى علوم البشر فالمعلم يبقى على ذات مستوى علمه مهما قدم لتلميذه من علوم بسيطة. وثالثا: لتكون مفاهيم هذه الأسرار دليلاً على وجود "مُنزل واحد" لها بمختلف كتبها حينما يأتي يوم بهاء الله في آخر الزمان عند دخولها في كور توحيد الجنس البشري ليوضح معانيها وأسرارها وتناسق أخبارها، فنعلم ان هناك إلهاً أبدياً موجوداً أدار ترتيب وهندسة هذا العالم حينما يفصح عن أسرار هذه الكتب المقدسة.

/* إن التصفية المذهبية للشعوب التي بدأت في عهد موسى تصل أقصى دمويتها في سفر يوشع.

[1] - سورة الإسراء 59.
[2] - سورة الإسراء 85.

طبيعي من يقرأ عبارات التهويل هذه، لا بد وأن يعطي الكاتب بعض الموافقة، لكنها نصف الحقيقة، حيث لم يأتِ على ما فعلته الحروب السياسية من دمار للبشرية، فلم تكن حروب الشعوب الصينية قديما ولا حروب اليابانيين ولا اجتياحات المغول ولا حرب القوم ولا الحربين العالميتين ولا الحرب الأهلية الأمريكية ولا حربي الخليج العربي وغير ذلك من الحروب التي راح ضحيتها ملايين البشر ولم يذكر شيئًا عن التجربة الزراعية لماو تسي تونج في الصين التي راح ضحيتها خمسين مليون انسان، ولم يأت على ذكر ملايين المعارضين ممن اغتالهم ستالين. أنها بأجمعها كانت لأسباب سياسية وليست دينية، ولا ننسى الحروب الوطنية وما كان من فضائعها.

/* ربما يكون الكتاب المقدس (توراة وإنجيل)عمل شاعري وخيالي رائع ولكنه ليس بذلك الكتاب الذي يجب أن تعطيه لأطفالك ليستقوا منه أخلاقياتهم.

هذا رأي صحيح، فمبادئ التربية والتعليم تختلف وتتطور من جيل الى آخر ومن غير المنطقي ان يؤخذ بها بعد مرور 35 قرنًا على مجيء التوراة أو 21 قرنًا على مجيء الإنجيل، ولا حتى أخلاقيات كتاب القرآن بعد أكثر من خمسة عشر قرنًا، فهي أخلاقيات الأمم البدائية القديمة ولا تتوافق مع أجيال اليوم. لذلك جاءت تعاليم الديانة البهائية الجديدة لتتوافق مع روح هذا العصر وفيه من مبادئ التربية والتعليم الروحانية ما يشفي صدور الباحثين عن تطور المجتمعات البشرية، فلقد حرمت على أتباعها سلوك العنف والقتل وأمرتهم بمعاشرة ومؤاخاة بقية أتباع الأديان والأجناس (عاشروا مع الأديان بالروح والريحان) و (خيرٌ لكم أن تـُقتلوا من أن تـَقتلوا).

صفحة 249

/* التهم التالية عقوبتها القتل كما ورد في سفر اللاويين:- سبّ الأهل.

قبل كل شيء حتى المسيحيين الذين يرفقون كتاب التوراة وشريعته بكتابهم الإنجيل لم يعد ياخذون بهذه التعاليم لإختلاف الزمان. فبالتربية الصحيحة يمكن تربية الأطفال بطريقة عصرية علمية، ولا يعقل في هذا اليوم ان يقتل الإبن إذا سبَّ أو شتم أبويه.

/* الزنا.

لم يعد لهذا الحكم وجود إلا عند الأمم المتأخرة التي تدّعي التمسك بالدين مثل بعض الشعوب الاسلامية، رغم عدم وجود عقوبة واضحة صريحة في القرآن، وما يجريه المسلمون من عقوبة الرجم إنما هو تقليد قديم لأحكام الأمم السابقة المندثرة، إضافة الى أنهم قصروا عقوبتها على المرأة فقط.

/* ممارسة الجنس مع زوجة الأب او الكنة.

رغم أن هذه الممارسات قد تكون موجودة عند بعض الشعوب المتخلفة، إلا أن المجتمعات المتطورة تخطتها وانتهت منها ووضعت لها قوانين جديدة تتفق مع الحال

الحاضر. ومثل هذه الانتقادات تأتي طبيعية في هذا اليوم، لكنها قديماً كان لا بد من فرض عقوبتها لوقف ما وصل تلك الأمم من التقاليد الاجتماعية من عصور ما قبل التاريخ.

/* المثلية الجنسية .

لسنا بحاجة لنذكر ما لهذا السلوك من اختلاف قائم لم يتفق عليه بين المشرعين لحد الآن، فالبعض أقره والبعض رفضه، ولكنه لم يصل الى حكم الإعدام، ومن المؤكد أن سيكون له في نهاية المطاف الحكم الفصل إن كان طبياً أم عقلياً.

/* الزواج من امرأة وابنتها.

إنها قوانين قديمة منعت مثل هذه الممارسات التي لا أظن ان دوكنز قد يتقبلها على نفسه. ومن المناسب ان نذكر ان الدينين الاسلامي والبهائي اكدا على حرمة مثل هذا الزواج.وكا الظن أن من أسباب هذا التحريم هو ما تخلقه مثل هذه الزيجات من مشاعر الحسد والبغضاء والكراهية وحياكة المؤامرات بين الزوجات، بينما تظهر الأديان لتؤسس أواصر المحبة ووشائج التعاون والاتفاق بين أفراد العائلة الواحدة، فلا يعقل أن تهدم محبة الأم للإبنة، والبنت لأمها بسبب زواج يمكن تجنب مثل هذه التبعات بكل سهولة.

/* ممارسة الجنس مع البهائم وقتل البهيمة.

لوعدنا الى قديم الزمان وتذكرنا ان البشر كانوا يعيشون مع حيواناتهم في نفس البيت بل وفي نفس الغرفة أو يتخذ البشر والحيوانات من الزريبة مسكناً لهم، لعلمنا لماذا كانت تحصل مثل هذه الحالات الشاذة المقيتة. ومن المؤكد أن قتل البهيمة أمر غير عقلاني، لكنه قد يساعد في قطع دابر مثل هذه الحالات اضافة الى أنه ينبه لها ويحذر منها. ومن يدري فقد يكون هذا هو سبب تفكير الانسان في تأسيس مكانين مختلفين كمسكن له وحظائر للحيوانات. ولكن نعود لنقول إنها مدونات قديمة قد تخضع للتصديق والتكذيب.

/* يجب إعدامك أيضاً بالطبع كعقوبة للعمل في اليوم المقدس.

عندما جاء السيد المسيح كانت أول أحكامه إلغاء هذا الحكم، فبدل يوم السبت بالأحد وانتهى الأمر. ومن خلال ذلك نفهم إن مثل هذه الصرامة في الحكم قد انتهى أمرها. إضافة لذلك فلقد استمر حكم اليوم السابع حتى هذا اليوم وأخذت به جميع أمم العالم وشعوبها، وقد يزاد عليه ويمسي يومين او ثلاثة حسب المستوى الاقتصادي والحاجة الى العمل. وبهذا نلاحظ أن السيد المسيح قد أبطل حكم القتل، لكنه بارك العطلة الاسبوعية. فمن ذا الذي يمكنه اليوم أن يغير أي قانون وصلنا من قديم الأزمان مهما أوتي من علم وحكمة وفلسفة.

/* يلاقي بني إسرائيل شخصاً يجمع الحطب في الغابة في اليوم المحرم. أوقفوه وسألوا الله ما يفعلون به؟ فقال الرب لموسى: "قتلاً يقتل الرجل"... هل كان لدى جامع الخشب المسالم زوجة واطفال ينعوه؟

يقول السيد المسيح: "ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك، وأما الخشبة التي في عينك فلا تفظن لها؟ أم كيف تقول لأخيك: دعني أخرج القذى من عينك، وها الخشبة في عينك؟ يا مرائي، أخرج أولا الخشبة من عينك، وحينئذ تبصر جيدا أن تخرج القذى من عين اخيك!". لذلك، وماذا عن ملايين الرجال الذين أبيدوا في أوربا والشرق الأقصى والأدنى وفي ليبيا وفي أمريكا اللاتينية حينما داهمهم أجدادك وقتلوهم وأفنوهم. ألم يكن لهؤلاء زوجات واطفال ينعوهم؟ إنها أحكام الأمم والأديان القديمة فلا موجب لتكرار انتقادها، فلقد انتهت وولى زمانها.

صفحة 250

/* عبادة آلهة متعددة ومتساوية وممارسة الشرك في السعودية لا يزال يعتبر جريمة عقوبتها قطع الرأس.

هذا ما سبق وجئنا عليه، إنها قوانين قديمة حتى ولو كانت منزلة في كتاب مقدس لا موجب لاستمرار على العمل بها، فهي وحشية بكل جوانبها، لذلك جاءت قوانين جمعية الأمم المتحدة بحرية العقيدة والعبادة للبشر لتتوافق مع تطور العقل البشري. ونمر هنا على ما جاء من نصائح الديانة البهائية في هذا الخصوص حينما رفع حكم الجهاد والقتال في نشر الدين ورفع حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك حرية العبادة للإنسان ليتعبد ربه كيفما يشاء ولا سبيل لضغط الآخر عليه.

/* قال العالم الأمريكي الحائز على جائزة نوبل "ستيفن واينبرغ": "الدين إهانة لكرامة الانسان، به أو بدونه فسيكون دائماً هناك أناس طيبون يفعلون الخير وسيئون يفعلون الشر ولكنك تحتاج للدين كي تجعل اناس طيبين يفعلون الشر".

لا تمنع جائزة نوبل أن يقدم حاملها رأيّ في غير اختصاصه، فالرجل عالم فيزياء وعندما يقدم رأيه في مواضيع الأخلاق والدين، فهذا امر بعيد عن اختصاصه، ومن المؤكد أنه لم يقرأ ما كان من تعاليم الأديان التي هي أقدم من اليهودية ولم يقرأ عن التعاليم البهائية الحديثة ومناسبتها لهذا الوقت. لذا فقد توافق مع ذات منهج المؤلف حينما تدخل في موضوع الأديان والأخلاق وهو عالم بايولوجي. ولكن عندما تموت الأديان القديمة، تموت معها روحها النابضة الفاعلة ويتأخر علمها فيسبقه العلم بمسافات، وبذلك يتضح الفارق بجلاء ولن يكون بحاجة الى علماء لمعرفته، فكم من أنصاف متعلمين نبذوا الأديان وألحدوا.

/* "بليز باسكال" (صاحب الرهان) قال شيئًا مشابهًا: "لا يقترف الانسان عملا شريراً بسرور وبشكل كامل إلا إذا فعلها بسبب قناعة دينية".

عالم فرنسي في الرياضيات والفيزياء واللاهوت ومخترع، عاش في القرن السابع عشر. يبدو أنه بلور فكرته من خلال مراقبته لأحوال مجتمعه وبقية الشعوب الدينية، حيث كان ما يزال عصر الظلمات في آخر مراحل حياته. لكن دوكنز لم يخبرنا ـ أو بالأحرى لم ينقل لنا ـ هل يوجد على الأرض إنسان في ذلك الزمان بدون معتقد ديني؟ وهل إن جميع المجرمين الذين يرتكبون جرائمهم وهم مسرورين كانوا من معتنقي الأديان في هذا اليوم؟ تبدو قاعدة غير سليمة على الإطلاق.

/* هدفي الأساسي هنا ليس أن أعرض بأنه ليس علينا أن نأخذ أخلاقنا من الكتب المقدسة (رغم أن ذلك هو رأيي الشخصي).

هذا رأي صحيح إذا آمنا بفكرة تطور العقل البشري وضرورة تطور الأحكام إذا كانت سماوية أم وضعية. فالتعاليم التوراتية غاية في الشدّة والقدم حتى إنها أصبحت ممجوجة ولا يطبقها حتى اليهود أنفسهم في دولتهم إسرائيل.

صفحة 251

/* هل العهد الجديد بأفضل حال؟

والجواب قبل ان اقرأ ما سيأتي عليه من رأي، إن أحكام شريعة الإنجيل هي ذاتها الأحكام التي أخذ بها المسيحيين بعدما دمجوا الكتابين معا للقصور الكبير في أحكام شريعة الإنجيل بسبب مقتل السيد المسيح.

/* على فرض أنه (المسيح) وجد.

ما دام يشكك بوجود خالق لهذا الكون ولموجد هذه الهندسة الكونية العظيمة، فليس من المستبعد أن ينكر وجود السيد المسيح.

/* المسيح لم يأخذ أخلاقياته من الكتاب المقدس (التوراة) الذي تربى عليه. بل ابتعد عنه كثيراً. كمثال عندما أهمل موضوع السبت.

لقد أشار القران لاحقًا لهذه النقطة المهمة وأوضحها حينما قال أن لكل رسول كتاب وشريعة خاصة به (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً).[1] ولو عاش السيد المسيح أكثر من ذلك لزاد أحكام في التشريع كثيراً، لكن مقتله قطع ذلك. وعندما يقول: "السبت إنما جعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت".[2] فهو أكبر دليل على أن فك قيد يوم السبت بيد قدرة السيد المسيح الذي لولاه لما أمكن إبطال قوته. ودليل على ضرورة تطور أحكام الشريعة مع الزمن وتطور المجتمع البشري، فها هو يقول إن قوانين الشريعة تنزل من اجل رخاء الانسان وسعادته وليس العكس. لذلك لا غرابة أن يأتي ببعض الأحكام الجديدة، فيها ما يخالف أحكام شريعة التوراة، فلا يظهر نبي أو

---

[1] - سورة المائدة 48.
[2] - إنجيل مرقس 27:2.

رسول إلا من بين أمة لها دين سابق، فلا يأتي النبي من اللامكان حتى يلومه على مخالفة شريعة آبائه. إضافة الى أن تغيير الأحكام ـ كما ذكرنا ـ مهمة وعمل كل رسول، كما حدث في أحكام شريعة الاسلام لاحقًا، وفي احكام شريعة البهائية حاليًا.

/* أما بالنسبة لرأيه (السيد المسيح) بالعلاقات العائلية فهي ليست مباشرة تلك الآراء التي أحدنا يرغب بتقليدها. لقد كان معاكساً، بل عاقًا، حتى مع أمه، وشجع تلاميذه أن يتركوا عائلاتهم ويتبعوه.

من يفكر بطريقة مادية بحتة، يستحيل عليه تصور جوهر الدعوات الروحانية. ولنضرب مثالاً مادياً قريباً على ذلك، فالأمثال تقرب المفاهيم. ألم يحدث خلال تفرغه أو تفرغ العلماء في بحوثهم أن تركوا عوائلهم لأيام أو اسابيع أو أشهر حينما سافروا الى مناطق بعيدة توجب دراستها على الطبيعة لتحقيق هدف علمي؟ وعلى ذات المنوال فطالما كان دعوة السيد المسيح أخلاقية روحانية، كان لا بد من التفرغ لها تماما. ثم ألا يحدث أن يبعد المفكر أو الكاتب عن ضوضاء الأولاد وهو في مكتبه او وسط المختبر أو في خضم لحظات التفكير المركزة؟ بالطبع يحصل ذلك فشدة التركيز تتطلب السكون والتفرغ التام. فكلما عظمت الأعمال إزداد التركيز واشتد الاهتمام وغفل الانسان عن أحداث محيطه. والسيد المسيح كان عالماً بحجم خطورة وعظمة مهمته، ولو كان لا يعلم ذلك لكان بمقدوره التراجع حالما اشتد وعسر عليه الموقف وازداد صعوبة وقبل أن يبدأ جنود الرومان بتعذيبه أو حتى صلبه، لكنه كان عالماً ان ما يجري هو الذي سيثبت دعوته في قلوب أتباعه وينشرها في العالم حينما أوصاهم بنشرها من بعده. ومثل هذه الاضطهادات لم تقتصر عليه لوحده، فجميع رجال الله القديسين نالوا قسطاً وافراً من ذلك، فعلى سبيل المثال، عذب النبي مانوا أشد التعذيب وسلخ جلده وحشيَّ تبنًا وقطع رأسه، ثم ما نال الامام الحسين من تعذيب وكيف قتل أبشع قتلة وكيف حزَّ رأسه ومشت سنابك الخيول على صدره، إضافة الى ذلك فلقد ضحى بجميع من كان معه من الرجال ومن أولاده الذكور وسبيت عائلته، والنبي محمد نال من التعذيب والمهانة حتى فاق ما ناله المسيح نفسه، وصوّر ذلك الأذى بمقولته الشهيرة (ما أوْذي نبي بمثل ما أوذيت)، لقد حاربه جميع أقاربه وأبناء قبيلته إلا بضعة أفراداً منهم، ولم يترك دعوته الروحية حتى قال: (لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر حتى أموت دونه). ثم اقرأ عن عليمحمد الباب وكيف جلدوه وضربوه فلقة على أسفل قدميه وسجن طوال فترة دعوته تاركًا زوجته الشابة، وإليك خبر بهاء الله وكيف بقي منفياً وسجيناً مسلسلاً بالأصفاد أربعين عاما مع إنه كان من أثرى اثرياء الدولة القاجارية. لقد كان بإمكان جميع هؤلاء النفوس المقدسة التراجع في لحظة معينة لو كانت أهدافهم مادية، فالعاقل لا يرمي نفسه في التهلكة وهو يبتغي أهدافًا مادية، فهذا مخالف لحقيقة مطلبه البشري. فكلما ارتقى الهدف الروحاني، كلما زاد بعاده عن الأمور المادية، والأهل والأبناء والثروة والمركز الاجتماعي، هي من أشد الأمور مخالفة للحياة الروحانية؛ لذلك تجد مثل هذه التصرفات التي يراها وأمثاله أنها مخالفة لطبيعة البشر المادية.

أما ما ذكره السيد المسيح بخصوص العلاقات العائلية، فلم يكن من هو بهذه القوة الروحانية الإلهية والعائلية أن يدعو لما فهمه؛ إلا المقصود ان تأسيس السلام العالمي على الأرض وتأسيس مملكة الله والصلح العالمي لن يكون في زمان دعوته بل سيكون في المسقبل حين مجيء الآب السماوي (بهاء الله)، لأن البشرية لم تكن قد نضجت في زمن المسيح لتتمكن من فهم أو تطبيق مثل هذا البرنامج العظيم، فهو بحاجة الى عقول بمستوى عالي، وهذا لم يكن قد حصل في زمن السيد المسيح ولا في زمن دين الاسلام. بينما يمكن ملاحظة الفرق الشاسع بين مستوى البشرية التعليمي والثقافي في هذا اليوم وفي ذلك الزمان بكل سهولة، وكيف حانت الدعوة اليوم الى تطبيق المبادئ العالمية، فالشعوب البشرية بدأت تتقرب لبعضها من خلال وسائل الثقافة والتعليم والترجمة والتقنية ووسائل الاتصال التي قاربت بين الناس وما راح يجري من تنافس بين لغات العالم لتكون هناك لغة عالمية واحدة.

صفحة 252

/* ينتقد بساطة قصة جريمة آدم وحواء ومخالفتهما للأوامر الإلهية بعدم الأكل من الشجرة، ويقول:- (إن بعض التوبيخ كان كافيًا). وهذا رأي صحيح مما يدل بالتأكيد على رمزية القصة، فليس من المنطق ان تتحول هذه المخالفة البسيطة الى عقوبة تشمل جميع الجنس البشري (هم وكل نسلهم حرموا للأبد من جنات عدن ومنعت عنهم الحياة الأبدية ولعنوا لأجيال من العمال الشاق في الحقول وآلام الولادة).

ولا يسعني هنا إلا أن أورد ما جاء عن عبد البهاء مبين تعاليم الدين البهائي، عندما سُئِل عن حقيقة موضوع حضرة آدم وأكله من الشّجرة، قال:-

[ الجواب: **ذكر في التّوراة "وأخذ الرّبّ الإله آدم ووضعه في جنّة عدنٍ ليعملها ويحفظها وأوصى الرّبّ الإله آدم قائلاً من جميع أشجار الجنّة تأكل أكلاً وأمّا شجرة معرفة الخير والشّرّ فلا تأكل منها لأنّك يوم تأكل منها موتًا تموت"** إلى قوله **"فأوقع الرّبّ الإله سباتًا على آدم فقام فأخذ واحدةً من أضلاعه وملأ مكانها لحمًا وبنى الرّبّ الإله الضّلع التّي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم"** إلى أن يقول **"فدلّت الحيّة المرأة على الأكل من أثمار الشّجرة الممنوعة وقالت إنّ اللّه منعكما عن تناول هذه الشّجرة لئلاّ تنفتح عيناكما وتعلمان الخير والشّرّ ثم تناولت حوّاء من الشّجرة وأعطت لآدم فوافقها آدم أيضًا ففتحت عيناهما ووجدا نفسيهما عريانين وسترا عورتيهما من ورق الشّجرة، ثم عوتبا بعتابٍ إلهيّ "فقال اللّه لآدم هل أكلت من الشّجرة الممنوعة فقال آدم في الجواب إنّ حوّاء دلّتني فعاتب اللّه حوّاء فقالت حوّاء إنّ الحيّة دلّتني وصارت الحيّة ملعونة وحصلت العداوة بين الحيّة وسلالة آدم وحوّاء وقال اللّه صار الإنسان نظيرنا واطّلع على الخير والشّرّ فلعلّه تناول من شجرة الحياة فيبقى إلى الأبد فحفظ اللّه شجرة الحياة."**[1]

[1] - التّوراة، سفر التّكوين الأصحاح الثّاني والثّالث. 15:2.

فلو أخذنا هذه الحكاية حسب المعنى الظّاهريّ للعبارات وحسب المصطلح عليه بين العامّة لهي في نهاية الغرابة، ويستحيل على العقل أن يقبلها ويصدّقها ويتصوّرها، لأنّ ترتيباً وتفصيلاً وخطاباً وعتاباً كهذا بعيد أن يصدر من شخصٍ عاقلٍ، فكيف من الحضرة الإلهيّة التّي رتّبت هذا الكون اللاّمتناهي على أكمل صورة وزيّنت هذه الكائنات التّي لا عداد لها بمنتهى النّظم والإتقان وغاية الكمال، فلتفكّروا قليلاً لأنّه لو نسبت ظواهر هذه الحكاية إلى شخص عاقل فلا شكّ أنّ عموم العقلاء ينكرونها، ويقولون إنّ هذا التّرتيب والوضع لا يصدر يقيناً من شخصٍ عاقلٍ أبداً، من أجل ذلك فحكاية آدم وحوّاء هذه وتناولهما من الشّجرة وخروجهما من الجنّة جميعها رموز ومن الأسرار الإلهيّة والمعاني الكلّيّة، ولها تأويل بديع ولا يعرف كنه هذه الرّموز ومعانيها إلاّ أولوا الأسرار والمقرّبون لدى اللّه الغنيّ المتعال، وإذاً فلآيات التّوراة هذه معانٍ متعدّدةٍ نبيّن معنى واحداً منها فنقول أنّ المقصود من آدم روح آدم ومن حوّاء نفس آدم لأنّ في بعض المواضع من الكتب الإلهيّة التّي يذكر فيها الإناث يقصد منها نفس الإنسان، والمقصود من شجرة الخير والشّرّ هو عالم النّاسوت، لأنّ العالم الرّوحانيّ الإلهيّ خير محض ونورانيّة صرفة، وأمّا في عالم النّاسوت تجد حقائق متضادّة من نور وظلمة وخير وشرّ.

والمقصود من الحيّة هو التّعلّق بالعالم النّاسوتيّ، وقد أدّى تعلّق الرّوح بالعالم النّاسوتيّ إلى حرمان روح آدم ونفسه وإخراجه من عالم الحرّيّة والإطلاق إلى عالم الأسر والتّقييد وصرفه النّظر عن ملكوت التّوحيد متوجّهاً إلى عالم النّاسوت، ولمّا أن دخلت نفس آدم وروحه في عالم النّاسوت خرج بذلك من جنّة الإطلاق والحرّيّة إلى عالم الأسر والتّقييد وبعد أن كان في الخير المحض وعلوّ التّقديس ورد على عالم الخير والشّرّ.

والمقصود من شجرة الحياة هو أعلى رتبة في عالم الوجود، وهي مقام كلمة اللّه والظهور الكلّيّ، لهذا احتفظ بذلك المقام حتّى ظهر ولاح في ظهور أشرف المظاهر الكلّيّة، لأنّ مقام آدم كان كمقام النّطفة من حيث ظهور الكمالات الإلهيّة وبروزها، ومقام حضرة المسيح كان كمقام رتبة البلوغ والرّشد، وكان طلوع النّيّر الأعظم هو في مرتبة كمال الذّات والصّفات، ولذا كانت شجرة الحياة في الجنّة العليا هي عبارة عن مركز التّقديس المحض والتّنزيه الصّرف أي المظهر الكليّ الإلهيّ، وما كانت الحياة الأبدية والكمالات الكلّيّة الملكوتيّة من دورة آدم إلى زمان حضرة المسيح شيئاً يذكر، فشجرة الحياة كانت مقام حقيقة المسيح وهي التّي غرست في الظّهور المسيحيّ وتزيّنت بالأثمار الأبديّة، فلاحظوا الآن كيف أنّ هذا التّأويل يطابق الحقيقة، لأنّ روح آدم ونفسه لمّا أن تعلّقت بالعالم النّاسوتيّ خرجت من عالم الإطلاق إلى عالم التّقييد، وتسلسل نسلاً بعد نسل بصورة مثلى، وهذا التّعلّق الرّوحيّ والنّفسيّ بالعالم النّاسوتيّ المعبّر عنه بالعصيان بقي موروثاً في سلالة آدم،[1] وهذا التّعلّق كان حيّةً تسعى ما بين أرواح سلالة آدم إلى الأبد وبه استقرّت العداوة واستمرّت، لأنّ التّعلّق النّاسوتيّ أصبح سبب تقيّد الأرواح، وهذا التّقيّد هو

[1] - غضب آدم واربدت سيماه، ثم امتلأت بالحزن حناياه، واغرورقت بالدمع مقلتاه.. وأعول وبكى، وعلى الأرض ارتمى.. وطوح بساعديه، وضرب أضلاعه بيديه .. قال: ... لم أقض في العالم سوى ألف عام.. وأتمنى أن أعيش فيه ثانية ألف عام. (كتاب كنزا ربا اليسار صفحة 3 ).

عين العصيان الذّي سرى من آدم إلى سلالته، إذ أنّ هذا التّعلّق أضحى علّة حرمان النّفوس من تلك الرّوحانيّات الأصليّة والمقامات العالية.

ولمّا انتشرت نفحات قدس حضرة المسيح وأنوار تقديس النّير الأعظم فالحقائق البشريّة أعني النّفوس التّي توجّهت إلى كلمة الله واستفاضت من فيوضاته تخلّصت من ذلك التّعلّق والعصيان وفازت بالحياة الأبديّة وانطلقت من قيود التّقليد واهتدت إلى عالم الحرّيّة والإطلاق وبرئت من رذائل عالم النّاسوت واستفاضت من فضائل عالم الملكوت، هذا هو معنى الآية القائلة **"بدمي الذي يسفك عنكم"**[1] يعني اخترت جميع البلايا والمحن والرّزايا حتى الشّهادة الكبرى للحصول على هذا المقصد الأسمى ودفع الخطيّة بانقطاع الأرواح عن عالم النّاسوت وآثرت انجذابها إلى عالم اللاّهوت حتّى تبعث نفوس تكون جوهر الهدى ومظهر كمالات الملكوت الأعلى.

لاحظوا أنّه لو كان المقصود هو المعنى الظّاهريّ بحسب تصوّر أهل الكتاب لكان ذلك ظلماً محضاً واعتسافاً صرفاً، فلو أنّ آدم أذنب باقترابه من الشّجرة الممنوعة، فأيّ ذنبٍ جناه الخليل الجليل وأيّ خطأ اقترفه موسى الكليم وأيّ عصيانٍ فعله نبيّ الله نوح، وأيّ طغيانٍ برز من يوسف الصّدّيق وأيّ فتورٍ وقع لأنبياء الله وأيّ قصورٍ صدر من يحيى الحصور، فهل تقبل العدالة الإلهيّة أن تبتلى هذه المظاهر النّورانيّة بالجحيم الأليم من أجل عصيان آدم حتّى يأتي المسيح ويصير قرباناً لينجو هؤلاء من عذاب السّعير؟ فتصوّر كهذا خارج عن كلّ القواعد والقوانين ولا يقبله كلّ عاقلٍ واعٍ أبداً، بل المقصود منه ما ذكرناه، فآدم روح آدم وحواء نفس آدم والشّجرة عالم النّاسوت والحيّة هي التّعلّق بعالم النّاسوت، وهذا التّعلّق المُعبّر عنه بالعصيان سرى في سلالة آدم، وقد نجّى حضرة المسيح النّفوس من هذا التّعلّق بالنّفحات القدسيّة وخلّصهم من تلك الخطيئة والعصيان، وهذا الذّنب بالنّسبة لحضرة آدم بحسب المراتب، وإن كان قد حصل من هذا التّعلق نتائج كلّيّة لكنّ التّعلّق بالعالم النّاسوتيّ بالنّسبة إلى التّعلّق بالعالم الرّوحانيّ اللاّهوتيّ يعدّ ذنباً وعصياناً ويثبت في هذا المقام منطوق "حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين" فكما أنّ القوّة الجسمانيّة قاصرة بالنّسبة إلى القوّة الرّوحانيّة بل نسبة هذه إلى تلك هو عين الضّعف، كذلك تعدّ الحياة الجسمانيّة مماتاً بالنّسبة إلى الوجود الملكوتيّ والحياة الأبديّة، كما أنّ حضرة المسيح سمّى الحياة الجسمانيّة موتاً فقال **"دع الموتى يدفنون موتاهم"**[2] ومع أنّ تلك النّفوس كانت حيّة بالحياة الجسمانيّة ولكنّ تلك الحياة كانت موتاً في اعتبار حضرة المسيح، هذا معنى واحد من معاني حكاية حضرة آدم المذكورة في التّوراة فتفكرّوا أنتم أيضاً حتّى تهتدوا إلى المعاني الأخرى والسّلام.].[3]

---

[1] - إنجيل لوقا، 20:22.

[2] - إنجيل لوقا، 60:9.

[3] - كتاب مفاوضات عبد البهاء على المائدة. قسم 26 صفحة 78.

/* ينتقد تعليق المسيحيين لرمز الصليب حول أعناقهم، (العهد الجديد أضاف ظلما آخر مُطعم بسادومازوشية عنيفة لا تقارن حتى بالعهد القديم... أن دين ما يتبنى أداة للتعذيب والاعدام كرمز مقدس).

لن تجد مثل هذا الحكم والأمر قد صدر من السيد المسيح نفسه. بل هذا من فعل رجال الدين واختراعاتهم، فإلقاء اللوم على السيد المسيح ما هو إلا تجنّي على حضرته.!

/* بعدما شكك بوجود الله وبوجود السيد المسيح وبالأناجيل، نراه يتبنى صحة إنجيل اكتشف قبل عدة قرون ويقال إن ليهوذا الاسخريوطي! (يعتبر الإنجيل الضائع الذي كتبه يهوذا وقد تُرجم حديثا وبالتالي أصبحت له سمعة.).

ماذا يمكن وصف مثل هذه الطريقة في تأليف كتاب، وما الغاية منها؟ أهو التدليس أم الكذب أم بث سموم الشكوك في القلوب والعقول؟ إن مثل هذا التصرف لا يتفق حتى مع فكرة (الغناء خارج السرب). أكل هذا الكذب والتزوير بسبب كراهيته للأديان ولله؟ إن أمر هذا الرجل عجيب، فأنا معه من أول الكتاب حتى الان وكما يلاحظ القارئ قد رددت على جميع نقاط كتابه حتى الآن ـ ولا اعلم إن كان باستطاعتي الإجابة على البقية الباقية أم لأ ـ لكن كل ما استنتجته حتى الان أن الرجل يبتغي أمراً، وبما أنه رجل عاقل، فمن المؤكد أنه قد أمن على نفسه من الاعتداء فهو يعيش في بلد ديمقراطي يحفظ حقوق أفراده وحقوق معتقدهم وكلمتهم؛ إذن لا بد وأن يكون الهدف هو الشهرة أو المال ليس غير ذلك. وإلا ما سبب كل هذا التخبيص؟ فهو يعلم أن الله أو السيد المسيح لن ينزلا من عليائهما للدفاع عن ذاتيهما، لذلك فهو مطمئن من سلوكه هذا. ولكن دعونا نفكر قليلاً، ولنفرض أنه رجل مسلم يعيش في بلد اسلامي، فهل سيتجرأ بقول حرف واحد من هذا الكلام؟ لا أظن ذلك ولنا في مثال سلمان رشدي خير دليل. وهذا ما يسمى في عرف القانون (التعسف في استعمال الحق)، فقد استغل بشكل سيء جداً ما يتمتع به من حرية، فلم يهاجم أي سياسي أو رجل دين أو قسيس أو حتى زميلاً له او صديق، لأنه يعلم جيدا أنه إن لم يكن مصيره السجن، فستكون غرامة مالية موجعة وهو ما ينئى بشدة البعاد عنه. لكنه استهدف ذاتين مقدستين لهما منهاجاً وبرنامجاً لتربية العباد منذ بدء الخليقة ويعلمان كم مرّ عليهما من مثل السيد دوكنز فتركوهم حتى تنتهي حياتهم المادية وتأتي أرواحهم اليهما للمحاسبة. إذ لا يمكن ان يكون هذا الكون المنظم بهذه الهندسة البديعة قد وجد بالصدفة او اوجدته الطبيعة ذاتها فهذه تخريجة غاية في السذاجة، فالطبيعة مقيدة بقوانين لا تحيد عنها، ولا بد ان يكون هناك موجد وخالق دلَّ على ذاته في كتبه المتصلة المتسلسلة واحدتها بالأخرى ومن خلال تبشير وتحذير كل رسول لقومه بضرورة الايمان برسولهم التالي وترك كلٌ منهم إشارات وبشارت تدل على ذلك. ومثل هذا الإشارات والبشارت والنبوءات ليس لغاية سوى ترييتهم، لذا فهو أكبر دليل على وجود إله له رسل وأنبياء وشرائع وكتب، وأنه أعلن دائماً انه خالق السموات والارض وما بينهما، وأن من شاء الأيمان، فليؤمن، ومن شاء الكفر، فليس هناك إجبار على البشر والجميع أحرار

في عبادته او لأ، إن أن الهدف الإلهي من تربية البشر جرى وسيجري إن آمن هذا أو كفر ذاك.

صفحة 253

/* يتساءل عن فكرة خطيئة آدم:- (ما تلك الفلسفة الأخلاقية التي تحكم كل طفل، حتى قبل ان يولد، ليرث ذنب الفلسفة الخلاقية؟).

مرة أخرى، إنها فكرة خاطئة نتجت عن تفسير بشري للقصة الرمزية. والكاتب يشير الى مختلقيها بالأسماء في صفحته، لكنه يتركهم ويوجه انتقاده الى الله والسيد المسيح!

صفحة 254

/* آدم، الخاطئ المفترض الذي اقترف الخطيئة الأصلية، ليس له وجود بالأساس.

ما زالت بقايا أمة النبي آدم موجودة وتسمى بالمندائية أو الصابئية، وتعاليم آدم موجودة كذلك ـ وقد جئنا على شيء منها ـ فآدم حقيقة كانت موجودة. ولولا ترجمتها عن لغتها الأصلية لما عرفنا بذلك وبقيت سراً خاصاً بمجموعة منسية من البشر.

/* (لأجل أن يثير المسيح انطباعا مؤثراً في نفسه فقد ترك نفسه يُعذب ويُعدم في عقوبة مروعة لأجل ذنب رمزي ارتكبه شخص لم يوجد أصلا؟).

هذا ما يظنه وما علّمه أياه رجال دينه، فليس من المفروض أن ينقل تنقل ملائمتك الى مؤسس الديانة المسيحية، فهي أحل وأعمق من أن يرقى اليها من هو بهذا الفكر البسيط. ونعود للقول أننا نعلم إن السيد المسيح كان رجلاً حكيماً عاقلاً بين قومه، والحكيم لا يرمي نفسه في التهلكة والعذاب ويترك الدنيا وملاذها دون سبب، لأن اهتمام الانسان العاقل المادي ينصب على شؤون الدنيا وفوائدها. لكن المسيح كانت غايته أعظم من ذلك ليس لها علاقة بالمال والشهرة. فهذه الأمور لا تنفع ولا تفيد بعد العذاب والموت.

صفحة 255

/* إن الكوميديا السوداء التي أتى بها جون هارتونغ واضحة...).

مثل هذه القصص والمداخلات والنصوص المنقولة من صحف ومجلات ومقابلات وآراء كتّاب وأساتذة يستشهد الكاتب كثيرا بها، فلا اتناول منها إلا ما يستند عليه ويبلوره من آرائهم وتعليقاتهم، ولو فعلت، لأصبح هذا الكتاب مملاً مترهلاً يحيد عن هدفه في كثير من الأحيان.

كمثال على ذلك، في الصفحة 257، يتناول استبيان علمي أجري لمجموعة من الشباب اليافع (8-14) سنة، ثم يستند على رأي هؤلاء الاطفال في أسس آراء كتابه.

صفحة 259

/* وبستنتج أن (الدين هو الفرق بين الأطفال الذين يلعنون المذبحة وأولئك الذين يباركونها).

بل هي التربية في الأساس، فهو لو علّم إبنه كره جاره أو أعطاه فكرة مستمرة عن شرور زملاء حارته أو جنونهم، فسيكبر ويحيا على ذات الفكرة. إنه موضوع تربوي وليس موضوع ديني.

ما زال مستمرًا في انتقاد ما جاء عن جون هارتونغ... صفحة 260

صفحة 261

/* الدين قوة للتفرقة وبدون شك وذلك أحد الأسباب الرئيسية التي تؤخذ عليه.. الدين هو علامة للتمييز بين داخل الجماعة وخارجها.

منطق أعوج حينما يبتغى من وراء الخلط بين تصرفات الرسل والأنبياء المثلى في الإيثاء وبين تصرفات أتباعهم التعصبية التي أساءت لتعاليم أديانهم. إضافة الى ذلك، فقد سبق وقلنا أن من يشاء النظر الى قوة آثار الأديان، عليه بتفحص أولى آثار عهود روادها الأوائل زكيف تغلغلت روح الفداء والتضحية فيما بينهم ، وسيعجز تماما عن حجب ما سيرتسم من علامات الإعجاب على معالم وجهه لذلك الإيثار والفدائية والمحبة الخالصة فيما بينهم.

صفحة 262

يعود لينسب الأحقاد والقتال بين أهل الأديان والمذاهب الى الأديان نفسها، بينما سبق وذكرنا ان الحروب والقتال مسألة خاصة بمشاعر العنف داخل نفس الإنسان بسبب تعلقه بالطبيعة المادية، وذكرنا أمثلة على ذلك، كما لا يجب نسيان بقية مسببات البغض والكراهية لأفعال القتل، مثل:- السياسة العرجاء، وهم الوطن، العرق، الهمينة، الاستعمار، السرقات، اختلاف اللغة، الاقتصاد المتهالك، الحاجة المادية، الحسد، التنافس، ضعف المرأة، التنافس من أجل البقاء، شحة الماء والأرض وما الى ذلك وصولاً الى القتال بين مشجعي كرة القدم..الخ.

صفحة 263

/* ينتقد وصم الأطفال بأسماء مذاهبهم.

مسألة صحيحة حيث لا يجب تعليم الأطفال مسألة الإنتماء الديني وترك للطفل حرية اختيار عقيدته ودينه كيفما يشاء حين نضوجه.

/* ينتقد تدريس الدين للأطفال.

وهذا أمر صحيح، فالمفروض ان يتعلم الطفل الأخلاق الحسنة والتعاون بين بني البشر، اما الإنتماء الديني فيترك له اختيار ذلك حين كبره.

/* ينتقد مسألة تحريم الزواج المختلط.

رأي صحيح، منع الزواج من أديان او مذاهب أخرى مختلفة يزيد من حدة التعصبات والكراهية بين الناس، أما الإقرار بالعكس فيزيد من التآلف والتآخي بين الشعوب.

صفحة 265

/* يقدم لا ئحة بوصايا الملحدين العشرة إسوة بالوصايا العشرة للنبي موسى. ولقد جاءت وصايا أخلاقية جميلة في مجملها تتناسب مع المنظور الأخلاقي العام، إلا أنه لابد من التعقيب عليها. فما ذَكره في المبدأ الأول والثاني والثالث والرابع سبق وجاء ذكره في جميع الكتب الإلهية، بل وأقوى منها. أما الدعوة الى (عش حياتك بفرح وأندهاش)، فهذا أمر ليس بيد الإنسان أن يفعله إذا أحاط به أناس مزعجين آخرين، كما أن موضوع الإندهاش لا علاقة له بالأخلاق. أما (أسعى دائماً للمعرفة المتجددة)، فهو مبدأ مقتبس أيضاً ولقد سبق وجاء به النبي محمد (أطلب العلم من المهد الى اللحد). وكذلك في تعاليم بهاء الله حينما أمر بتعليم الطفل حتى ولو بإجبار الوالدين اذا رفضا ذلك، وفضل تعليم البنت على الولد في حالة العسر، كما أمر بتعليم مهنة أو صنعة الى جانب الحياة الدراسية لتعينه في كسب عيشه إذا ساءت الظروف الاقتصادية والإدارية وقلت الوظائف الشاغرة، بل وشجع على الأعمال الحرة.

ما يجلب الانتباه هو المبدأ السابع: ( "آ" اختبر وتأكد من كل شيء: قارن أفكارك مع الوقائع، "ب" كن مُستعدا لترك حتى اهم ما تؤمن به إذا لم يتطابق مع الوقائع).

في النقطة "آ": جاءت من اولى تعاليم الديانة البهائية (تحري الحقيقة). أما بالنسبة لـ "ب"، فالنصح بترك ما تؤمن به هو من أصعب الأمور على النفس البشرية وليس من السهل على أي إنسان فعل ذلك. وبدلاً من ذلك، إتخاذ سبيل المشورة وتبادل الرأي ثم إتخاذ القرار يبدو أكثر عقلانية، وهذا أيضا ما تأمر به الديانة البهائية حيث تقوم مؤسساتها الإدارية على مبدأ المشورة وتبادل الآراء حينما يقول عبد البهاء: تصادم شرارات الأفكار تظهر أنوار الحقيقة.

في المبدأ الثامن، يدخل في مطلب المبدأ السابق: (لا تمنع أحد عن ابداء الرأي ..). وهي دعوة لحرية الرأي والفكر والعقيدة وما الى ذلك، وهذا من مبادئ الديانة البهائية الأولى أيضا جاري العمل به منذ ظهورها.

في المبدأ التاسع: (لا تسمح بان يقودك الآخرين بشكل أعمى). مبدأ مكرر مقتبس سبق وأن جاء عليه. فمبدأ المشورة أفضل منه حيث ان أكثر من عقل يفكرون أفضل من عقل واحد.

أما المبدأ العاشر والأخير: (كن فضوليا في كل شيء). فهي صفة لا بد من وضعها في أطر وحدود لأنها قد تسبب مشاكل مع الاخرين الذين يرفضون الحشرية والتدخل في شؤونهم.

من كل هذا يتضح أنه لم يأت بأمر جديد، فالأديان قد سبق واهتمت قبله بمبادئ الأخلاق والفكر.

صفحة 266

/* يقول:- في إشارته الى ما سبق من اقتراحات (ليست تلك المجموعة من أعمال حكيم عظيم او نبي أو حتى أخلاقي محترف).

بل بالعكس فجميع هذه المبادئ قاطبة وغيرها الكثير مستوحاة من أقوال الأنبياء والحكماء وموجودة في كتبهم؛ أما التبجح بمثل هذا القول، فلا ينم إلا عن جهل بأصول أخلاقيات الأديان، او نوعاً من التغاضي أو غض الطرف عن مبادئها وسرقة أفكارها. فلولا أن هذه المبادئ هي أشهر من أن تشهر، لما توصل اليها.

ثم يتحول بدوره لتقديم وصاياه العشر.

/* تمتع بالحب.

قبل ألفي عام قال السيد المسيح ما هو أعظم وأعمق من ذلك (الله محبة) و (أحبوا أعداكم، أحسنوا الى مبغضيكم).[1] ولكن ماذا تفعل مع من مليء قلبه بالحقد والضغينة تجاه الآخرين، وكيف سيعالج؟

/* (لا تقلل من شأن الآخرين).

ولقد جاء هذا المبدأ قبل أن ينزل حيمن خلقته في ظهر والده. فلقد قال بهاء الله: (عاشروا مع الأديان بالروح والريحان).

/* ولا تظلمهم على أساس الجنس أو العرق .

قال بهاء الله مخاطباً جميع البشر: (كلكم أثمار شجرة واحدة وأوراق غصن واحد).

/* لا تلقن أطفالك بل علمهم طريقة التفكير المستقلة.

هذا مبدأ تربوي ليس بجديد ولا من ابتكار المؤلف، فالكثير من وزارات التعليم في دول العالم تأخذ بطريقته، إضافة الى كثير من العوائل المثقفة.

/* (أحسب حساب المستقبل بمقياس زمني أطول من حياتك).

وهذا ما سبق وقاله الإمام علي بن أبي طالب الذي لم يدخل المدارس ولم يعلق على جدار صالة منزله شهادة الدكتوراه المزوقة قبل أكثر من 1400 عام: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا). ومن المؤكد إن الرجل لم يسمع بها.

---

[1] - إنجيل لوقا 27:6.

*/ (العبودية، كانت تعتبر عادية في الكتاب المقدس وعبر معظم التاريخ الزمني اختفت في الدول المتحضرة في القرن التاسه عشر).

عاد مرة أخرى للمقارنة بين النظم الاجتماعية القديمة التي كان نظام العبيد جزءاً من تكوينها الاجتماعي النابع من عمق التاريخ القديم وانتقاده ومقارنته بالنظم التقدمية في هذا اليوم. ولكثرة غفلته عن قوانين الأديان القديمة، فلا أظنه يعرفها أو سبق واطلع عليها ثم يتغافل عنها بقصد، بل يبدو واضحاً أنه فقير جدا في علوم تراث وعادات وحضارات الشعوب القديمة وأحكام أديانها، فموضوع تحرير العبيد موجود احكامه والتشجيع عليه في القران (تحرير رقبة) و (فك رقبة). كما انه عندما سمع بهاء الله وهو في سجنة في مدينة عكاء ما فعلته فكتوريا ملكة انجلترا حينما سنت الحكومة البريطانية قانون تحريم العبيد في القرن التاسع عشر، كتب لها: (قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكِ مَنَعْتِ بَيْعَ الغِلْمَانِ وَالإِمَاءِ هذا ما حَكَمَ بِهِ اللهُ فِي هذَا الظُّهُورِ البَدِيعِ، قَدْ كَتَبَ اللهُ لَكِ جَزَاءَ ذلِكَ إِنَّهُ مُوفِي أُجُورَ المُحْسِنِينَ).

صفحة 267

*/ (كل الأمم المتحضرة الآن تقبل ما كان محظوراً حوالي 1920م بان النساء تستطيع الاشتراك في الانتخابات وأنهم مساويات للرجال. في أيامنا وفي المجتمعات المتحضرة لا تعتبر النساء كممتلكات، كما كان عليه الحال في أيام الكتب المقدسة).

من أهم مبادئ الديانة البهائية (مساواة حقوق المرأة والرجل)، لذلك يمكنك البحث عن طريق الانترنت ورؤية أعداد النساء الأعضاء في المحافل الروحانية الادارية البهائية في جميع دول العالم حتى بين قبائل أفريقيا وأدغال الأمزون وجزر المحيط الهادي المنعزلة، وهذا القانون البهائي نزل في النصف الثاني منتصف القرن التاسع عشر.

*/ (حق المرأة في التصويت موجود الآن في جميع الديمقراطيات في العالم، ولكن هذا الاصلاح أتى في وقت متأخر جداً لحدٍ مدهش، نيوزيلندا 1893، استراليا 1902، فلندا 1906، النرويج 1913...).

نرى بوضوح مقدار قلة ثقافة المؤلف بتاريخ الأديان، أو أنه حصر اهتمامه على ما كان من قديم قوانينها فراح يكيل لها الانتقاد، ولم يعلم أن "قـرّة العين"، كانت شاعرة وخطيبة وداعية ومفكرة في أظلم عهود الدولة القاجارية وأنها قتلت بسبب دعوتها لتحرير المرأة سنة 1852م في طهران، وأن ما يذكر عنها رفضها التخلي عن دعوتها مقابل ان تكون السيدة الأولى في قصر الشاه، وقالت مقولتها الشهيرة: (يمكنكم قتلي متى شئتم، لكنكم لن تستطيعوا وقف تحرير المرأة).

صفحة 268

/* (من المتفق عليه بين المؤرخين أن لا يحكموا على أقوال من الماضي بمقاييس الحاضر بالنسبة لهم).!!

رغم علمه بهذا القانون وهذه الحكمة، إلا إنه ما انفك يفعل ذلك طوال وقت تأليف كتابته ويشيح بوجهه عنه.!! وقد وردت هذه النصيحة قبل 14 قرنًا: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ).[1]

صفحة 271/270/269

/* (لأبين كيف مضت روح العصر الى الأمام. هناك من هذه الأمثلة الكثير. عقد 1960 المتحرر، أصبح مثال اسطوري لكل الآراء التقدمية العصرية.. شيء ما تغير خلال العقود، شيء تغير فينا جميعًا، وهذا التغير ليس متعلقًا بالدين. بل إنه حدث بالرغم من الدين وليس بسببه. التغيير هذا يتجه بشكل واضح باتجاه واحد، وأغلبنا متفقين بأنه تطور).

ينتبه لقوة التحولات الاجتماعية في جميع المجالات في هذه العقود من تاريخ البشرية التي تختلف عن جميع العقود والعصور السابقة، بل تختلف حتى عن وقت قريب جدًا وقت النصف الأول من القرن العشرين. إلا أن الغريب في الأمر أن يصفه بالاسطوري! ويتساءل ونتساءل معه: هل هناك أمر ما قد تغير!: ماذا حصل بعدما مضت البشرية في مسيرتها الاجتماعية وقوانينها القديمة لملايين السنين حينما كانت تقر جرائم القتل والعبودية واحتلال البلدان وظلم المرأة وخطف سكان أفريقيا لاستعبادهم؟ لماذا استبدل الانسان في بضع سنين قوانينًا وأحكامًا دامت آلاف القرون، وماذا حصل؟ ثم يصف امتداد هذا التغيير الى النفوس والعقول البشرية "جميعا"، لكنه يقدم رأيه فيقول أنه "ليس متعلقًا بالدين"! لماذا؟ لأنه يقيس كل ما حدث بالمقاييس المادية. أما الفيلسوف الكبير آرنولد توينبي فيقول أن كل الحضارات جاءت من ظهور الأديان. ثم يعود ليقول أن ما حدث مخالفًا للفكر الديني، وطبيعي أنه يقصد الأديان القديمة بذلك، الأديان التي عاش في كنفها، ولم يأخذ في الاعتبار ان هناك روح دين جديد قد شملت العالم بتمامه وبعثت روح التجديد في الأشياء والنفوس والعقول وان ما ظهر من تطور في الفكر الانساني الذي بهره وأدهشه إنما من هذه الروح الإلهية العظيمة. لكنه عندما يعلن جهله بالسبب، ويقرر أنه ليس الدين، هنا نقف في صفين متقابلين، نحن نقول أن السبب هو روح البعث الإلهي، والرجل لا يقدم أي سبب آخر. وكما قال توينبي أيضا، إن الآثار الروحانية للأديان لا تترك أثراً ماديًا حتى يمكن قراءته مثل اللقى و الأطلال. فطالما ينكر تأثير الأحكام الإلهية للأديان في نفوس البشر، وطالما يملك روحًا مادية صرفة، فهو وغيره لن يشاهدوا هذه التأثيرات ولن يشعروا بها ، وسيبقون يتساءلون عن سبب هذه الطفرة الحضارية الفكرية والاجتماعية في حياة الشعوب.

صفحة 272

[1] - سورة الصف 2 و 3.

/* (ما هو اذن مصدر تلك التغييرات الثابتة الاتجاه في الوعي الاجتماعي؟ ليست الاجابة من مسؤوليتي. لن هدفي يتحقق عندما أبرهن بانها لم تأت من الدين بأي شكل).

لقد خاب أملك أيها الدوكنز حينما جهلت المصدر الحقيقي لهذه الثورة الاجتماعية والثقافية والعقلية عند الجنس البشري. وما دام لا يعرف، فليسله حق تقول (بأنها لم تأت من الدين بأي شكل). فلقد كان المفروض به يصمت حتى ينضج عقله أكثر وينتظر سماع الرأي الآخر، فليس هو الوحيد الذي ظن أنه أعقل البشر، فهناك من هم أعقل منه بكثير، وقالوا بوجود الله وتأثيرات أديانه على عقول البشر وقلوبهم، وهم فلاسفة عظماء لن يسمحوا له بالوقوف حارساً أمام أبواب مدارسهم، مثل:- (أفلاطون وأرسطو وسقراط وغيرهم) من أعمدة الفلسفة اليونانية والإغريقية والفارسية والصينية والعربية، يساندهم في ذلك لفيف من العلماء والحكماء المعاصرين في الوقت الحاضر.

لم يحدث في القرن الماضي حدث روحاني عالمي مميز إلا ظهور ديانة إلهية جديدة، فقد أعلنت إنها عالمية الأهداف والقوانين وأنها تناسب روحانية وعقلية جميع شعوب البشر وهي تنتشر بازدياد في كل يوم. والحقيقة أنني لم أقرا له حتى الآن ذكره للديانة البهائية، ولا أعلم إن كان ستأتي عليها بشكل مباشر أم غير مباشر، لكن انتقاده للأديان هو بالضرورة انتقاد لكل ما يمت للدين ولله بصلة، والبهائية جزء من ذلك. لكن ما شد الإنتباه ودفع لقراءة كتابه والرد عليه قبل قراءة صفحة واحدة او سطراً منه، هو ما ورد في المقدمة على لسان المترجم "البغدادي" حينما ذكر تحديه بالنيابة للديانة البهائية عن المؤلف، كما هو المثل القائل (القرعة تتباهى بشعر أختها)، وهذا ما دفع لترك ما في اليد وتناول كتابه للرد عليه.

وهنا يمكن القول أن سبب كل هذه الثورة الفكرية والتقدم في قوانين الشعوب الاجتماعية، هو ما اجتاج العالم من أنوار روحانية صاحبت ظهور الديانة البهائية، فلو تفحصت تاريخ حضارات الأمم لوجدت أن ظهور كل حضارة بشرية، كان يسبقها بعقود او قرون ظهور دين سماوي، وهذا ما سبق وأشار اليه الفيلسوف توينبي.

ولكن مثله لن يتقبل هذا الرأي حتى لو وجد كل الدلائل والاثباتات في تاريخ البشرية، وهذا ليس عيباً في شخصه فهو يمثل الآن موجة إلحاد عالية سرعان ما ستختفي مثلما ظهرت من قبل كثير من الأفكار المدمرة.

والحقيقة أنه لم يبرهن أي شيء، لا بإلاثبات ولا بالنفي، مثله مثل الأكمه المولود من بطن أمه فاقداً للبصر فهو ينفي وجود القمر ونوره، فكيف سيُثبت له ويقتنع أن هناك قمراً معلقاً في السماء مكون من الصخور والتراب يقارب حجمه حجم الأرض ولا يقع عليها؟ فهو رجل مادي لا يمتلك حتى رائحة الروحانيات، فكيف يريد ان يشمَّ عبيقها؟!

/* (لماذا تعتبر التغييرات في روح العصر متزامنة بشكل واسع في عدد كبير من البشر)؟

لأنه سبق ووعد السيد المسيح بنزول مملكة الله على الارض وأنها ستصبح جنة الله بما ستأتي به من نظم وقوانين مادية وروحانية، ويتحقق الوعد الإلهي الذي قال بمجيء السلام العالمي بين البشر كما بشّر به التوراة قبل أكثر من 35 قرنًا (فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسمن معا.. والبقرة والدّبّة ترعيان. تربض أولادهما معا، والأسد كالبقر يأكل تبنًا، ويلعب الرضيع على سرب الصلّ، ويمد الفطيم يده على جحر الإفعوان).[1]

صفحة 273

/* عندما يقول إن (شخصيات من القادة اللامعين، بعضهم كان متدينًا والبعض الآخر لم يكن كذلك.. على الرغم من ان مارتن لوثر كينغ كان مسيحيًا فإنه استقى فلسفته عن اللاعنف من غاندي الذي لم يكن كذلك).

تعودنا من المؤلف الإنتباه الى طريقته في إخفاء نصف الكوب الملآن وتوجيه الاهتمام نحو نصفه الفارغ. حيث لا يمكن القول أبدًا أن هناك فردًا واحدًا على الارض من بليارتها السبع جاء من خلفية لا دينية، إذ لا بد وأن عائلته تؤمن بديانة ما، إلا إذا كان هو بنفسه قد قرر التخلي عن دين آباءه وعدم الانتماء الى دين. وعندما يقول ان مبدأ (اللاعنف) الذي اتخذه مارتن لوثر سبيلا في سياسته، فالرجل كان مسيحيًا، والسيد المسيح أشهر من سار على درب اللاعنف، اما أن يحشر معه غاندي ويقول أنه لم يكن يدين بدين من الأديان، فهذا أيضا نوع من التزييف، فغاندي هندوسي الديانة، وهي تؤمن بتناسخ وتواسخ الأرواح وهذا يعني أن روح الانسان تنتقل حين الوفاة إما الى إنسان آخر او الى حيوان أو حشرة لتعود وترقى من جديد أو تعاقب حسب أعمالها الشريرة، وبهذا فهم يحرمون قتل جميع الكائنات الحيّة حتى الحشرات منها، وهذا يعني مبدأ (اللاعنف). كما ان غاندي عاش في انكلترا وهو رجل مثقف وقرأ وعاصر كثير من المفكرين والأدباء والعلماء في القرنين التاسع عشر والعشرين، وبهذا فهو لم يكن بعيدا عن الفكر المسيحي أو النهضة الثقافية التي اجتاحت العالم مثلما هو الحال مع مارت لوثر. في النهاية لا يمكن القول إنهما إبتدعا مبدأ (اللاعنف) فالاثنان من خلفيات دينية تدعو الى اللاعنف، إذا كان من السيد المسيح أم من الفكر الهندوسي.

صفحة 274

/* (تفهمنا بأننا نشترك مع الآخرين بالانسانية، حتى مع الأشخاص من عرق آخر أو جنس آخر، فكرتان مضادتان بصراحة لمحتوى الكتاب المقدس ومصدرهما الأصلي هو علم الطبيعة وخصوصا التطور).

ما يشير اليه هنا، أن مصدر فكر التآخي الانساني ليس من التعاليم الإلهية. لكن إذا علمنا أن علماء الحضارات والأديان والأجناس أثبتوا أن اول المعلمين للبشر قبل ظهور

[1] - توراة سفر إشعياء 6:11.

العلماء والحكماء والمدرسين، كانوا هم الكهنة والمتنبئين والشامان والآلهة والأنبياء في قديم الزمان، لأدركنا ان اصل العلم الذي يتغنى به دوكنز قد وصله عن طريق كاهن كان يعلم الدين القديم للناس أو حتى من ساحر كان يسير بين الأدغال حاملا عصاته وكشكوله ومدخنته. هؤلاء هم أصل العلم ومنهم جاءتنا مبادئه؛ يقول ديورانت: (وعلى هذا النحو كان السحر هو الذي أنشأ لنا الطبيب والصيدلي، وعالم المعادن، وعالم الفلك. لكن الطريق أقصر بين الفلكي والساحر منها في سائر ضروب العلماء).[1] إنه لا يعلم او لا يريد أن يعترف ان أصل العلوم من الأديان. فعندما يعود لمقايسة مبادئ الانسانية اليوم بمبادئ زمن الكتاب المقدس، فهو نوع من التجنّي الحقيقي غير القانوني مرفوض تماما. فكل زمن قوانينه الاجتماعية التي تناسب وقته، كما سبق له وأشار الى الفرق الكبير في مبدأي منتصفي القرن العشرين. فإذا كان هناك فرق بهذا الوضوح بين الأخلاق والنظم الاجتماعية برزت خلال قرن واحد من الزمان، فما باله يبقى مصراً على المقايسة بين زمنه وبين 3500 سنة قبل الوقت الحاضر.؟

/* (إن مؤهلاتي كهاوي في علم الاجتماع وعلم النفس لا تؤهلاني لشرح سبب التناسق الواسع في تغييرات روح العصر).

من يعلم حقيقة قصوره العلمي في اختصاص علمي ما، عليه الابتعاد قدر الإمكان عن الخوض فيه، ولا هو ملزم لعرض بضائعته البائرة امام الناس. فما قرأناه لحد الآن لم يكن سوى مستوى شخص قليل الثقافة يستعرض أفكاره مع صديق بمستواه في مقهى على ضفاف نهر هادئ، وليس بحث علمي له مستوى يؤخذ بالاعتبار. فكل ما اعتمده المؤلف وما كان من روح فكرته هي النفي والاعتراض فقط، ولم يقدم دليلاً علمياً واحداً. لكنه بقي يؤكد أن ما حصل لم يكن بسبب الدين، مع إنه لا يقدم سبباً آخر. بينما في المقابل، نقدم بدورنا سبباً، وهو روح الديانة الجديدة التي عمّت البشرية وأوجدت فيها هذه الروح الخلاّقة. وقد يصفنا بعض الملحدين بمختلف الصفات التي يتداولونها فيما بينهم، لكن شأنهم شأن البدائي او البدوي الجاهل حينما ذهب الى الطبيب ووصف له بأدق الكلمات ما يعانيه من أوجاع وآلام، لكنه عاجز تماما عن وصف الدواء. وفي هذه الحالة لا يمكننا القول أن هذا البدائي الجاهل يحق له مجالسة الأطباء في مناقشة أعراض الأمراض وادويتها لأنه أبدع في وصف ما شعر به.

/* (مهما كان السبب، فإن التعاقب المستمر لمظاهر روح العصر هو أكثر من كاف لنقض الزعم بأننا بحاجة للإله من أن نكون صالحين أو حتى لتحديد ما هو صالح).

هذه نقطة فلسفية مهمة جديرة بالاهتمام، فلو تتبعنا حضارات البشر عبر التاريخ لوجدنا هناك حضارة مرتبطة بالاسلام، اسمها الحضارة الاسلامية وقد كان مؤسسها النبي محمد، وهناك الحضارة المسيحية ومؤسسها السيد المسيح وحضارة يهودية مؤسسها النبي موسى وحضارة فارسية مؤسسها النبي زرادشت وحضارة صينية مؤسسها النبي

[1] - قصة الحضارة المجلد الأول. صفحة 63.

كونفوشيوس وحضارة هندية مؤسسها النبي بوذا، وحتى الحضارة الرومانية فقد تأثرت بالديانة اليهودية مما تعلمه فلاسفة الإغريق واليونان حين سفرهم الى مصر وسوريا؛ فهل هذا التكرار والتأكيد جاء بمحض الصدفة؟ بل حتى حضارات العراق القديمة وهي من أقدم الحضارات لا يستبعد أبداً أن يكون سببها عشرات الأنبياء الذين عاشوا هناك وما زالت قبورهم موجودة حتى اليوم، إلا إذا أزالها الإرهاب في الفترة الأخيرة. لكن وكما ذكر الفيلسوف توينبي، إن الحضارات الروحية وتأثيراتها لا تترك آثاراً مادية لتتبعها.

واليوم هناك حضارة عالمية تنهض في كل مكان، وهناك في المقابل ديانة عالمية تنتشر في كل مكان، أفلا يكون هذا التأثير الروحاني الجديد هو سبب هذه النهضة العلمية التي يتعجب لآثارها دوكنز ويجزم أنه لا يعرف مصدراً لها؟ إن مسألة الإنكار والنفي هي مسألة في غاية البساطة ولا يمكن اعتبارها فكراً أو علماً يعتمد عليه لبناء حضارة إنسانية، فمن يتعصب لرأي ومن يكره شخصاً باستطاعته حتى إنكار وجوده وهو يقف أمامه أو يرى تأثيراته.

صفحة 275

/* (ما يهم هنا ليس موضوع كون هتلر وستالين مُلحدين ولكن موضوع إذا ما كان الإلحاد يؤثر على الناس بشكل منتظم لعمل الأشياء الشريرة. ليس هناك أي دليل ولو صغيراً يدل على ذلك).

الانسان مخلوق روحاني في جسد مادي، لذلك هو بحاجة الى رقيبين أو قوتين تحفظه من شرور نفسه، لأن الجسد يسحبه الى تلبية مطالبه المادية من طعام وشراب وجنس وثروة وسلطة، فهذا الرغبات ومثلها إنما هي رغبات حيوانية يتشارك بها الانسان مع الحيوان، فإذا لم تخمد بمبادئ الأخلاق والخوف من غضب الله فستنتشر وتتوسع لتشمل المحيطين به، فإذا ما سنحت له الفرصة والوضع الاجتماعي لتولي مركزاً سلطوياً تتأجج في نفسه هذه الرغبة الشيطانية ويبدأ بالتفكير في كيفية تغذيتها بحطب أطماعه، وعندما يجد له مناصرين ويقوى عوده ويستلم سلطة، يسعى لنشر فكرته بشكل عام بالترغيب او الترهيب أو بالاقصاء او النفي او القتل والإبادة وهذا ما فعلته تلك الشخصيات الاجرامية أمثال ستالين وهتلر وموسوليني وماو تسي تونج وصدام وبول بوت وجنكيز خان وهولاكو وغيرهم الكثير، إنهم ناقصي الضمير والأخلاق التي منشئها الروحانيات التي هي تأتي أصلاً من الأديان، وطالما لا يوجد الرقيب الاجتماعي والمحاسب القانوني وطالما كانوا هم القانون ومصدره، فسيكونوا في حرية تامة لفعل ما يشاءون وما يظنونه صحيحاً، كما قال أحدهم متبجحاً متنمراً: (ما هو القانون؟ هو سطر أمسحه وأكتب غيره).! أو لتنفيذ فكرة جاءت أصلاً من مفكر او فيلسوف غير ثابت الفكر آمنوا بما طرحه من أفكار مثل العنصر النقي والدين الحق والمقدس، فأصل جرائم هؤلاء تأتي من البشر الذين يضعون مثل هذه الأفكار في رؤوسهم؛ مثل هذه الأفكار قد تكون في مظهرها وفي أول انتشارها جميلة الوقع على النفوس وتستهوي مناصري أفكار العصور القديمة، لكنها بعدما تنمو وتكبر ويشتد عودها وتظهر أنيابها ومخالبها، يتضح مقدار حجم ضررها ووحشيتها تجاه

الآخرين او حتى تجاه شعوبهم وأنصارهم أو تجاه الانسانية ككل، وعندما يصطدم هؤلاء الأشرار بنتائج سوء أعمالهم يكونوا قد علقوا وانغمسوا في سلسلة من الشرور الفردية كالاغتيالات الفردية أو الجماعية أو عمليات الإبادة الجماعية ولا يعد بالإمكان تراجعهم فلعبتهم أصبحت الموت ولا غيره. لذلك كلما طالت أعمارهم كلما ازدادت شرورهم نحو غيرهم. وهذا ما يدعو الى الانتباه لما يقدمه المفكرين والفلاسفة من آراء قبل الانتباه الى الأشرار، فأصل الشر يأتي من الفكرة وليس من العمل، فلا يقدم إنسان على عمل ما إلا بعد اختمار الفكرة في رأسه، وكما قال ابن خلدون ثمرة الفكرة بداية العمل. لذلك نحن الان في بداية انتشار فكرة إلحادية شيطانية ظاهرها الحرية واللطافة بشكلها العام، إلا أنها ستكون وبالاً في نهاية المطاف أسوأ كثيراً من فكرة النازية والشيوعية والشوفينية والدعوات القومية، حيث ستظهر موجة جيدة تؤمن بالمادية الحيوانية التي لن يردعها رادع أخلاقي طالما أنها تدعو الى نكران القوة الإلهية التي تسيطر على النفس البشرية، فلا يتبقى سوى قوة السيطرة الاجتماعية (القانون)، فإذا ما اختفى هذا في اوقات الفوضى والحروب والانتفاضات والحوادث السلبية العامة، فلن يوقف هؤلاء مانع من ارتكاب أكبر الشرور، صحيح أن هناك من الملحدين من يتسم بالأخلاق، لكن سبق وقلنا أن بقايا هذه المبادئ الجيدة قد ورثت من مبادئ الأديان السابقة وهي ليست دوافع نفسية فردية ذاتية المنبع بأي شكل من الأشكال، لأن الانسان بدون دوافع روحانية ما هو إلا وحش كاسر يؤذي كل من حوله، وطالما يطالب غيره بالكف عن التدخل في شؤون الغير بحجة مبدأ الحرية، فسيطالب في المقابل بتمتعه بالحرية الحيوانية، وهذا ما سيجر المجتمعات الى قانون الأقوى. لذا لا يمكن الظن إن الانسان الملتزم بالأخلاق في الشعوب الراقية إنما جاء بأخلاقه من ذاته، بل هي موروث اجتماعي ديني قديم ما زال يتمتع بممارسة شيء منها، إما عندما يقتنع هذا المتخلق أن بإمكانه فعل ما يحلو له، فلن يتأخر بخلع رداء الالتزام ليتماشي في سلوكه مع عموم المجتمع، فالانسان سريع عطب الأخلاق والضمير إذا ما خلت ساحة المجتمع من الضمير والايمان وسيسارع الى تلبية غرائزه الحيوانية مثله مثل أي حيوان آخر، لأن الفارق الحقيقي بينه وبين الحيوان هو الأخلاق المستمدة أصلا من الأديان، فإنسان الغاب القديم لا يمكن ان يكون قد استوحى مبادئ الأخلاق من الطبيعية مهما كانت بسيطة، لأن الطبيعة لا تعلّم الأخلاق، فقانونها ومبدأها هو القوة المجسمة صورتها في عالم الحيوان. فالأخلاق هي ما يميز بين الانسان والحيوان وبدونها ينقلب عالم الانسان الى عالم أسوأ كثيرا من عالم الحيوان لوجود العقل المدبر بعدما يتجه اتجاهًا شريراً، ساعتها سيبدع في إيجاد الشرور مثلما أبدع في إيجاد انواع الاسلحة والمخدرات والسموم وجرائم الإبادة والإغتصاب، ولن يتمكن حكماؤها من مهما بذلوا من جهود على تقويمها.

أن السلطتين الداخلية والخارجية هي أس أساس الحفاظ على المجتمعات (القانون السماوي والقانون الوضعي)، فإذا ما غاب أحدهما فلن يتمكن الثاني من السيطرة على قانون المجتمعات.

سبق وذكرنا أن الدين أو الأيمان يعملان كرادعين نفسيين يمنعان الإنسان من ارتكاب الجرائم والإثام، وهؤلاء الناس الطيبين او البسطاء لا يسمع عن أعمالهم الطيبة شيئاً لأنهم يعيشون في سلام وسكون فلا يسجل التاريخ ملامح سلامهم وأمنهم، بينما فرد شرير واحد يؤمن بفكرة شيطانية ويعمل على تغذيتها والمساعدة او الاهتمام بنشرها ويجمع حوله الطامحين والطامعين الى الثروة والسلطة أو ظلم الناس مثل فكرة الوطن المقدس او الدين المقدس او الحزب الأوحد ـ التي باتت من الأفكار الشريرة في هذا اليوم ـ فينمو ويتكاثر من حوله الأتباع والمريدين وينحدرون بالتدرج الى فرض آرائهم بالقوة على غيرهم، فإذا ما وجدوا مقاومة أخمدوها بقوة النار والدم، فشخص واحد ملحد لا يؤمن بحق الغير في العيش ويسعى لتأليه نفسه و يستغل سلطته لتنفيذ ما تدفعه نفسيته الشيطانية اليه جراء استلامه في غفلة من الزمن القوة والقدرة على فرض فكرته ينشر الشر وتقوى مخالبه حيث يكون من دوافع هذا الانتشار ايضا العصبية القومية أو العرقية أو الوطنية أو الدينية أو استحقار بقية الشعوب، وباستمرار تزايد مثل هذه الحالة يظهر شخص ما يُعبد كإله، فيتمكن شيطان الغرور والحقد والأنانية بشكل مرعب من نفوس أتباعه ويستهينون بأرواح البشر، فمن أكبر الأخطار، أولئك الذين يقدمون الحماية والعون للشرير رغبة في فوائد مادية وغالباً ما يكون هؤلاء من الناقصين أخلاقياً أكثر من قادتهم، لكنهم اكتفوا بمثل هذه المهام القذرة إما بسبب ضعف قدراتهم العقلية أو بسبب مشاعر الخوف والجبن في نفوسهم أو نتيجة حوادث شخصية أخلاقية غرست في نفوسهم عامل الحقد العام تجاه مجتمعاتهم. من هذا يظهر واضحاً أن أسوأ انواع جرائم الانسانية قد ارتكبها فرد رأس، توهجت في رأسه فكرة سيئة للسيطرة على البشر شجعه عليها مجموعة من قليلي الأخلاق والثقافة والضمير. فمثل هذا الشخص عندما لا يجد من يردعه بقوة القانون ويصبح هو القانون ولا تكون في صدره دوافع انسانية او روحية فسيندفع لفعل ما يريد ويبتغي من قتل وتخريب تجاه بقية البشر.

وسبق وجئنا على أمثلة للفوضى الاجتماعية في كندا وأمريكا حينما استغلت شرائح من هذه الشعوب "المتمدنة" أول فرصة سنحت لهم للتعبير عن أخلاقها الحيوانية، فحتى لو كان منهم من يتسمى بدين معين، فلابد ان يكون ذلك شكلياً ومسمى لا أكثر، وإلا لكان قد امتنع عن التعدي والتجاوز على املاك الآخرين.

إن فكرة الإلحاد هي من أخطر الأفكار التي لم يسبق أن مرت على البشرية فكرة أكثر شروراً منها، حيث أنها تمحو رادع النفس وتميل عفتها وصدقها ونزاهتها وإنسانيتها فيصبح الهدف الأول لها تلبية رغباتها الجسدية المادية وهذه الرغبة نار لا ينطفيء لهيبها، فكلما اطعمت كلما زاد سعيرها. لذا لا بد من قانون يلجمها وروحانية تحد من لهيبها، وهذا ما سعى اليه جميع الرسل والأنبياء في تقديمهم لمبادئ الأخلاق والأدب فليس هنالك مصدر لهما سوى هؤلاء الرجال المقدسين.

/* عندما يقول عن ستالين:- (ليس هناك أي أدلة عن أن إلحاده كان سبباً لعنفه).

فمثل هذا الكلام يصلح لجلسة مقهى أو يقال على طاولة في كازينو بين شخصين بعيدين جدا عن عمق مثل هذا الموضوع الجوهري، حيث قال الرجل قبل قليل أنه من الهواة في علوم النفس والاجتماع، وهذا ما يدعوه للكف عن التدخل في هذين المجالين الدقيقين، وان لا يظهر بأفكار متدينة ليس هناك أدنى شك أنها تجر البشرية الى هلاك مدمر لم يسبق ان مرت به من قبل. وقوله أنه لم يثبت أن هؤلاء القادة الأشرار كانوا ملحدين، فهنا تكون المصيبة أكبر، لأنه يتدخل في اختصاص علم دقيق لا يحق له إبداء أي رأي فيه خاصة في مثل هذه القضايا الجوهرية الاجتماعية الكبرى.

لو تفحصنا شخصيات جميع القادة الأشرار، فسنجد عاملاً مشتركًا واحدًا بينهم، وهو إيمانهم بفكرة فلسفية، ابتكرها فيلسوف جالس بكل هدوء في مكتبه، مثل هذا الشخص تكون له دوافع وعوامل ثقافية ونفسية واجتماعية كانت هي التربة الخصبة لظهور نبتة فكرته، مع أنه قد يكون دافعه الصالح العام والتفكير بتحسين أوضاع المجتمع وأخلاقهم ومستواهم الاقتصادي، ولكن في المقابل قد تكون له رغبة داخلية في نيل شهرة، وقد يكون إنسانًا ذكيًا ولكنه ناقص الذمة والضمير وبالتالي قليل الأخلاق ليس لديه اهتمام حتى بأقرب الناس اليه، وقد يكون انانيًا جشعًا؛ هذا هو أس أساس ما سيزرعه من جراثيم الفكرة في عقول قراءه، إنه يجلس الى مكتبه كما يقف عالم الكيمياء لتحضير سمّ زعاف أو كما عمل آينشتاين في اختراع القنبلة الذرية وكان يظن أن استعمالها سيقتصر على الأمور السلمية فقط، أو الفريد نوبل الذي اخترع الديناميت وكان يأمل استعماله في البناء والإعمار وشق الطرق والأنفاق وبناء الجسور، ولم يخطر في ذهنه أعداد البشر الذي قتلوا بسبب نجاح فكرته، ولم تنفع ضحاياه ما تركه من جائزة عالمية لتقدم العلوم، فعدد القتلى من الرجال والشباب وحتى النساء، وملايين الأيتام والأرامل لم تعوضهم أطنان اشكال عبارات الاعتذار والمسامحة. لقد كانت فكرة لشخص واحد خرجت من مختبر حقير في زاوية ما قد يكون قبو منزل بسيط.

صفحة 276

/* ينقل من رسالة لمعاون هتلر، "رودولف هيس" في مديحه لأخلاق هتلر، قال:- (أعرف هتلر شخصيًا معرفة جيدة وأنا قريب جدا له. إنه شخصية شريفة بشكل غير عادي، مليئة باللطف وهو متدين وكاثوليكي جيد).

كان هناك شابًا فقيرًا لطيفا عمل نجارًا بسيطًا لم يسبق له التعلم منع تلميذه من استعمال القوة والعنف في حادثة تشابك، ثم ضحى بنفسه قانعًا مطمئنًا لتربية البشر على الأخلاق الحميدة، قال:- (هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارًا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارًا ردية).[1]

إن تقييم الأعمال يكون بالنتائج، فقد يكون الشخص حلو اللسان والمعشر جميل الطلعة، لكن في أول فرصة اختبار لسلوكه سينقلب هذا الرأي رأسًا على عقب، كما في

[1] - إنجيل متى 17:7.

حالة هتلر وهيس. ومن الغريب أن يستشهد دوكنز بكلام ورأي هيس على حسن أخلاق هتلر.! أي منطق أهوج أعوج هذا.! فما أسوأ من هتلر الا مساعده وشيطانه هيس الذي كان دافعه ومشجعه الأول، ولا اعتبار لندمه بعدما ساهم في إشعال حرب راح ضحيتها حسب التقديرات العالمية خمسين مليون إنسان، غير أعداد اليتامى والأرامل وانحدار المستوى الأخلاقي لشعوب أوروبا بعد ويلة الحرب والدمار. أما عمليات الهولوكوست وحرق الأطفال والنساء لمجرد انهم على دين آخر، فيعتبر عملاً في منتهى الإجرام والخسة. فمثل هذه الجرائم البشعة دليل واضح على أن الرجل لم يكن في قلبه مقدار ذرة رحمة. إن تقديم دوكنز لمثل هذه الأمثلة التافهة والأعذار الضحلة، لا يمكن وصفها إلا "وقاحة للضحك على ذقون الناس" والغاية منها تبرير وتمرير نعومة جلد ثعبان الإلحاد.

صفحة 281

*/ (الحروب الدينية حصلت بسبب الدين، وتكررت كثيراً عبر التاريخ. ولا أذكر أي حرب حصلت تحت اسم الإلحاد. ولماذا تحصل؟).

نعم .. يمكن أن يعود سبب ذلك الى نظرية أن لكل موجود أثر. والأديان تنتسب الى رسل وهؤلاء جميعا قالوا أنهم مرسلون من عند الله دون استثناء، لذلك لا بد من متأثر بسبب وجود هذا المؤثر.

وعلى ذات قياسات هذا القانون، لا يكون للمعدوم أثر، يعني ان الإلحاد هو أصلا فكرة نافية عديمية تعتمد في جوهرها على فرض (فراغ الفكرة)، أي حينما لا تكون الفكرة موجودة، فلا بد أن يطلق على هذا الفراغ اسمٌ، وفراغ الأيمان يسمى (إلحاد).

كذلك .. هناك قانون الفناء، فكل ما في الوجود من ماديات أو معنويات (أفكار ومعتقدات) تخضع لهذا القانون. بمعنى أن كل شيء مادي ومعنوي له وقت ولادة وموعد موت وفناء. فطالما يكون المخلوق حيًا فهو يؤثر في الوجود ويساهم في إدامة الحياة لنفسه ولغيره، لكنه بمجرد موته ينقطع تأثيره بغيره من الموجودات، فلا يعد يؤثر أو يتأثر. لكن الأمر لا يقف عند هذه النقطة، بل إن استعمال أو تداول ما سبق وانتهت حياته لبعض الموجودات يؤثر تأثيراً قد يكون قاتلاً أو مدمرا لبقية الموجودات الحيّة. خذ على سبيل المثال الطعام، فهو مفيد وصحي للجسد ويساعد على نموه، لكن له وقت صلاحية ووقت انتهاء وفساد، فإذا فسد وتعفن أصبح مصدر مرض وموت. كذلك الدواء، فإذا أخذ في موعده وقبل انتهاء صلاحيته يجلب الصحة والفائدة للجسد، أما اذا أُخذ بعد فترة الصلاحية، فمن المؤكد أنه سيكون سبباً للعلة أو الموت.

إن لكل شيء في الوجود فائدة، في حالة استعماله أو في حالة الكف عنه. ففكرة الإلحاد تعتمد في الأساس على (نظرية العدمية) أي انها تدعو الى العدم، عدم وجود إله وعدم وجود أرواح وعدم وجود أيمان شيء، وهذه لها مؤثراتها السلبية مثلما هو الحال في عدم وجود الغذاء او الماء أو الدواء، وكلما كانت الحاجة للموجود بسيطة يكون ضررها بسيط، وكلما زادت الحاجة كان الضرر أكبر، ومسألة الإلحاد تتناول أعظم

الموجودات لهذا يكون ضررها أعظم الأضرار (وهذا ما سبق وجئنا عليه). فعندما نعتنق فكرة الوطنية وهي وهمية وغير موجودة، فستسبب في المقابل بغض وطن الآخر، وباعتناق فكرة الأنا ستسبب فكرة كره الآخر ، إذ لا بد من ظهور فراغ عند خلو المكان من أي فكرة إيجابية، هذا الفراغ هو بحد ذاته أمر سلبي، مثل عدم وجود الغذاء او الدواء، وهذا يسبب مرضا قد يكون قاتلا حسب نسبة المرض او الجوع أو العطش. بهذا ففكرة عدم وجود الله ستترك فراغًا في الروح الانسانس يدعو بالضرورة لسد هذا الفراغ، وما يشغل هذا الفراغ سيكون حتما أمرًا سلبيا، مثلما فراغ العلم سيكون الجهل، وفراغ الحكمة سيكون الحماقة والسفاهة، وفراغ القانون سيكون الفوضى، وفراغ الايمان سيكون الكفر. فلكل هذه الأمور وما شابهها معنوية كانت أم مادية أضرار تتساوى عكسيًا في قوة نسبتها مع قوة الحاجة والتأثير. واعتناق الإلحاد سيؤدي الى عدميات سلبية خطيرة، مثل الأنا والنحن التي تجر من ورائها عدم الاهتمام بالغير وبالمجتمع وهذا مخالف لطبيعة الانسان الخلقية، لأن الانسان مخلوق اجتماعي لا يمكنه العيش إلا في وسط اجتماعي يعتمد فيه الواحد على الآخر، ومن نتائجه تفكك أواصر العائلة وعدم الإحساس بالخطر الجماعي ومحاولة اختلاق أعذار لتجنب مشاركة المجتمع في تطبيق نظرية جماعية بحجة عدم الايمان بذلك متعذرًا في القول: أظنها فكرة غير مفيدة قد تؤدي الى الضرر، وليس لي علاقة بغيري فأنا أفعل ما أشاء لأني حرّ.

أما قوله (لا أذكر أي حرب حصلت تحت اسم الإلحاد)! فلأن الإلحاد غير موجود وهو فكرة عدمية، فلن يكون لها صورة واضحة، لأنها عدم، لكن هذا العدم هو بحد ذاته أمر سلبي فعدم الوجود ذو تأثيرات قاتلة، فالحروب تقوم لأسباب مختلفة، منها:- (عدم وجود الأيمان، عدم وجود احترام للانسان، عدم وجود الأخلاق، عدم احترام حق الآخر في محبة وطنه، عدم احترام فكرة الآخر، عدم تصديق ايمان الآخر بدين خاص به، عدم احترام حق التملك للآخر..الخ). فجميع هذه العدميات هي مشاعر إلحادية بعدم وجود حقوق للآخر، وجميعها كانت أسباب حروب. من هنا فجميع ما ملأ التاريخ طرًا من حروب وقتل وإبادات كان سببه (إلحاد) بحق الآخر، وهو في حقيقته نكران وجحود لحقوق الآخرين.

بهذا فجميع الشرور التي على الأرض من سرقات وقتل ونصب واحتيال وممارسات للرذيلة هو إلحاد ونكران وجحود لحقوق الآخرين وليس بسبب قلة أيمان بالأديان فقط، لأن قلّة الأيمان في أصله هو أيضًا يدعو الى جحود ونكران وإلحاد بحقوق الآخرين، فيكون من مسببات الحروب الاقتصادية والسياسية والتعصبات العرقية والعنصرية أو الاعتداءات الفردية أو الظن أنني على حق وغيري على باطل أو أن وطني مقدس ووطن الآخر مدنّس هو إلحاد بحقوق الغير.

فقوله أن الإلحاد لم يسبب أي حروب في الأرض، هو تفكير في غاية السطحية والسذاجة تناول رأس جبل الجليد ولم يتعمق الى جذور شيطانية فكرة الإلحاد.

إن فكرة الإلحاد هي سبب كل الشرور على الأرض.

صفحة 282

ومن المؤسف أن يتساءل المؤلف دوكنز في النهاية:- (من ذا الذي سيخرج للحرب بسبب عدم الأيمان بشيء ما)؟

بالعكس فعدم وجود الأيمان بحقوق الآخرين، وعدم الأيمان بوجود من يحاسبك بعد الممات هو (عدم) كافي يدعو جميع أسباب الحرب للحلول محله، وبذلك سيخرج الجميع لقتل بعضهم البعض.

## الفصل الثامن

# ما هي مشكلة الدين؟ ما سبب كل هذه العدوانية؟[1]

يبتدئ هذا الفصل بفكرة الجحيم والنيران والتعذيب. وينسى أنها فكرة قديمة عمرها آلاف السنين حتى قبل ظهور الدين اليهودي لا تتناسب مع عقلية انسان اليوم. إنها فكرة تربوية قديمة لأطفال البشر حينما كانت عقولهم طفولية لا تستوعب أفكار فلسفية راقية، لذا كان لزاماً مخاطبتهم بهذا الاسلوب، وإلا فكتاب القران الذي هو من الإله فيه ما يوضح أن فكرة الجحيم والعذاب هي معلومات روحانية غير مادية لا يمكن توافقها مع العقل السليم، فعندما يقول جنة عرضها السموات والأرض، فالمفروض ان نراى آثارها حولنا في مكان في السماء أو حتى على الارض، وهذا ما يجعلنا نفكر ـ بشكل مادي ـ أين هي جهنم الواسعة جدا والتي تقول على الدوام (هل من مزيد)! ثم يعود ليقول ما يخالف العلم والعقل بأنها ليست جنة واحدة بل جنات تجري من تحتها الأنهار، مما يدفع بالضرورة للتفكير المعنوي بدل المادي، ويكمل قوله جنتان من تحتهما جنتان، فتزداد حيرتنا عن عدد جنات الله التي يشار اليها بواحدة على الدوام.

صفحة 285

يناقش في هذه الصفحة (التطرف وتقويض الأيمان).فيقول:-

*/ المتطرفون يعلمون بانهم على حق لأنهم قرأوا الحقيقة في كتاب مقدس ويعرفون مقدماً بانه لا شيء يمكن أن يحرفهم عن أيمانهم.

عاد لينتقد فكر أصحاب الدين وليس الدين نفسه.

*/ الحقيقة في كتابهم المقدس تعتبر من البديهيات وليست برهان عقلاني.

---

[1] - الصفحة 283

لأن ذات البرنامج الإلهي هو برنامج للاطفال وبما أنه يلبس لباس التقديس، لذلك توارثوا تقديس جهلهم بما يحتويه واعتباره أمراً لا يناقش.

/* الكتاب على حق وعندما تبدو الأدلة وكأنها تناقضه فعندها يجب رفض الأدلة، وليس الكتاب.

مرة أخرى يوجه كلامه الى الأديان وليس لأتباعها.

/* ما أؤمن به كعالم وعلى سبيل المثال نظرية التطور...

نظرية التطور تقول بتطور الكائن في حدود فصيلته وكينونته، أي ان الطير او الغزال او الأرنب، يبقى كما هو عبر العصور، لكنه يتغير ذاتياً ليتكيف مع تغير الطبيعة، ولا تقول نظرية التطور بتغير الأرنب الى غزال والأسد الى قطة. مثلما يؤمن به. فحتى دارون صاحب النظرية لم يقل بذلك.

/* عندما يخطئ كتاب علمي ما فإن شخصاً ما سيكتشف الخطأ وسيتم تصحيحه في الكتب التي تليه. شيء كهذا لا يحصل أبدا مع الكتب المقدسة.

سبق وقلنا أن الآلهة والأنبياء ـ كما ثبت ذلك عبر علوم الأنثروبولوجيا والحضارات ـ هم أصل علوم البشر وأن الكتب المقدسة هي أساس كل علوم البشر الحالية. أما مسالة عدم تطورها، فالفكرة تبدو مأخوذة من محاولة أتباعها حينما فصلوا وابعدوا كل كتاب مقدس أو دين أو رسول عن المنهج الإلهي العام. فلو شبهنا توالي الأديان والكتب السماوية بمناهج الدراسة كل منهج منها يستند على ما سبقه من علوم ويهيأ الطالب لمرحلة العلوم التالية، لفهمنا ما دأبت الكتب الإلهية على عمله، فلقد نقلت البشرية من حالة الايمان بالطواطم والتابوهات الى مرحلة الآلهات الى مرحلة الأنبياء ثم الى مرحلة الأديان العالمية ثم الى هذا اليوم حيث الدعوة الى دين عالمي واحد.

أما ما يطفو على السطح من تقطيع لأجساد الأديان باعتبارها أعضاء مستقلة لا علاقة لبعضها ببعض، فهو من أعمال البشر وليس عمل إلهي. بدليل أنه لا يوجد نبي قد أنكر نبياً قبله، فجميعهم قدسوا من جاء قبلهم ومجدوهم وبشروا بمن سيأتي بعدهم، مثلما هو الطالب يعلم أنه جاء من مرحلة أدنى ومنتقل الى مرحلة أعلى. لكن الفرق بين الحالتين، إن المدرسة شأن مادي قصيرة الأعمار، يمكن رؤيتها ولمس تأثيراتها، بينما الأديان طويلة الأعمار فيلتبس على أتباعها تتابع استمرارية مناهجها.

والحقيقة لا يعقل أن عالماً مثل هذا الرجل قد فاته الاطلاع على ما كشفه الدين البهائي من وصلات الصلة بين الأديان جميعها حتى الشرق أقصوية منها. وإذا لم يقرأ، وهذا احتمال وارد جداً لأنه يعتبرها مجرد خرافات ولا يؤمن بها، فهذه نقيصة ثقافية وعلمية لا تغتفر.

/* صفحة 286

/* أيماني بالتطور ليس تطرفًا وليس أيمانًا عقائديًا لأنني أعرف تماما ما يمكن أن يغير تفكيري، وسأغيره بإمتنان عندما تظهر الأدلة الكافية على ذلك.

أرجو أن تقنع بالأدلة العقلية والمنطقية والفلسفية التي قدمت في هذا الكتاب، لأن إثبات الأمور الميتافيزيقية والروحية لا يمكن وضعها بقوالب مادية لتراها وتلمسها، بل هي بحاجة الى بصيرة عقلية وشفافية فؤاد.

/* صفحة 287

/* كرجل علم فأنا أحمل العداء للتطرف الديني لأنه يقوم بالاساءة للمشاريع العلمية بشكل متواصل.

ونحن معك نسعى لإزالة الجهل من بين البرية. ونؤمن أن التطرف الديني هو نوع من انواع التعصبات البغيضة لا بد من إزالتها، لذلك يقول بهاء الله بضرورة نبذ جميع انواع التعصب. إن للعلم والعلماء شأن كبير واحترام أكبر وأن الحضارات لا تقوم إلا بمشاركة علماء الطبيعة.

صفحة 287

يشير بحزن الى أحد علماء الآثار وعلم المستحثات الأمريكان من جامعة هارفرد وكيف فضل الأيمان بقول الكتاب المقدس أن الأرض عمرها عشرة ألف سنة على العلم الذي يقول بأكثر من ذلك. ونحن نماثلك في حزنك عندما نقرأ ونسمع من رجال الدين أن الأرض مسطحة وواقفة في مكانها لا تدور وأن البشرية بدأت برجل نزل من السماء.

صفحة 289

/* التطرف الديني نزعة بدون رحمة لتخريب الثقافة العلمية لآلاف مما لا يحصى من الأبرياء ذوو النوايا الطيبة والعقول الشابة المندفعة.

أوافقه الرأي تماما.

/* والدين المعتدل (اللامتطرف) ربما لن يفعل ذلك ولكنه يجعل الطريق ممهداً للمتطرفين عندما يتم تعليم الأطفال منذ نعومة أظافرهم بأن الأيمان بدون شك قيمة عليا.

أخالفه في هذا الرأي. لأن الأيمان يخلق قائماً حافظًا في داخل النفس على احترام وتطبيق الحدود والقوانين التي تحفظ المجتمع، ليتعاضد مع قوة تطبيق أحكام القانون الوضعية، فلابد للانسان من رادع نفسي وروحي داخلي ورادع خارجي بتشريعات وضعية.

صفحة 290

/* أحد أعنف العقوبات في العهد القديم هي التي تنفذ بحق الكافر.

قانون قديم صلح لتلك الأزمان القديمة بدليل عد ذكره في أي كتب تاريخية أن كان هناك اعتراض عليها، والسبب لأن الخلفية الاجتماعية لتلك الشعوب كانت قادمة من مجتمعات تتسم بالأخلاق الحيوانية حيث لم تتطور تربية الانسان الروحانية بشكل عام بعد. ولو كان دوكنز قد عاش في تلك الأحقاب لوجدناه قد ألف كتاب في مديح تلك القوانين الاجتماعية والدينية ولظهر علينا في هذا اليوم من ألّفَ كتاباً ينتقدها.

/* حكم على الطبيب المحاضر يونس شيخ بالموت لكفره. وجريمته بأنه قال لطلابه بأن محمد لم يكن مسلما قبل أن يخترع ذلك الدين في الأربعين من عمره.

هذه نقطة مهمة لا ينتبه لها إلا قلة قليلة. صحيح أن اسم وصفة جميع الأديان هي الاسلام لله، إلا أن لكل منها إسماً خاصاً بها، (الدين المحمدي، المسيحي، الكليمي، الزرادشتي، البوذي، الكونفشيوسي، البابي والبهائي)، فجميعها تسمت باسماء مؤسسيها، إلا أنها جميعا تقول بمبدأ الاسلام العام الذي توضحت صفاته في القران الكريم في قوله تعالى:- (وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ)[1] وكذلك:- (قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ). [2] فالاسلام هنا كما هو واضح صفة مشتركة لجميع الأديان السماوية، بينما لكل منها اسم يمكن تسميته بالاسلام الخاص.

وبهذا فلا يوجد إنسان على الأرض إلا وله أصل ديني، كما أنه من المعلوم ان هذه الأديان السماوية تتنزل في وقت محدد حينما يولد أي الرسول ويكبر ويستعد روحياً لاستقبال الأمر الإلهي؛ اما قبلها فهو على دين آباءه وأجداده وقد يكونوا على الدين السابق مباشرة او على الذي أسبق منه.

أما في حالة النبي محمد ص، فالأمر بحاجة الى إعادة نظر دون تعصب، فما رافق أحداث حياته منذ زواجه حتى بعد سنتين من إعلانه للدعوة الاسلامية، أمرا يبعث على التفكير، حيث إنه لم يتزوج إلا بزوجة واحدة مسيحية بدليل أن ابن عمها كان مسيحياً بل وحبراً عالماً، كما وأن الدين المسيحي كان منتشراً في الجزيرة العربية؛ فلا يستبعد ان كان مسيحياً أيضاً، وهذا لا ينتقص من مقامه، بل يزيده شرفاً على شرف، إذ من الوجب اكتشاف أنه كان على دين توحيدي من القول أنه كان على دين المشركين أو كما يقال على دين النبي ابراهيم، وهذا أمر بعيد لأنه تزوج بواحدة بينما بقية عرب الجاهلية كانوا يتزوجون النساء بدون حدّ او عدد معين.

/* لا يسمح القانون الباكستاني (والاسلامي) بزواج المسلمة ممن هو غير مسلم.

هذا ليس بقانون اسلامي، بل هو قانون أتباع الاسلام. لأن لو كان المسلمون مطلعين على سنّة النبي الكريم حقاً، لتذكروا أنه كان من بين زوجاته، المسيحية واليهودية

---

[1] - سورة يونس 84.
[2] - سورة البقرة 136.

والمشركة، كما أن الإمامين الحسن والحسين اولاد الإمام علي بن أبي طالب تزوجا زوجتين مجوسيتين (زرادشتيتين). فالاسلام لا يمنع الزواج من بقية أتباع الأديان، إنما هو التعصب والانعزالية من فرضا ذلك.

/* (لا يزال ذلك القانون نافذًا في افغانستان "المتحررة" بأن عقوبة الردّة هي الموت... والعقوبة الرسمية في القانون الاسلامي هي الموت).

إذا كان المؤلف غير مطلع على فقهيات ديانة أجداده، فلا عجب أن يجهل فقهيات احكام الاسلام البعيد عنه. إن قانون الردّة ليس من ضمن التشريعات الاسلامية الأصلية، ولم يرد ذكره في القران، وما ينسب للرسول محمد ص أنه فعل به، جاء من روايات ضعيفة، كتبها من ظنَّ أنه يمدح ويبجل نبيه، بينما يخالفها ويكذبها في المقام الأول، ما كان يتصف به النبي من حكمة وذكاء وحلم ونبل ودماثة خلق، وقوله: (جئت لأتمم مكارم الأخلاق). فمن يدعي مثل هذا لا يفعل مثل ذاك. إن حقيقة عقوبة الردّة قد أوجدها الخليفة الأول بعد وفاة النبي مباشرة، فالتبس على المسلمين الأمر بسبب تقديسهم شخصياتهم التاريخية نتيجة ما حدث من اختلاف بين أكبر مذهبين اسلاميين، فراح كل منهما يزيد من تقديس اسلافه حتى وصلوا في ذلك الى درجات قاربت مقام الأنبياء.

حينما ارتدت قبائل العرب عن الاسلام وعادت الى عباداتها الأولى، شن عليها الخليفة الأول حربًا فارضًا الاسلام عليهم مرة أخرى. وهناك بعض الآراء الأخرى تقول إنها سميت كذلك وهي على غير هذه الصفة، بل كان السبب هو اقتصادي بحت حيث قيل أنهم كانوا يدفعون الزكاة لصاحب الدعوة، وبما أنه قد مات، ففقراء كل قبيلة أولى بأموال زكاتهم. وكما قيل عن مسيلمة إنه إدعى النبوة وراح كل واحد منهم ينسب له قولاً كيفما شاء، مع أن هناك رأي آخر أن اعتراضه ومحاربته كانت لسبب إقتصادي بحت.

/* من صفحة 291 تقريبًا الى صفحة ؟؟؟ يتكلم فيه عن الاجهاض والمثلية والبويضة والاعتداء الديني وحكايات منتقاة من الصحف والأنترنت، فلا موجب للتعليق عليها وتكرارها.

صفحة 309

/* ينتقد صفة الأرهاب التي يصف السياسيون بها حربهم ضده حين تفاديهم الإشارة الى الدين، فيقول:- (كما لو أن الإرهاب هو روح أو قوة بإرادة خاصة ولها أفكارها الخاصة بها. أو أنهم يصفون الإرهابيين كما لو أنهم مدفوعون من "شرّ" خالص).

(الإرهاب) أمر مشابه لفكرة (الإلحاد)، فالإثنان لا يحملان فكرًا موجودًا حقيقيًا ولا روحًا قائمة بحد ذاتها، إنهما إنعكاسان لعدم وجود الدين والمثل العليا. والحقيقة أن الإرهابيون مندفعون من شرّ خالص، فعندما تخلو النفس من الأيمان والأخلاق يوصف الفراغ الناتج "شـرًا".

/* الأرهابيون (ليسوا مجانين. بل إنهم متدينين مثاليين ومن وجهة نظرهم عقلانيين).

نعم إنهم ليسوا مجانين لكنهم ليسوا متدينين مثاليين، بل يعانون من فراغ نفسي لروح الدين الحقيقية ويستعملون عقولهم فيما تدفعهم إليه أرواحهم الشريرة.

/* (ينظرون الى تصرفاتهم على أنها صالحة).

جاء القران الكريم على وصف أمثالهم في أولى صفحاته بالقول:- (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ).[1] وبهذا فالوهم والخواء الروحي يصوّر لهم أنهم متدينين صالحون.

إن كل ما يقوله رجال الدين من تفسيرات لمعاني آيات القرآن الكريم، إنما هي خالية تماماً من حقيقتها. فلقد جزم مُنزّل القرآن أن لا أحد يعلم تفسير آياته، لأنها أسرار لن تكشف إلا في يوم القيامة. وهذا أمر متفق عليه عند جميع المذاهب الاسلامية. ورغم ذلك فلا يرتدع أحدهم ويسحب يده عن تقديم التفاسير، بل يقولون إنما نفعل ذلك ابتغاء الوحدة والاتحاد، أما من فهم هذا التحذير الإلهي (كل من عند ربنا) أي أننا نأخذه ونعمل به كما هو ولا نتقرب من محاولة تفسيره:- (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ).[2] لن بعض المفسدين أوجدوا سبيلاً للالتفاف حول هذا التحذير وقالوا أن أمر المنع مقصور على الآيات المتشابهات بينما نحن نتناول المحكمات، وهذا ما شجع من جاء بعدهم للاقتداء بهم والسير على ذات النهج. لكن هذا قول مجانب للحقيقة والنتيجة كانت محاولات فاشلة، فلو كان الأمر كذلك، فلماذا يوجد أكثر من اربعمائة تفسير للمحكمات ولم يُتفق على مفهوم واحد لها؟

وعندما يأتي بمثال لمفهوم الجنة عند أحد الإنتحاريين بعد محاولة تفجير فاشلة. نجده ينقل مفهوما ووصفا لها من رجال الدين. وهنا نعود الى الخواء الأيماني عند رجال الدين وما ينتج عنه من فايروسات الشر.

لكن القرآن يؤكد على أن ما يظنه المسلمون من معاني الجنة هو ليس كما يتصورونه مليئة بالماديات من طعام وشراب ونساء، فقد قال تعالى:- (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا).[3] وهذا يعني أنهم سيجادلون كلام الله بمفاهيمهم البشرية الضعيفة ويوجدون معاني بشرية للجنة وغيرها. فما بالك بمجادلة غيرهم.!

/* عندما يصف الكاتب من يملؤون رؤوس الشباب المغرر بهم ويصورون لهم أعمالهم بأنها مقبولة عند الله وأنهم سيذهبون ليتناولوا الغداء مع النبي الكريم بـ (الزعماء والمدرسين الدينيين المعتدلين).! فهنا مكمن الخطورة، حيث يمتزج الفكر الإلحادي مع

---

1 - سورة البقرة الآيتين 11و12.
2 - سورة آل عمران. 7.
3 - سورة الكهف 54.

الفكر الإرهابي في تبرير وتمرير فكرة الإرهاب على أنها فكرة نبعت من عقول سليمة وقلوب مفعمة بالإيمان. فكيف ولماذا يحصل مثل هذا الاتفاق ويصف علم من أعلام الإلحاد جرثومة الإرهاب بـ (المعتدلين)!.! لأنه يستند على ذات الخواء الروحي وذات الأوهام فالإثنان ينبعان من خواء روحي فاسد لا يجد أحدهما عيباً في الآخر، فلو أدان أحدهما صاحبه، لكان عليه بالضرورة أن يدين نفسه.

ثم من أين لدوكنز أدوات القياس ليتدخل في مفاهيم دينية، بعدما اتضح أنه رافض حتى مفاهيم أصل ديانه آباءه، فكيف سيفهم جوهر ديانة أحدث عمراً من ديانته؟ مثله مثل تلميذ في العام الدراسي لمستوى الثالث ابتدائي يريد أن يقرأ ويفهم آخر فصل من منهج السنة الرابعة. وهذا امر مستحيل.

وبهذا فهو يريد تسويق أفكاره الإلحادية من خلال تلطيف وتجميل ظاهرة الإرهاب وقتل الأبرياء وطليها بطلاء العقلانية والدين الصحيح حتى يحسن فكرة الإلحاد تحت عباءتها ، وبهذا إذا كان الإرهاب يقتل بالعشرات والمئات، فهو يمهد لتزويق فكرة تبادل دول العالم باطلاق القنابل النووية على بعضها وإزهاق أرواح البشرية جمعاء. فهو لا يؤمن ان هناك عالم روحاني آخر ولا أن هناك إله هندس هذا العالم وأن كل ما في الأمر هو خدعة وجودية كبرى وهو من القلائل الذين فهموا الأمر على حقيقته، وليذهب الجميع الى بئس المصير، لن فكرته هي الحق لا غيره.

صفحة 310

/* (ما يجب أن نفهمه هو بأنه علينا أن نلوم الدين نفسه وليس التطرف الديني).

عندما نقرأ في كتب تاريخ الحضارات، نجد ان هناك من يصف حالات المجتمعات القديمة بـ (العصور الذهبية) و (جنة الله على الأرض). وعندما نتفحص تلك المجتمعات نجدها في ظاهرها مجتمعات متدينة بأديان بدائية تؤمن بالطوطم والتابو، ولقد اتفق علماء الاجتماع على أن لمثل هذه المعبودات معنيين، فإما أنها مجسمات لرجال خير أحب أحفادهم إبقاء ذكراهم، أو أنها مجرد نواتج أوهام وخرافات. وفي الحالتين تبقى هناك مجتمعات مسالمة حتى توصف بالمجتمعات الذهبية، وبالطبع لم تخل تلك العصور عن فترات حروب. لكن ما يثير الانتباه ويدعو للتفكير أن تلك الأمم لم يكن يسودها غير النظام الديني فهم لا يعلمون شيئاً عن علوم السياسة والاجتماع والاقتصاد والقوانين الدولية..الخ. لكن السمة الأعمّ والأشمل هي سلام وتعايش بين الناس لفترات طويلة، وما كان ذلك إلا بسبب تمسك البشر بأديان أزمانهم مهما كانت بدائية المفاهيم. إذن أين هو ذلك الإرهاب الذي يؤكد دوكنز أن مصدره الأديان؟

مثل هذا الرأي يؤكد من جديد ان الرجل أبعد ما يكون عن فهم الأمور الدينية والروحية وحقائق الأيمان. إنه مثل أم جاهلة تلوم الطبيب على استفحال مرض طفلها وتردي سوء حاله، بينما هي تشجع ولدها على عدم تناول الدواء.

سبق وذكرنا أن أي مادة أو فكرة، يمكن استعمالها بطريقتين مختلفتين تماما، فالسكين لا يمكن الاستغناء عنها في أي مطبخ، بينما يمكن ان تكون أداة قتل؛ والدواء يمكن ان يكون أداة قتل؛ والسيارة يمكن استعمالها أداة قتل؛ والقلم يمكن استعماله أداة قتل؛ وحتى الطفل يمكن استخدامه أداة قتل حينما يقوم الإرهابيون بتفخيخه. وعلى ذات المنوال، فالأديان مهما كانت شريفة المقاصد نقية الجوهر، يمكن لخالي الأيمان أن يستعمله وسيلة من وسائل الشرّ، فإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا إنما نحن مصلحون.

والغاية هنا، أن دوكنز رجل ذكي، وقد وجد سبيلا لتسويق فكرته من خلال تبرير الإرهاب كي يمرر فكرة الإلحاد، حيث لا يخفى على عبقري مثله الاستفادة من مثل هذا الغطاء، فلقد استعمله وبكل حرفية وذكاء عندما حاول كشف لعبه الثلاث ورقات أمام عيني قارئه، ثم راح يستبدل أماكنها، حينما قال عن الإرهاب:- (كما لو أنه صنف مُرعب من النشوز عن الدين الحق والمُسالم). إنه نوع من فنّ النفاق، يتملق فكرة الدين ويشجعها ثم ينتقد فكرة الارهاب باعتباره أحد نتائجها. وما هذا التشجيع إلا لتسويق فكرة الإلحاد التي هي أخطر من الإرهاب نفسه. فما دام يستسيغ القتل المئوي ويبرره، فلماذا لا يدعو للقتل المليوني.؟

من أجمل الأمثلة على هذا النفاق الذكي والتسويق الحرفي لهذا الرجل، ما جاء به على انتقاد السياسيين في وصفهم لعمليات قتل الناس المدنيين بكلمة (إرهاب)، وحاول تحويل إشارة بوصلة وصفتها الى الأديان نفسها، حينما استشهد بمقولة فولتير وتأكيده أنه أصاب كبد الحقيقة بقوله (هؤلاء الذين باستطاعتهم ان يدفعوك للتصديق باللامعقول يستطيعون دفعك لارتكاب المظالم). وبالفعل أن دوكنز يفعل هذا المقولة التي انتقاها بيديه ليتهم بها مخالفيه على أنهم يسوقون أفكاراً غير معقولة حينما يصفون القتلة بالمجرمين الإرهابيين، فهو لا يتقبل ذلك، ويسعى لتوجيهها نحو الأديان ذاتها حتى يفسح المجال ويخليه كي تعيش فيه جرثومة فكرته وتتربى في بحبوحة عقول البسطاء ليسود العالم الفوضى والاضطرابات وتنحل روابط العوائل وأواصر الصداقة ولحمة المجتمعات وسداتها.

فإذا كان لا يعلم نتائج فكرته ومدى خطورتها، فهذه جريمة فكرية معنوية يفترض أن يحاسب عليها ويقف أمام القانون ويحاكم بتهمة بذر بذور شريرة في عقول بسطاء البشر لإزالة وقتل ما يسعى الصالحون من البشر لزراعته من معارضة لسبيل الشر وقطع دابر الإرهاب. إنها بالضبط أقوى مما سبق زرعه من فكرة العرق الأنقى واللون الأبيض والأوروبي الذكي والأمريكي الخارق والمسلم المؤمن والوطن المقدس والرجال أفضل من النساء.

صفحة 311

قبل ثلاث صفحات وصف زعماء الأديان المنظرين للإرهاب بـ (المعتدلين)، وقد عارضته على هذا التسويق. لكنها كانت مقدمة ليقول:- (إن تعاليم الدين "المعتدل" برغم أنها ليست متطرفة بحد ذاتها، إلا أنها دعوة مفتوحة للتطرف). وبذلك فلقد كانت فكرة سمّ زعافية مدسوسة داخل قطعة شكولاته لتسهيل عملية ابتلاع البسطاء لفكرة الإلحاد بكل سمومها، إنه ينتقد التطرف الديني ليهاجم روح الأديان، مستغلاً خلو الساحة العالمية من فكر سليم ناضج يبدع منهاجا لحياة البشر، فيقدم بذلك فكرته، إنه (يريهم الموت حتى يرتضوا بالحمى)، حينما قال:- (طالما اننا نتقبل بأنه يجب علينا احترام الأيمان الديني فقط لأنه أيمان ديني، فسيكون من الصعب علينا أن نستثني أيمان أسامة بن لادن والانتحاريين من هذا الاحترام).

تنقسم جميع مجتمعات الأرض الى ثلاث شرائح، إثنان منها صغيرة وواحدة كبيرة، إحدى الإثنتين، هي جماعة (الأنا) و (النحن)، وهؤلاء يكونون عادة من الأذكياء فيبحثون عن اية فرصة لتجييرها الى صالحهم على حساب الآخرين؛ والثانية تعمل لصالح المجتمع بمبدأ الإيثاء (انت) و (أنتم)، وهذه الشريحة إذا لم يكن في مقدورها تبني فكرة صالحة حيّة، فلا قدرة لهم على مواجهة الفئة الأولى، حيث إنها خلو من قاعدة صلبة تقف عليها، وهذا الخلو أو الفراغ يفسح للفئة الأولى بالاستقواء والسيادة، كما حصل ذلك بانتشار أفكار النازية والشوفينية والماركسية والاستعباد والبعثية والناصرية والماوية وغيرها الكثير، ولقد شاهدت وعانت البشرية من انتشار مرّ لهذه الأفكار وآفاتها. أما الفئة الثالثة فهي الأكثر عدداً، إنهم عامة البشر، هؤلاء لا حول ولا قوة لهم، يجلسون منتظرين قائداً ليصفقوا له دون إنتباه لتبعة ونتائج أفكاره حتى لو اصابتهم مصيبة من جراء هذه الأمعية، فالاعلام ورجال الصحافة كفيلين بقلب الحقائق وإظهارها بمظهر الدواء الناجع للمجتمع، وبهذا يستمر النفاق من الطرفين حتى يصلون الى النتائج المرعبة، كما حصل في الحربين العالميتين وحرب الخليج وانهيار الامبراطورية العثمانية وبقية امبراطوريات العالم خلال القرن التاسع عشر. لكن المؤسف في كل هذه المجريات ان أول ضحايا فئة الأنا والنحن، هم شريحة الأنت والأنتم، لأن الفئة الأولى تعرف جيدا أن هاتين الشريحتين هما المقاومان لأفكارهم الباطلة، وبمجرد استتباب الأوضاع سيكون مستقر الشريحة الثانية هي القبور والسجون والمنافي والتشرد، وبذلك يخلو المجتمع من المعارضين لقوى الشر ولا يتبقى سوى البسطاء التابعين على وزن من يتزوج أمي أناديه عمي، فمن يتولى السلطة أخضع له واعمل باوامره.

إن الفئة الأولى ـ فئة الأنا ـ بحاجة الى فكر تستند عليه لتنشره وتقنع به غيرها، فينتخبون فكراً لأحد المفكرين أو الفلاسفة يناسب افكارهم وما يصبون اليه من منافع تصب في مصلحتهم. ولو فتشنا التاريخ لوجدنا هذه قاعدة عامة، إذ لا بد من فكرة شمولية سهلة الانتشار يستسيغها البسطاء ليسهل تداولها حتى يرضخ لها الجميع؛ وكلما خلت الساحة من الفكر الإيجابي السليم، كلما ظهر فكر سلبي شرير، حسب قاعدة (لا بد من فكر سلبي يملأ مكان الشاغر الإيجابي). ومثل هذا الدور لا يخفى على مفكر ذكي مثل

دوكنز، فهو يريد سد الفراغ بما يقدمه من فكر سلبي سيأخذ البشرية الى دمارها، دافعه عامل (الأنا)، بما فيها من سلطة وثروة وشهرة.

في المقابل يعلم جيداً خلو الساحة العالمية من فكر جديد صالح يأخذ بيد البشرية نحو التقدم والسلام، وبما أنه لا يؤمن بوجود الله ولا يؤمن بيوم حساب ولا بثواب وعقاب، فلا ضرر ان ينشر ما يريد من شرور الأفكار حيث ـ حسب ظنه ـ تخلو الساحة العالمية من مفكر صالح. مع أنه يعلم جيداً سوء نتائج فكرته وما ستؤدي بالبشرية من دمار حين تطبيقها.

لقد عاشت البشرية تحت قيادة رجال الدين منذ أن ظهر الوعي عند الانسان، واستمر ذلك حتى بداية عصر النهضة الأوروبية حينما بدأت شمس العلم بالبزوغ وراح ظلام الأفكار الدينية بالتراجع؛ لكن ذلك كان امراً طبيعياً حينما بدأ حجم عقول البشر بالاتساع، فمن الطبيعي ان يصغر عليها لباس الفكر الديني، أما إذا حاولت ارتداءه كيفما اتفق، فسيؤدي حتماً الى تمزقه، وهذا ما حصل حينما أعابت قوة العلم ومزقت شكله ومنظره. وبسيادة الفكر العلماني خلال القرون القليلة الماضية وخلو الساحة الفلسفية من فكر يسد الفراغ العالمي، كان لا بد من ظهور فلسفات تمثلت بالماركسية والماوية والرأسمالية والنازية والبلشفية والبعثية، لكنها سقطت الواحدة تلو الأخرى ومن لم يسقط بقي يترنح وسيسقط لاحقاً لا محالة بسبب خلو الساحة الفلسفية من بديل. وهذا ما دفع الاستاذ دوكنز للمحاولة في ارتقاء هذا المرتقى ليجرب حظه في غفلة من الزمن وليعرض البشرية الى مستقبل لم يسبق أن كان هناك فكر آخر أخطر منه.

لكننا نتساءل: طالما كانت الأديان تتوالى تباعاً الواحدة بعد الأخرى، وفي أزمان محددة كان هناك أكثر من دينين حيين على الارض أو في الشرق الأقصى والشرق الأدنى، بل وكانت هناك أديان قديمة متزامنة في الأمريكتين وفي استراليا وجزر المحيط الهادي وحتى في بلاد الاسكيمو ، فالتاريخ يوضح أنه لم يمر زمان على البشرية إلا وكان هناك معتقد ديني حيّ. فماذا حصل حتى انقطع هذا التواصل، فمسألة قيام عنقاء أي دين قديم للحياة مرة أخرى، هو امر محال، ولو كان هناك أي امل في ذلك، لبقيت البشرية على دين آدم أو ابراهيم ولما كان هناك توالي لظهور الأديان.

إذن .. أيعقل ان يكون هناك دين روحاني جديد هو في دور النمو والانتشار يعلن عن استمرار ظهور الأديان وانها مستمرة دون انقطاع؟

الجواب: نعم. هناك دين تقول عنه البيانات العالمية أنه الأكثر انتشاراً في العالم بعد المسيحية، إنه الدين البهائي.

فما هي أسباب عدم ظهوره الى العلن وأخذ دوره في الانتشار الواضح العلني؟

الجواب يكمن في حقيقة مبادئه، حيث أنها تستقطب معاداة ومحاربة وإخفاء رجال الدين ورجال السياسة ورجال الأنا، فبإنتشاره تختفي هذه الشرائح السلبية الثلاث، وهذا

سرّ عدم معرفته. حيث تحاربه جميع هذه الفئات القوية، وإذا لم تعلن محاربتها له فهي تقطع عليه جميع سبل الانتشار إضافة الى تناول ذكره بالسلبية والتقليل من شأن أفكاره وبرامجه العالمية.

أما سرّ معارضة ومحاربة رجال الدين له، فالسبب هو أنه يحرم ويمنع ظهور هذه الشريحة بين منتسبيه.

وبالنسبة لمعارضة رجال السياسة، فهو يدعو الى مبدا الشورى في الحكم ويرفض الفردية والطرق السياسية المتواجدة على الساحة العالمية برمتها، حيث يقدم برنامجاً جديداً لقيادة الشعوب يخلو من الدعايات والحملات الانتخابية، وانتخبوا مرشحكم الأوحد نصير المظلومين ومنصف العمال والفلاحين، فلا توجد في مجريات عمليات الانتخابات فيه مثل هذه الأمور المفسدة للذمم والداعية لاستخدام مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة). وبهذا عندما يطلع أي سياسي على هذا البرنامج الجديد في حكم الشعوب وأن الانتخابات فيه سرية حرّة، لن يجد (الأنا)فيه سبيلا، فمن المؤكد أن لا يناصره رجال السياسة فقط، بل يعملون على طمس معالمه بكل الوسائل الممكنة، إذ لا مجال له في هذا البرنامج البالي، فيتشابه تصرف ومعارضة رجال السياسة كما هو حال معاداة رجال الدين.

اما شريحة الأنا والتي تبحث عن الشهرة والمال، فتقف في وجه وحش شرورها المباديء الروحانية التي تنشرها البهائية في نفوس اتباعها حيث تدعو الى التحلي بالأخلاق الحسنة ومساعدة الفقير والابتعاد التام عن النفس الأمارة، بل تجعل ذلك من علامات سوء الشخصية وتحذر من انتخاب مثل هؤلاء للقيادة، بل إن قوانينها الذاتية الأصلية تحذر من هذه النفوس الطامعة بالسلطة والجاه والمال، وحتى لو استطاع أحدهم خداع من حوله وتم انتخابه، فلن يجد مجالاً لتطبيق رغباته وهو في سدة الحكم، حيث يكون مبدا الشورى واتخاذ القرار بشكل سري غير المعلن له بالمرصاد بين بقية الأعضاء، وبالتالي حتى لن يستطيع معرفة من كان معه او ضده.

هذا ما يمنع ظهور البهائية بشكل واضح تماما في الوقت الحالي، ولكن نجد في المقابل أن عامل الزمن يعمل في صالح هذه الديانة العصرية، حيث أن من مبادئها مثلاً تحريم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكل انسان حرّ في علاقته مع الله ولا يحق لأحد مراقبته حتى ولو كانا والديه. كما ان ليس لها مراكز للصلاة الجماعية، فالصلاة فيها فردية، وهذا يمنع من يتخذ الدين سبيلاً للتظاهر والذاتية. كذلك تحلل الزواج من أتباع الأديان الأخرى وتحرم حمل السلاح وما يسمى بالجهاد لنشر الدين وتحرم العنف بجميع أشكاله..الخ.

لذا نرى ان الاستاذ دوكنز لم يأت على ذكرها لحد الآنونحن نقرأ آخر صفحات كتابه، لأن جميع مبادئها تنسف افكاره ومبادئه نسفًا، فهو لا يريد لأحد الانتباه اليها، لأنها ضد مصالحه المتركزة في تشجيع مبدأالأنا، ولا يأتي على القول إنها منهج عالمي جديد قد يكون فيه خير البشرية لو كان حقًا يدعو لخير البشرية.

/* قلنا أن فكر الاستاذ دوكنز يستند على النفي والاعتراض والسلبية، وهذا ليس بمنهج ولا مبدأ ولا يصلح ان يكون فكراً، فهو يستند على التشتت والفردية والحرية الذاتية، فحينما يقول:- (أن الأيمان الديني هو مبيد لكل أنواع المنطق العقلاني بسبب الوعود البسيطة والخادعة بان الموت ليس هو النهاية وأن هناك جنة).

وللجواب على ذلك، دعونا نترك ما تقوله الأديان بهذا الخصوص ولنقرأ للفيلسوف ريمون مودي وهو دكتور وأستاذ في علم النفس وطبيب بشري في كتابه (الحياة ما بعد الموات) La Vie Apres La Vie حيث نجد له تجارب وقصص من واقع الحياة مع مرضى ماتوا لثوان أو لدقائق وأعلنت وفاتهم طبياً، ثم فجأة يعودون الى الحياة ليقصوا ما شاهدوه وهم أموات في غرف العمليات وتعداد من ساهم في إنقاذهم وما استعمل من محاولات يدوية فردية ومن آلات وما دار من نقاش بين المحيطين بجثثهم وكيف أنهم جميعا يذكرون ذات فحوى القصة العجيبة منذ خروجهم من اجسادهم واتخاذهم طريقاً روحياً منوراً وما شعروا به من سعادة لم يشعروا بها في حياتهم على الاطلاق حتى لحظة عودتهم الى الدنيا.

من المؤكد ان دوكنز قد مرّ عليه هذا الكتاب أو سمع به، لكن سلطة الأنا قوية فاعلة على نفسه، لذلك لن يأتي على ذكره إطلاقاً، لأنه مخالف لما يصبو إليه من تسلط فردي وشهرة شخصية أوسع مما هو عليه، إنه يطمع أن يكون إلـه هذا الوقت طالما تخلو الساحة من دين حيّ كما يظن.

ثم إن وعود الأديان التي يصفها بالبسيطة والخادعة، لم يقدم أي دليل على حقيقة مدعاه، رغم إنه يدعي العلم وينادي بالدلائل العلمية التجريبية، فالأديان تقول بهذا منذ اول ظهور الوعي عند الانسان، ولم يشذ عن هذه القاعدة أي نبي او رسول او دين، وجميعهم متفقين على هذه الإطروحات، وهذا ما يستغرب منه، إذ كيف يتسنى لهولاء الأنبياء الاتفاق مبدئياً على أهداف تناصر إحداها الأخرى رغم البعد الزماني بينهم حيث يمتد الى عشرات الألوف من السنين وما الداعي والدافع على اتحاد كلمتهم ولماذا يصدق كل خلف سلفه ولا يطعن به او بمبادئه، مع ان المعلوم عن أصحاب المبادئ والفلسفات أن بعضهم يخالف البعض إن لم يكن كلياً، فنسبياً. فما لهؤلاء الآلهة يتفقون في المسائل الروحانية تماما؟!!

# الفصل التاسع

# الطفولة

# الانتهاك والهرب من الدين[1]

صفحة 314 /* في كل قرية يوجد هناك شعلة تنيرها ـ المعلم ـ ويوجد هناك من يطفأها ـ رجال الدين. (فيكتور هوغو).

هذا المنطق بدأ من بداية العصر التنويري الأوروبي، أما قبل ذلك منذ بداية ظهور الوعي عن الانسان، فكان رجل الدين والكاهن هو الذي يشعلها. ولقد ذكرنا سبب ذلك، لأن اللباس الديني أصبح صغيراً على العقل العصري، وبحاجة الى لباس روحاني جديد. لذلك جاءت أول مبادئ الديانة البهائية (اتفاق الدين والعلم). والحث على اكتساب العلوم الطبيعية بكل جدّ.

صفحة 320

بعد يوم عمل مستمر دام ثلاثة عشر ساعة، بدأت أشعر بالتعب وقررت التوقف عن القراءة والكتابة والبحث عن الراحة قليلا فقد قاربت الساعة الواحدة صباحا، وبينما أنا أقرأ باسترخاء حيث ان فصل (الطفولة) لم يثر اهتمامي كثيرا في أول صفحاته، إذا بنظري يقع على الكلمات التالية، فإذا بي استعدل من جلستي وأعيد قراءة كلمات الفقرة التي كتبها دوكنز عن أيام طفولته، وهي كالتالي:- (المدارس الداخلية الثلاث التي درست فيها كان فيعل[2] أساتذة مودتهم للأولاد الصغار تتعدى حدود المسموح به. وهذا في الحقيقة كان يجب أن يكون داعياً للتعنيف. رغم ذلك لو أنهم، وبعد خمسون عاماً، هوجموا من قبل أشرار أو محامون بشكل ليس أفضل من قتلة الأطفال، ساكون مجبراً كي أدافع عنهم، حتى وأن كنت ضحية أحدهم في وقت ما "موضوع محرج فيما عدا ذلك كان تجربة عديمة الأذى").[3]

كنت خلال كتابة الرد على هذا الكتاب أفكر وأتساءل هل هناك سبب شخصي دفع الكاتب الى مثل هذا الهجوم الذي ليس له مبرر واضح ولا حتى أسباب علمية على الأديان برمتها. فها أنا أقرأ في صفحات ربع كتابه الأخيرة ولم أجد سبباً وجيهاً لكل عدم الإنصاف

---

1 - الصفحة 314.

2 - أظنه خطأ مطبعي حيث يبدو أن أصل الكلمة (يفعل) أو (فيها).

3 - في رسالة إلكترونية أرسلتها الى المترجم الأستاذ البغدادي، أسأله فيها عن أصل كلمة (فيعل)، فرد مشكورا:- المقصود هو كما أفهم من السياق (فيها) وليس شيء آخر. أعتذر عن الخطأ الإملائي. خالص التحية، بسام البغدادي.

هذا ولا أظن أنه سيوضح ذلك في نهاية كتابه، طالما أنه عالم وكاتب وله مؤلفات أخرى، فالحرفية تدعوه لتقديم جواهر فكرته ثم البناء عليها وترتيبها.

عندما جلبت انتباهي الفقرة الخاصة بطفولة المؤلف، قفزت الى ذهني فكرة ـ قد تكون غير صحيحة ـ ولكن علماء النفس لو كانوا في مكاني فلن يتركونها تمضي دون تناولها وتحليلها، أما لو كان العالم سيغموند فرويد حيًا، لاقتنصها وخصص لها بضع صفحات في أحد كتبه.

إن ما تبادر الى الذهن هو هل كل هذا الهجوم المستمر على الأديان بسبب هذه المرحلة من حياة الكاتب؟ هل تركت تلك الحادثة أثرًا في نفسيته؟ هل من الممكن أن يكون حقًا قد تجاوز تأثيراتها النفسية؟ ماذا لو كان يشعر في صميمية نفسه بظليمته حتى اليوم مما دفعه لكتابة (وهم الإله)؟ أيمكن ان يكون دافع تأليف هذا الكتاب مشاعر نفسية وحقد دفين ضد الدين ورجاله؟ وما هو الضامن أن لا يكون الأمر كذلك؟

صفحة 321

نلاحظ في الفقرة التالية كيف أن المؤلف، رغم ما أصابه من ضرر نفسي وجسدي في طفولته، يبقى ماسكًا برقبة الدين لا يتركه. ويبقى معتبرًا ضرر الأديان أقوى من الاعتداءات الجنسية على الأطفال. قال:- (بعد محاضرة في دبلن بدأ الحضور بطرح الاسئلة، سُئلت عن رأيي بتلك الحوادث البارزة لقضايا الاعتداء الجنسي من قبل القساوسة الكاثوليكيين في ايرلندا. أجبت، من اللاشك فيه أن الاعتداء الجنسي شيء مروع، لكن حجم الأذى على المدى الطويل يمكن تخيله أقل من الأذى النفسي الذي يتعرض له الطفل جراء نشأته الكاثوليكية).

تمر عدة صفحات وهو يتكلم عن تجارب بعض المسيحيين لمعاناتهم في الخوف من الجحيم ونيرانه وعذابه الذي سمعوا عنه في طفولتهم من القساوسة والراهبات. مع ان اسلوب الكتاب المقدس هو اسلوب يكلم طفل الانسانية بما يتوافق مع مستوى تفكيره البسيط. أما اليوم فهناك مفاهيم جديدة أخرى عن الجنة والنار تتسم بالروحانية المطلقة.

صفحة 330

يمر مرور سريع على تعليق له بخصوص موضوع عذاب القبر:- (تخيل الآن فقط كيف يبدو عذاب القبر لمن هم أقل ثقافة وأقل استعدادًا علميا وبلاغيًا من هؤلاء الأساتذة؟).

أعتقد أن فكرة عذاب القبر فكرة تخويفية لا أكثر، استعملت في التربية الدينية والأخلاقية للشعوب القديمة، لأن حكمة الله اختارت هذا الاسلوب الذي تناسب مع عقليات البدائيين ليتمسكوا بالنظم الدينية والاجتماعية التي لم يكن باستطاعة ذاك الانسان الهمجي ابتداع قانون وضعي لنفسه يحفظ حياته وحياة الآخرين وممتلكاتهم، فكان القانون الإلهي

هو الموجود على اعتبار أن الله هو الخالق والمهتم بتربية خلقه وتوصيلهم الى أعلى مستويات النظم الاجتماعية.

إن مسألة التخويف من عذاب القبر، تشبه في مدلولها تحذير الطفل حينما يرفض تنظيف أسنانه قبل النوم، فتضطر الأم لتصور له الجراثيم والفايروسات على شكل جيوش صغيرة من الحشرات تأكل أسنانه الجميلة مثلما يأكل النمل حبات السكّر ، وإذا لم ينظف أسنانه فسيصحى عند الصباح وقد فقد بعضها. وبهذا يضطر الطفل خائفا الى الامتثال لنصيحة والدته ويعمل بأمرها. ومع ذلك يتفقد أسنانه عند الصباح كي يتأكد أنه لم يفقد منها شيئًا.

مثل هذه الطريقة قد تنفع في المحافظة على سلامة أسنان الأطفال وتحبيبهم بتنظيف أسنانه، بل تصبح عادة عند الطفل يستمر على أدائها طوال عمره بعد أن يرى فائدتها رغم ما فيها من تلاعب بتعابير كلمات الحقائق.

في منتصف القرن العشرين حصل زيادة في نسبة سكان المدن وبدأت تستفيد من الأراضي الخالية حولها، وبما أنها كانت أراضي خارج المدن القديمة، فلقد استغلت آنذاك كمدافن وجبانات. وعندما اصطدم التوسع بهذه الأمكان، وضعت كثير من الحكومات جدولا زمنيا ينتهي بعد سنوات لمن يرغب بنقل رفاة أقربائه الى المدافن الجديدة. وبعد انتهاء الفترة المحددة، بدأت الجرافات والحفارات تعمل في أراضي المدافن، كان العمال بجميع فئاتهم يتوقعون رؤية نيران القبور وانبعاث دخانها، لكنهم كلما حفروا ونقلوا الأتربة لم يروا شيئًا، وهذا ما حصل في كثير من البلدان العربية والاسلامية حين بدأت الأحوال الإقتصادية بالتحسن وزاد عدد سكان المدن.

من هذا نفهم بالدليل القاطع أن ما ذكر في الكتب المقدسة لا يجب وضعه في خانة الكذب، بل تعليم تدريجي حتى حلول موعد تخطي الانسان مرحلة الجهل ومن ثم انتشار التعليم والثقافة وتوسع عقول البشر، وبذلك سيفهم طبيعيًا أن ما كان من امر التخويف من نار جهنم وجحيمها إنما هو نوع من أنواع التربية الإلهية. يؤكد على ذلك قوله تعالى في القران الكريم:- ((وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا).[1] فالمعنى واضح جدًا إنه اسلوب تربوي لا أكثر، فطالما كان اسلوب الأنبياء منذ قديم الزمان هو الاهتمام بتربية البشر رغم كل ما عانوه من تصرفاتهم الجاهلة.

لكن العيب كل العيب في الولد الذي ينكر كل ما فعله والديه من أعمال طيبة واعتناء كبير ورعاية وتعليم، وعندما كبر وأصبح من ذوي الشهادات العلمية العالية، يقول:- (لم يكن لوالديّ وللمعلمين أي دور في حياتي، فأنا رجل عصامي صنعت نفسي بنفسي).

صفحة 333

[1] - سورة الإسراء 59.

/* حينما تسلسل موضوع الأضحيات والأضاحي البشرية وجاء ذكر مومياء فتاة الأنكا حيث وجدت بقاياها متجمدة منذ 500 عام، ناقش المؤلف موضوع التضحية بالانسان من عدة جوانب. لكن المثير في الأمر أنه استعمل في خضم أقواله عبارة:- (ومن نظن أنفسنا لنستعمل كلمات مثل "جريمة" ونحكم على كهنة الأنكا بمقاييسنا عوضاً عن مقاييسهم؟).! وهذا ما يثير الاستغراب، حيث أنه وطوال مجمل كتابه كان مرتكزه الأساس مهاجمة طقوس وافكار وتعاليم الديانات الاسلامية والمسيحية واليهودية ومقارنته عادات وطقوس شعوب تلك الأزمنة مع شعوب الدول المتقدمة في 2017م.!

من هذا يتضح إن هذه المقارنة غير سليمة ولا يصح استعمالها. لكنه بقي يستعملها دون توقف في إزدواجية المعيار، فهو يزن الأمور كيفما يحلو له لمجرد اثبات فكرته.

ومع ذلك يعود ليؤكد على ذات الرأي، بقوله:- (لا نستطيع لوم كهنة الأنكا لجهلهم وربما من القسوة نعتهم بالغباء والبلادة. لكنهم يلامون لإملاء معتقداتهم الخاصة على طفلة أصغر من أن تستطيع أن تقرر).!

صفحة 347

/* (الأديان متناقضة فيما بينهما).

تنقسم هيكلية الأديان الى قسمين، القسم الروحاني الأخلاقي، والقسم التشريعي. أما القسم الأول فجميع الأديان السماوية متفقة عليه 100%، فلا يوجد دين إلا ويأمر بالأخلاق الحسنة والتعامل الجيد مع البشر. أما الجزء الثاني (التشريعي)، فيختلف من دين الى آخر ويتغير كلياً او جزئياً حسب الوضع الاجتماعي ومقدار تطور الأمة التي ظهر فيها. ولقد أوضح القران هذه النقطة جلياً في قوله:- (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا).[1]

[1] - سورة المائدة 48.

## الفصل العاشر

# الفجوة المهمة جداً[1]

صفحة 252 /* (هل يملأ الدين فجوة مهمة في حياتنا؟).

كما سبق وقلنا، أن الدين عبارة عن منهج ذو شقين، الأول هي التشريعات الوضعية، والثاني هي الأمور الروحية. والكلام هنا عن الجزء الثاني (الروحانيات). فمنذ أن وعى الإنسان على وجوده في هذه الحياة وهو يشعر أن هناك كائناً آخر في داخله يكلمه، بل في الحقيقة كائنان على اعتبار أن الجسد لا علاقة له بالمعنويات والروحانيات فهو نقيض لها تماماً، والجسد الخالي من الروح، جثة هامدة لا تشعر ولا تحس ولا تتكلم ولا تستجيب، أما حين الحياة فهناك ذاتين تتكلمان وتتحاوران وتعطيان الرأي في داخله، هذه تجزم بكذا وتلك تقترح كذا وغالباً ما يدور حواراً هادئاً بينهما.

أما في حالة رؤية الأحلام أو في حالة التفكير أو حين الجلوس للتأمل والتدبّر أو خلال الأوقات الحرجة وتقرير أمر ما أو للخروج من ضائقة مادية أو معنوية. فغالباً ما يحصل أن نجد هناك من يتحاوران في داخل عقولنا، هذا يقول كذا.. وذاك يقول كيت.. وهذا يجزم بكذا والآخر يفند بتلك. ومثل هذه الحالة الطبيعية موجودة عند كل البشر ولا يمكن لأي إنسان القول إنها لا تحصل معه، وكلما إزداد وعي الانسان وثقافته، إزدادت وتكثفت مادة هذه الحوارات وتشعبت وأصبحت اكثر عقلانية وواقعية تختلف كثيراً عن حالة الأطفال معتمدة بذلك على درجة الوعي والثقافة. إنها حالة موجودة داخل عقل الإنسان منذ القدم وحتى اليوم وفي كل وقت وزمان وعند مختلف الناس كبيراً أم صغيراً جاهلاً أم عالماً، حتى إننا نرى في بعض الأحيان من يقف أو يمشي وهو يكلم نفسه بصورة واضحة للعيان، وفي السابق كنا ننعت من يمارس هذه الحالة بالمجنون تهكماً، وغالباً ما يقال له إذا كان صغير سن ويسمح الأدب والعلاقة الاجتماعية بذلك: (هل أنت مجنون جالس تكلم نفسك؟).[2]

إن علماء الحضارات والتاريخ أكدوا بما لا يقبل الشك على وجود الأديان عند انسان النياندرتال منذ قدم التاريخ وأن العلوم والمعارف التي نتمتع بها حالياً، ما هي إلا موروثات علوم الكهنة والسحرة القدماء، فمنهم وصلنا أصل العلوم. فكيف لم يملأ الدين فجوة مهمة في حياتنا؟

---

[1] - الصفحة 351.

[2] - اليوم أصبحت مسألة عادية حينما نرى سمّاعات الأذن الدقيقة في أذن أحدهم تنقل له حواراً مع شخص آخر.

في هذا الخصوص يقرر دوكنز في الصفحة 356:- (اليوم نعلم بأن كلا "الصوتين" يعودان لنا، وعندما لا نعرف ذلك فإننا نعامل على أننا مرضى نفسيين).

النقطة المهمة في قوله، هي كلمة الإشارة (لنـا)، فقد قرر أن الحوار الذي يجري داخل عقل الإنسان أو "نفسه"، هو لنا، أي أنه حوار خاص بكل شخص.! بالطبع إنه حوار لذات الشخص القائم على التفكير. لكن النقطة المهمة والسؤال الأهم اللتان تجاوزهما هو:- من يحاور من؟

فأن يقول هو الجسد، فالجسد آلة مثل بقية الآت التي يستعملها المهنيون والحرفيون، وعندما نكون بقرب شخص يحتضر، نراه وهو يتكلم ويرى قبل جزء من الثانية ثم تطفئ كامل أعضاءه وحواسه تماماً، فإذا كان مقصد الأستاذ أن الجسد يستمد قوته من ذاته، فحالة جزئي لحظة الإحتضار قبل وبعد الوفاة، تنفي ذلك تماما بالقطعية. وإذا كان مقصده أن الحوار يجري داخل العقل، فهذه مشكلة أخرى، حيث أن الواحد لا يكون اثنان، لأن العقل غير الدماغ، العقل هو حالة التفكير وقوتها، والدماغ هو الكتلة اللحمية داخل الجمجمة، فإذا استخرجت جميع أجزاء الدماغ من جمجمة المتوفي قبل أو بعد وفاته، فما هي إلا كتلة لحمية ليس إلا. فكيف يقوم الدماغ بتمثيل شخصيتين معنويتين وهو واحد في كتلته؟ كما انه لا يستطيع بدون جسد حي أن يمثل حتى واحدة منهما؟ ثم ألا يخبرنا أين تتكدس وتختزن جميع معلوماته وعلومه وذكرياته وصور موجودات الطبيعة وكيف يطابق صور الناس فيفرز من بينها أهله وأصدقائه ومعارفه وزملائه عن غيرهم؟ إن العلم التشريحي الفيسيولوجي وعلم الأعصاب والدماغ هو الان في أعلى حالات تقدمه وتطوره، ومع كل هذا التقدم لم يصلوا الى مكمن ومستقر كل هذه الأمور المعنوية داخل الدماغ، ولم يجدوا مكمن الصور ولا عرفوا أين تُختزن المعلومات ولا غير ذلك مما ذكرناه. ألا يدل كل هذا على وجود قوة غير مادية بل خارقة تتحكم بجسد الإنسان؟

لو كانت المعلومات والصور والتخيلات والأفكار والحسابات وغيرها أمور مادية، فلا بد أن يكون لها وزن، فهما كانت بمقادير ضئيلة، وبالتالي سيكون امرا حتمياً أن تكون عقول العلماء والمفكرين أثقل من عقول البسطاء. فأين نجد هذا الفرق؟

لنترك موضوع العقل ونعود الى موضوع الشخصيتين أو الذاتين اللتان يتحاوران في عقل الانسان او في نفسيته. فطالما لم يثبت العلم المادي المختبري ولم يستطع لحد الان معرفتهما وأي شيء عنهما، فهذا دليل على وجود قصور في طريقة البحث أو قصور في كمية العلم أو كما اعتاد بعض الماديين أو الملحدين القول (إن العلم كفيل باكتشاف ذلك في المستقبل طالما هو في طريق التقدم ولا بد أن يأتي اليوم الذي يعرف ذلك). مثل هذا القول نوع من التسويف والمماطلة لتمرير فكرة العجز الواضح في هذا مجال العلم المادي، حيث لم يتبق جزء صغير او دقيق في جسد الإنسان إلا وفصّله علم الطب والفسلجة تفصيلاً.

إذن.. ألا يتطلب الآن الإعتراف ان هناك قوة معنوية غير مادية متصلة بجسد الإنسان، بل في الحقيقة قوتان (النفس والروح) كما سمّاهما الدين منذ فجر وعي الإنسان؟ ألا يترجل العقل المادي عن ركوبة عناده ويعترف بأن هناك ذات مسيطرة على الجسد والدماغ تتحكم بإرادة الانسان فترشده الى نوعيه أفعاله؟ وهما النفس المرتبطة بالجسد والماديات، والحياة والروح المرتبطة بالأخلاق والعلم والعفة والسمو ورفعة الشأن. الأولى تحبب للجسد كل ما يتعلق به من ماديات فتسحبه اليها، والأخرى تحد من هذه الرغبات الجسدية وتنصح بالابتعاد عنها قدر الإمكان، والإثنان لا حدود لقوتهما، فمهما أطعم الانسان جسده ولبّى له رغباته، تبقى النفس تطالب بالمزيد حتى آخر رمق، فلا تكف رغباته المادية عن المال والثروة والجاه والسلطان والطعام والماء والنوم والجنس وعموم ملذات الحياة. وتبقى الروح تنصح بالكف والإكتفاء بالقليل من كل هذا وضرورة الإعتناء بالعلم والأخلاق وخدمة الآخرين. الأولى تمثلها (الأنا)، والثانية تمثلها (أنتم). الأول رغبات طبيعة مادية، والثانية رغبات معنوية سامية.

أليس من الوارد إن هاتين القوتين هما اللتين تتكلمان داخل عقل الإنسان، إنه ليس بالأمر الجديد، فهو موضوع قديم، لكن مناقشته تتجدد كلما حلّ زمن موت حضارة بشرية، حيث تسود قوة النفس المادية على قوة الروح المعنوية فتنهار الأخلاق وتظهر الاضطرابات ويعم فساد الذمم ويقل احترام مظاهر الخير وتزداد مظاهر الشرور. أليس ما نعيشه اليوم هو تجسيد لهذه الحالة، ألا تنتشر فكرة الأنانية بين الأمم المتقدمة، ألا تنتشر فكرة الأنا بين الناس، ألا يشتكي جميع البشر من آفة انتشار الظلم، أليست القسوة والاحتقار والميكانيكية الصلفة هي السمّة الظاهرة في تعامل البشر، ألا يتجسد كل ذلك في قرارات الحكومات واختراعاتها لطرق السيطرة على أحوال البشر، ألا تتسابق الدول القوية للسيطرة على الجنس البشري، ألا يعيش أكثر من ثلثي سكان الأرض تحت مستوى الفقر، أليس أكثر من نصف البشر يعانون من العوز والفاقة ومنهم من يبيع جسده او أجزاء منه ليأكل، ألا تنتشر عصابات بيع الأعضاء البشرية في جميع أنحاء الأرض، ألم تزداد نسبة الجرائم حتى فاضت السجون بالمجرمين وراحت الحكومات تكتفي بقضاء نصف المدة لاطلاق سراح المجرمين لعدم وجود زنزانات كافية للقادمين من المجرمين الجدد، ألم تزداد نسبة السجون بأضعاف مضاعفة عن نسبتها قبل عقود قليلة، ألا تعيش شريحة الفلاحين في أسوأ حالات العوز والفقر مع إنها تمد جميع البشر بالطعام والغذاء، ألا تنتشر البطالة في الدول النامية وشعوب العالم الثالث حتى صارت المنظمات الإرهابية والعصابات ملجئًا أخيرًا للشباب، ألم يزيد الوضع الاقتصادي السيء فكرة الاكتفاء بالرجال لاحتلال مراكز العمل والوظائف الحكومية ودفع النساء الى الاكتفاء بعبودية المنزل والخضوع لتحكم الرجل؟

كل هذا وغيره الكثير ـ يترك لعلماء الاجتماع يفصلون فيه ـ كان سببه رغبات الانسان النفسية لتوفير متطلبات الجسد، فلو لم يؤمن الانسان بالقناعة والرضى يصبح جشعًا حسودًا طماعًا لا يكف عن طلب المزيد، ولو لم يتربى الإنسان على صفة الإيثار، ألا تراه يفضل سلب الآخر للقمته.

قد يقول البعض ان شعوب الدول المتقدمة تتصرف بأخلاق حسنة وأغلبها غير مؤمن بدين، مثل هذا الاعتراض مثل الذي يتربى في كنف والدين خلوقين وعندما يكبر ينسب كل ذلك لنفسه ويتفاخر بتصرفاته الأخلاقية وينتشي أن يمتدح هو وليس والديه. فما تركته الأديان السابقة من دعوات الى التمثل بالأنبياء وأخلاقهم هو ما نشاهده عند الدول المتقدمة من تصرفات ممدوحة، إن أصلها من الأديان وليس من الإنسان، فالانسان اذا ما ترك ليربي نفسه بنفسه دون وجود مربي فاضل لأصبح أدنى من الحيوان. ولكن مع ذلك، ليست كل فئات الشعوب المتقدمة تقدم مستوى أخلاقي عالي، فما زال هناك المرتشي والمختلس والمغتصب والقاتل واللص والمتعسف في استعمال القانون والمدلس في إظهار كل الحق والكاره لغيره والآنف من التحدث مع غيره والمحتقر لغيره ومن تظهر عيناه كراهيته للآخرين بوضوح، كل هذه الأصناف وغيرها موجودة في المجتمعات المتقدمة. أما ما يمنع استفحال امرها فهو القانون وليست رغبة الانسان المادية، فلو اختفت سلطة القانون لأظهر جميع هؤلاء مشاعرهم ورغباتهم السلبية للعلن ولتباهوا بها ولازدادت أعدادهم نتيجة اختفاء الرادع القانوني، حيث سبق وقلنا أن ذات الانسان بحاجة الى شرطيين، شرطي النفس أو الروح او الأخلاق او الضمير، وشرطي القانون والتشريعات الوضعية المجسمة برجل الشرطة.

إذن، فالدعوة الى ترك الدين وترك الاعتقاد بخالق هي في حقيقتها ابعاد شرطي النفس والإكتفاء بشرطي القانون، وهذا لا يكفي للسيطرة على جرائم المجتمع، ولو تحقق للملحدين هذا الأمل، فسنحتاج لكل مجرم ثلاث رجال شرطة، وسينقلب المجتمع الى مجتمع غابات وسيسود المكان والحياة الأقوى وستعود أحوال المجتمعات قروناً عديدة الى الوراء. فعلى سبيل المثال: لننظر ماذا حصل في العراق، فبمجرد أن اختفى رجل القانون وشعر الناس بالحرية، انحدرت مستويات الشعب الأخلاقية الى أدنى مستوياتها، وأصبح قتل الأبرياء مجرد لعبة يراهن عليها المجرمون من الذي يقتل أعداداً أكثر بمفخخته. اما السرقات فأمر لا يمكن تصوره، إذ هل يعقل ان تختفي من حزينة الدولة ألف مليار دولار خلال عشر سنوات ولا يعرف من سرقها.! والأعجب من ذلك أن المسؤولين الذين حصلت هذه السرقات في زمانهم هم ذاتهم الباقين على رأس السلطة المدعين بالدين والأخلاق كذباً، فإذا كانوا هم السراق، فهذا أفضع حالات الفساد في تاريخ البشرية وأكبر دليل على دناءة النفس البشرية حينما تتحرر من شرطي النفس والقانون. وإذا كان اللصوص غيرهم، فلماذا لم يقبضوا عليهم طالما في يدهم أمور الحل والربط وحماية القانون؟

من الأمثلة على اختفاء شرطي الأخلاق والدين في العصر الحديث، حروب الإبادة، فلو كان في قلب وضمير أي مسؤول أمر بمثل تلك الجرائم البشعة أي ذرة من الأخلاق او الخوف من وجود عقاب او ثواب بعد الممات، لما أقدم على التنفس قبل إصدار أوامر الإبادة. كيف لإنسان في قلبه شيء من الرحمة أن يبيد مجاميع من العوائل البريئة البعيدة عن أمور السياسة وشؤون الحرب بالغازات السامة؟ كيف يتجرأ إنسان يملك شيء من الضمير ان يحرم ملايين الأطفال والنساء من الطعام لمجرد تطبيق فكرة الاشتراكية

وسيادة الحزب الواحد الشمولي؟ كيف لكائن أن يصدر اوامره بإبادة ملايين البشر بقاعات الغازات ويأمر بحرقهم؟ كيف تكون لديه نتفة ضمير أن يأمر بقتل ثلث عدد شعبه ويهجر ثلثه الآخر ليكتفي بحكم ثلثه المتبقي؟ كيف لإنسان يظن أنه الإله الأوحد ويحكم على شعبه بالسجن داخل حدود بلاده ويغسل أدمغتهم بالجملة ويقطع عنهم ـ في هذا القرن المنوّر ـ كل أنواع الاتصالات بالعالم الخارجي، حتى تصوروا أنه الإله ولا إله غيره فراحوا يعبدونه؟ كيف لرجل يؤمن أنه أذكى البشر ويأمر بقتل وملاحقة واغتيال كل إنسان يعارضه أو يتوقع منه معارضته او يحمل فكراً مغايراً من شعبه؟

إن جميع هذه الجرائم وغيرها ـ وعلينا أن نتوقع اكثر منها ـ لن تقف أمامها بعدما يكبر ويتمدد وحشها ويتكاثر أتباعها أن تقف في وجهه دولة عظمى او اتحاد اوروبي او هيئة الأمم المتحدة، فهم الذين سيحكمون الأرض ويصبحون الأقوى والأكثر عددا اذا ما سمح لفكرة الإلحاد بالتوسع والإنتشار. إنه تسونامي الوبـاء الأكثر شراً على الإطلاق.

فمن أراد أن يرى نتيجة دعوة الأستاذ دوكنز وثمرتها ويرغب في تبني فكرتها، فعليه النظر الى حالة دولة العراق وشعبه فهي تمثل أجلى صورها على حقيقتها المزرية الحالية، فالقتل الجماعي حالة يومية والسرقات أصبحت من مفاخر المجرمين كل منهم يتباهى بكبر حجمها، والإغتيالات بالأسلحة الكاتمة للصوت صارت مسألة عادية لا تدهش أحداً، والأخطاء السياسية القاتلة حينما يذهب ضحيتها عشرات المئات من أزهار الشباب ولا يسأل عن مرتكبها أحد، وكبريات المراكز الحكومية تباع وتشترى بالمزاد، ويعيش من لا يعرف حتى كتابة تعليق قصير على شكوى مرفوعة أو أمر إداري في أعلى المراتب والوظائف، وترى رجل الشارع الفاسد المنبوذ قبل أيام قليلة قد خرج من خلوته بذقن وعباءة وهو يحفظ جملتين من كتابه، ليجد شعباً جاهلاً كان يشاركه فساده حتى قبل سبعة أيام ويحتقره، يقدمه على نفسه في المجالس العامة.

فمن شاء أن يكون بلده وشعبه مثل حالة العراق وسوريا فليتبنى مبدأ الإلحاد الفايروسي.

*****

عندما يقول دوكنز أن هناك قوة أخرى داخل الجسد، فهو اعتراف منه بوجود ذات أخرى مختلفة غير جسدية مادية. مثل هذا الإحساس لا يجوز مطلقاً وصفه بالهلوسة كما ذكر، حيث لا يمكن اتهام جميع البشر أنهم كانوا يعانون من انفصام في الشخصية أو من حالات جنون مؤقتة ثم إكتملت عقولهم ونضجت مع كبر السن وازدياد الثقافة. بل ماذا عن العقلاء والحكماء حينما يمرون بذات التجارب.

/* (أريد ان ابدأ بظاهرة طفولية تسمى بـ "الصديق المُتخيل" والتي باعتقادي لها علاقة مباشرة بالأيمان الديني).

كيف يفترض المؤلف هنا أن هذه الحالة الطفولية من التخيل إنما هي من نتائج الأيمان الديني؟ فعلى أي أساس استنتج ذلك والطفل ما زال غير واعيًا ولا له علاقة بأمور الحياة المعقدة وفي مقدمتها الأيمان والدين؟ هذا ما يسمى بتسويق الأفكار بالطرق الذكية الملتوية على أساس أنها نوع من البديهات التي لا تحتاج الى تفكير وتأمل بل من المعيب على الانسان التفكير بها وعليه الخجل من نفسه إذا أقدم على مناقشتها طالما أن دوكنز يفكر بدلاً عنه. إنه ذات اسلوب رجال الدين بلباس تقدمي.

*/ (غالبًا ما يقال بأن هناك فجوة في الدماغ يجب ملأها بالإله).!

هذه طريقة ذكية أخرى لتمرير فكرة تؤثر على عقل القارئ وتدفعه للظن أنها حقيقة علمية مثبتة، وما عليه إلا التسليم بها والاتفاق معها، لأنها بديهة.! فإذا توقف القارئ عندها وتفحصها، فهو ليس بالانسان العاقل السوّي، فالمفروض عليه ان يكون ذكيّاً بما فيه الكفاية مثل بقية "الأذكياء" ويتقبلها ويمضي في القراءة باعتبار أن من طرحها شخص من العلماء ولا يمكن للقارئ أن يكون أذكى منه بأي حال من الأحوال، فلقد فكّر بها نيابة عنه وقدم نتيجته وما عليك إلا موافقته والكف عن التفكير في مسائل بديهية اتخذ فيها قرارهنيابة عنك.

*/ (تأريخيًا فقد طمح الدين لتفسير وجودنا والطبيعة من حولنا والكون الذي وجدنا أنفسنا به. دورهُ هذا في أيامنا هذه قد تولاه العلم بشكل كامل).

نعم إن للعلم دور عظيم كان وسيكون وسيستمر، إلا أنه ينحصر في علوم المادة والطبيعة، ومهما تقدم فلن يخرق حاجز المعنويات والروحانيات لأنها ليست من المادة وليس لها وزن ولا صورة وهي من اختصاص الأديان.

*/ عندما يحاول المؤلف ـ على سبيل المثال ـ تمرير فكرة غير مثبتة، ويقول:- (وقد تعرضت لتلك الفكرة في الفصل الرابع. أو .. وقد غطيت ذلك في الفصل السادس والسابع).

هنا يدعو القارئ للتسليم والرضى ورمي سلاح المناقشة بل والإنكفاء العقلي، فهو يدعوه الى تبني نوعا من الغباء والكف عن المناقشة والجدل، وكأنه يقول: لا تحاور أكثر من ذلك، فلقد شرحت لك هذا النقطة بإفاضة وقتلتها بحثًا وما عليك إلا الإلتزام بما سبق وأخبرتك به، فمثل هذه الأمور أكبر من عقلك فدعني أفكر بدلاً منك وأوصلك الى النتيجة النهائية المطلوبة دون أن تتعب عقلك بالتفكير.

صفحة 355

*/ (هل تطورت الآلهة كناصحة ومواسية من هذه الظاهرة، كصنف من "البيدومورفوس" النفسي؟).[1]

[1] - البيدومورفوس: هو استمرار الشخصية الطفولية لما بعد البلوغ.

ما ورد في الآثار القديمة، أن الآلهة عبارة تسمية قديمة للأنبياء والقديسين، فلقد ورد في الإنجيل .... (بحاجة الى أدلة من كتب العلماء).

صفحة 356

يعود ليتكلم عن الشخصية الثانية داخل نفس الانسان بإسلوب يوحي للقارئ أنه مصاب بنوع من الأمراض النفسية، وينقل عن شخص آخر رأيه القائل أن هذه حالة من الهلوسة، ثم يستند على خياله في استعماله لكلمة (جاينس يقترح نظريته بأنه في وقت ما قبل 1000 ق.م. .. هي نفسها الفترة التي بدأ فيها وعي الإنسان بالبزوغ). وهذا تحديد او احتمال يخالف جميع ما جاء عليه علماء التاريخ والأنثروبولوجيا والحضارات من ان الوعي عند الانسان قد ظهر منذ مئات الألوف من السنين. (بحاجة الى أدلة من كتب العلماء).

ثم يستمر في محاولاته لزرع زؤان الشكوك في رأس القارئ دون تحديد لموقف معين، حيث يستعمل في كل ما قدمه من أفكار باهتة، نوع من التشتيت الذهني لفتح ثغرة في التفكير السليم عسى ان يجد لرأيه محط رأس جسر للعبور الى داخل عقل القارئ، فطريقته في تقديم أفكاره منذ أول الكتاب حتى "آخره" هي مجرد مقترحات أو شطحات ليس لها أسس علمية بل مجرد تصورات قد تكون أصولها في رغبته لنيل شهرة أو ثروة، حيث نلاحظ اسلوبه المشكك على سبيل المثال في خاطبه للقارئ:- (بغض النظر عن كونك تجد لذلك أي مصداقية أو لا)، فهو يعلم أن القارئ سيرفض فكرته التي جاء عليها، لكنه يأمل أن تضاف قطرتها لما سبق من قطرات كي يطفح الكأس ويقتنع القارئ بفكرة الإلحاد.

صفحة 357

والغريب أنه يذهب للتشكيك بفكرته بعد كل هذا الكلام غير الموزون، فيقول:- (المشكلة في هذه الفرضية بأنها لا تفسر بقاء الإله عند البالغين في يومنا هذا).!

/* يقول:- (إن قدرة الدين على عزاء الناس لا يجعله حقيقياً).

طالما كانت مقاييس الرجل مادية ولا يعترف إلا بما تتعامل به حواس الجسد، فهذا ما يجعله ينفي كل ما غير ذلك. فقبل كل شيء عليه أن يرفض وجود العقل (وليس الدماغ)، لأن العقل لا وجود مادي له في جسد الإنسان، وعليه الاستمرار برفض فكرة الذاكرة والتصوّر وخزين المعلومات في العقل، فجميع هذه القوى الروحانية هي قوى غير ملموسة.

ثم أنه من المعلوم أن الاستناد كدليل على وجود العقل ومجموعة قواه هو ما نراه من مخترعات ومكتسبات فكرية وحضارات ملأت التاريخ البشري، فهذا دليل ملموس لا يقبل الشك على وجود قوة العقل. إذن جاء الاستدلال هنا على وجود الغيبي بآثاره المادية. وعلى ذات المقياس إن دليل حقيقة وجود الدين هو قوة تأثيره على جموع البشر حينما تأخذه كشرائع وقوانين لمجتمعاتها، فيأمرون بهذا وينهون عن ذاك استناداً لما يقوله

الدين. وهذا من الأدلة على وجود العقل. أما ما هو أكثر من ذلك كدليل على وجود الدين، فهي الأدلة المادية، حيث يترك كل صاحب دين أقوالاً تجمع فيما بعد على شكل كتاب يتداول بين الناس، فالناقلين هم مجموعات من البشر بأجساد مادية والكتاب دليل تاريخي مادي. إضافة الى ذلك فنعود لنظرية (لا وجود لأثر دون مؤثر)، ثم إن تكرار الفعل على مرّ الأزمان ـ أي ظهور شخصيات أصحاب الأديان ـ لهو دليل على أنها عملية حقيقية، حيث لا يكون هذا التكرار مجرد صدفة، كما أن هناك نوعين من الرسل والأنبياء، منهم من تكونت له أمة مليونية إن لم نقل بليونية، ومنهم من اندثر واختفى مع أفكاره. فلو تفصحنا الصنف الثاني لوجدنا دعواتهم لا تختلف عن دعوات المجموعة الأولى، وقد يقوم عليها علماء ومفكرون أو فلاسفة مقتدرون يشعرون في ساعة تجلي أن الأمة بحاجة الى منهج روحي جديد بعدما تتردى أحوالها الروحية، فيجدّون على تأليف وابتكار أحكام ووصايا ومبادئ ومثل عليا لشريعة جميلة قد لا نجد فيها أي عيب، لكن الملاحظ أنه لم يحالف الحظ والنجاح ولا واحدة من هذه الدعوات الدينية المزيفة رغم قيامها على اكتاف فلاسفة وحكماء (وضع محاولة فلاسفة أوروبا انشاء دين). وفي المقابل نرى أن عدد الأديان التوحيدية العالمية قليل جداً، لكن الملاحظ فيها أن متحدون في نسبة دعواتهم أن مرسل واحد وأن لا شأن لهم في هذه الدعوات سوى تلبية ما يؤمرون به، ناهيك عن تبشير أحدهم بالآخر وتصديق أحد الآخر رغم اختلاف أزمانهم وتباين شعوبهم ومناطقهم الجغرافية ولغاتهم. فهل يمكن اعتبار ذلك مجرد مصادفات.!؟

وهنالك أمر آخر، ما هي هذه الروح الدينية العجيبة التي تغرس في قلوب أتباعه فيستمر على المحافظة على وجوده وآثاره وتاريخه كل هذه القرون والأعصار مثلما نرى في حالة المندائيين والإيزديين والزرادشتيين واليهود وما تبعهم من بقية أتباع الديانات؟ أليس ذلك دليل على قوة وحقيقة روح الأديان في تأثيراتها؟ لأنه لا أثر بدون مؤثر.

صفحة 358

/* مرة أخرى يعرب المؤلف عن عدم ثقته فيما يقدمه من آراء وأفكار، ومثل هذا التصريح تكرر كلما مرّ بمعضلة فلسفية. فنقرأ له:- (على أي حال فإن فرضيتي مبالغ فيها بل وخاطئة. لا أملك أي أدلة على أن الملحدين لديهم أي ميول عامة نحو البؤس أو قلق مليء بالندم. بعض الملحدين سعداء. آخرين بؤساء. وبصورة مماثلة فإن بعض المسيحيين، اليهود، المسلمين، الهندوس والبوذيين تعساء بينما آخرين منهم سعداء).

علينا أن نعلم ـ وكما سبق وقلنا ـ أن الأديان والمعتقدات هي مخلوقات معنوية تخضع مثلها مثل الأفكار ـ وهي معنوية أيضاً ـ لقانون الولادة والحياة والموت، فمتى ما كان الدين حيّ، كانت نسبة سعادة أتباعه بانتمائهم اليه كبيرة، ومتى ما توفي الدين تبدأ هذه النسبة بالنقص حتى تضمحل تقريباً، حيث يلاحظ ذلك في أتباع الأديان القديمة أن قبضة الإيمان قد ارتخت عن قلوبهم وبالتالي لا يعودوا يهتمون بما يحض عليه الدين من مثل أخلاقية وصفات حسنة، وتزداد بينهم الأعمال الشريرة. وقد نجد نوعا من الاتحاد عند أتباع الأمم قليلة الأعداد مثل الباريسيين أو الإيزديين او المندائيين، ذلك ذلك يمكن تعليله

لمشاعر الضعف وقلة العدد وضرورة التوحد امام كبر حجم بقية أتباع الأديان، او للمحافظة على التراث الديني أو لإثبات هوية. لكن كل ذلك لا يعني حياةً روحانية بقدر ما هو تقليد وتظاهر في حقيقته، فعقلائهم لا يجدون سبيلاً لتوحيد كلمتهم وصفوفهم إلا بما تبقى من أسمال طقوس أديانهم، حيث لا سبيل لهم غير هذا السبيل. ويبقى غالبيتهم يتظاهر بسعادته لتأثيرات دينه على قلبه، وهو في الحقيقة إما منافقًا او غافلاً، ودليل ذلك أنه في أول فرصة احتكاك جديّة بين واقعه في بلية أو رزية ثقيلة تراه أما أن يعلن ضعف أيمانه أو تراه يتحول الى الإلحاد بكل ما يتعلق بدينه القديم، ومنهم من يصرح بالسؤال الشائع:- (أين الله؟ لماذا لا يمد يده لمساعدتنا؟). مثل هذا السؤال لا يقتصر على أصحاب الأديان القديمة فقط، بل يسمع من أتباع الديانات الكبرى وهو في توسع وانتشار بنسبة طردية مع ازدياد نسبة الثقافة والعلم المادي، بعد انحسار الثقافة الروحية لجميع الأديان القديمة.

لذلك إن الاشارة الى مسألة السعادة والبؤس عند المعتقدين بدين او عند الملحدين هي مسألة صعبة القياس طالما يتخلل نفوس الكثيرين مشاعر داخلية في رفض معتقداتهم لكن حالة المجتمع لا تسمح لهم بالاعلان عنها، ناهيك عن ما يواجه به المتخلي عن دين آبائه في الدول الاسلامية من حكم بالقتل وقطع الرأس.

إن مشاعر السعادة والبؤس لا يمكن حصرها بدرجات الايمان والإلحاد او الكفر، فللحالة الاقتصادية والثقافية وتصرفات أفراد المجتمع وسياسة الحكومات والفوضى الاجتماعية وغير ذلك، كلها هذه العوامل وغيرها لها أكبر الأثر في ازدياد او نقصان حالتي السعادة والبؤس. فالفقر يؤدي الى التعاسة والبؤس بينما إزدياد حالة التعليم يؤدي الى الإلحاد أمام اختفاء روح الأديان، كما أن تصرف المحيطين بالفرد تؤدي الى حالتي السعادة أو البؤس كل حسب درجته. ونلتفت الى سياسة البلد، فنجد أن لها تأثير كبير في نسب الحالات النفسية، ولو ملنا نحو الفوضى فنجد لها قوة كبيرة في ابتعاد الناس عن الأديان وازدياد حالة البؤس.

من كل هذا لا يمكن وضع ميزان لقياس حالتي السعادة والبؤس والإكتئاب وتحديد علاقتها بالدين والإيمان ووجود الله.

من صفحة 360 حتى صفحة 262 يبدا بالكلام عن الموت وما بعده وعن الموت الرحيم وآراء بعض المفكرين في ذلك ويقدم بعض الأمثلة الجانبية على مثل هذه الحالات، ويقدم رأيه في حالة وفاته، فيقول:- (عندما سأشرف على الموت، فإني أرغب بأن تطفأ حياتي تحت المخدر العام، تماما كما لو كنت زائدة دودية مُلتهبة). مثل هذا الرأي يدل دلالة تامة على ما سبقت الإشارة اليه بأن الرجل لا يملك أدنى مشاعر الروحانية.

صفحة 363

/* يتكرر استشهاده بما ليس له توثيق ولا اسناد، فيأتي على ما رصدته كبيرة الممرضات في دار للعجزة حيث نسبة الوفيات بدرجة أكبر من غيرها، فيقول عنها:- (لقد

لاحظت عبر السنين بأن الأفراد الأكثر خوفًا من الموت هم المتدينون. كنت أتمنى أن يتم تدعيم ملاحظاتها إحصائيًا). ثم يستنتج على الفور ضعف قوة الأديان على طمأنة النفوس، فيقول:- (مهما كان الأمر فإنه لا يدعم قدرة الدين على طمأنة المحتضرين).!

ولماذا لم يستنتج أن المتدينين يشعرون بالقلق لما ارتكبوه من أخطاء في حياتهم، وبذلك فهم يخشون المحاسبة عليها أمام خالقهم، حسب المفهوم الديني، ما دام هؤلاء مؤمنين بأديان إلهية، فكيف حصل وارتكبوا أخطاء يخشون عقوبتها؟ سبق وقلنا ان البشرية مثل انسان فرد مرّ ويمرّ بمراحل حياة مختلفة، وما دمنا نعيش حتى اليوم في حالة الصبينة والفوضى، فلابد من ارتكاب مثل هذا "الأخطاء"، أما الجرائم الكبرى فهي بالتأكيد محاسب عليها لأنها شعار مكتوب بخط كبير واضح بعدم الاقتراب منها في جميع الأديان المقدسة. وبما أنه ليس في قدرة البشر معرفة ميزان الأخطاء وأحجامها ودرجات عقوباتها، لذلك ترى المؤمنون أكثر قلقًا من الحساب ودرجة العقوبة.

/* (الكاثوليكين ربما يخافون حياة البرزخ).

فكرة البرزخ ليست خاصة بهؤلاء فقط، فهي موجودة عند كثير من أتباع الديانات ومن ضمنهم المسلمين، لكنه سبق وجئنا على مثال توسع المدن وحاجتها لمناطق المدافن المحيطة بها وكيف لم يعثر على دخان ولا على نار داخل قبور المجرمين والكافرين والملحدين أو غيرهم.

/* يعود ليقول فكرة دينية توافق فكر الصبينة البشرية ليستند عليها في تفنيد أصل الدين بمجمله. فيقول:- (إن التلقين عن حياة البرزخ يكشف لنا لا معقولية بنية الفكر الديني).

بالفعل إنها فكرة لا معقولة تخالف رحمة الله الواسعة. إذ ليس من المعقول أن نأتي الى هذا العالم رغم إرادتنا ودون رغبتنا ونحشر في مجتمعات متخلفة فقيرة وبين أقرباء أكبرهم جاهل وأذكاهم أمي لا يقرأ ولا يكتب وتحت رعاية أبوين عاشا تحت ضغوط نفسية وعصبية وحالات إملاق وعوز لم يخرجا من قريتيهما، ثم يحاسبنا الله تعالى على نتيجة تصرفاتنا. فإن عَقَلنا وصدقنا فكرة البرزخ، فهو الكفر والجحود بالله حقيقةً، فالله لن يفعل مثل هذا الظلم أبدا، حاشى له أن لا يكون إلا رحيماً، (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)[1]

إن فكرة البرزخ التي ينتقدها بقوله:- (شكل من أشكال دائرة استقبال المهاجرين الإلهية، غرفة انتظار لأرواح الموتى ذوي الذنوب التي لا تكفي لإرسالهم مباشرة للجحيم ولكنهم لا يزالون مُحتاجون للتطهير والفحص قبل أن يتم إرسالهم الى الجنة الخالية من الذنوب).

[1] - سورة الأعراف 156.

مثل هذه الفكرة غير جديرة بنسبتها الى الله تعالى أعدل العادلين. كيف؟ لنفكر بأعداد البشر الذي عاشوا على الأرض، إنهم بمليارات المليارات، وغالبيتهم الكبرى ماتت منذ أزمان بعيدة. فهل يعقل أن تركهم عدالة الله تعالى ينتظرون في تلك الأماكن المخيفة المرعبة طوال آلاف وملايين السنين بانتظار حساب يوم القيامة، بينما ينتقل للحساب فوراً من هو ما زال على قيد الحياة في لحظة قيام الساعة والحساب؟ إن هذا ليس من العدل الإلهي في شيء (حاشى لعدله ان يكون هذا). وما يؤكد ذلك، قوله تعالى:- (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ).[1] فهذه الآية الكريمة تقول أن الحساب يتم فوراً حال الوفاة وبشكل فردي دون انتظار كما ينتشر من مفهومه عند البشر، بدليل صيغة التنبيه واللوم في تركهم الدنيا كما هي ومجيئهم فرادى دون رجال أديانهم الذين كا زالوا على قيد الحياة. وكذلك قوله تعالى:- (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ).[2] وهناك اشارات أخرى عديدة تؤكد سرعة حساب البشر حال وفاتهم مثل:- (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).[3]

صفحة 364

جاء على ذكر "صكوك الغفران" ليصفها:- (إحدى أبشع طرق النصب في التاريخ).

وهذا رأي متفق عليه على العموم وليس هو أول من قال بذلك.

/* كما أنه محق فيما كتبه في حاشية الصفحة 364:- (لا يجب الخلط بين حياة البرزخ وحياة النسيان، حيث يرسل الأطفال الرضع الغير معتمدين بعد موتهم. وكذلك الأطفال المجهضين؟ والمؤودين؟ حالياً فإن البابا بينيدكتوس السادس عشر قام بإلغاء حياة النسيان. هل هذا يعني بأن أرواح كل الأطفال التي سقطت هناك فجأة بدأت تحلق في السموات؟ أم أنهم سيبقون في مكانهم بينما الموتى الجدد يتم العفو عنهم؟ أم أن جميع البابوات السابقين قد كانوا على خطأ بالرغم من عصمتهم؟ إنها هذه الأشياء التي يفترض علينا جميعا "احترامها").

هذه من المفاهيم الدينية التي واكب البشر أخطائها بسبب ضعف مستوى عقل طفل الإنسانية.

صفحة 366

/* يقدم وجهة نظره في الحياة:- (حياتنا مفعمة المعنى، مليئة ورائعة بقدر ما نختار لها أن تكون. ونستطيع بكل تأكيد أن نجعلها رائعة جداً).

---

1 - سورة الأنعام 94.
2 - سورة الرحمن 39.
3 - سورة آل عمران 199.

أظن ان نسبة كبيرة من القراء الكرام، مؤمنين او ملحدين، فقراء أم أغنياء، عمال أم عاطلين؛ يتفقون معي أنه ليس باستطاعة أحدهم رفع مستوى سعادته أو راحته أو روعة حياته من خلال جهوده الذاتية فقط. إذ لا بد وأن كان هناك من مدّ للناجحين السعداء يد المساعدة لتحقيق أهداف حياتهم، من خلال أب أو أخ كبير أو أم طموحة أو محسن كريم أو منحة دراسية حكومية مجانية أو معلم حرفة طيب القلب أو إرث بقدر كافي، فجميع هؤلاء نجدهم وقد ساهموا بشكل من الأشكال في تحقيق أهداف نسبة كبيرة من البشر. وفي الدول المتقدمة نجد أن الفرد يأخذ حصته في الحياة بشكل طبيعي وتقوم الحكومة على تعليمه وتسهيل دراسته وتقديم المنح المالية ليكمل دراسته مهما كان طموحه عالياً. فهذا الوضع المريح لم يكن موجوداً من قبل حيث عاش غالبية البشر يجاهدون ظروف الحياة القاسية ناهيك عن عدم وجود مدارس في الأزمنة القديمة أو في الأمم البدائية الأولى. فكيف ظنَّ أن بإمكان الانسان تحقيق أحلامه وطموحاته بهذه السهولة واليسر وباستطاعته التحكم في مجريات منعطافات حياته؛ كم من ذكي لو سنحت له فرصة الحياة لكان من كبار العلماء والمفكرين بينما سحق تحت جنازير الدبابات في حروب مقيتة ظالمة فرضها عليه مجنون اعتلى كرسي السلطة بجهود أصدقائه أو أقرباءه المجرمين أو بتنفيذ عمليات الإغتيالات لمن هم أفضل وأعقل وأشرف منه؟

/* مرة اخرى تصريح بعدم الثقة فيما يقدمه:- (المؤسف بأن اسلوب البرهان الذي يجب أن استخدمه هنا هو برهان خطابي وليس برهان منطقي).

عذر واه غير مقبول.

صفحة 367

/* ينتقل لمناقشة فكرة فلسفية جديدة، وهي مدى قصر الحياة، فيقول:- (أوضحت مدى قصر الحياة نسبياً كبقعة ضوء تزحف على مسطرة زمن عملاقة. كل ما هو قبل وبعد ذلك البقعة يقع في ظلام الماضي الميت او المستقبل المجهول). ثم يستدل بقول إلحادي:- (إن معرفتنا بأننا نملك حياة واحدة فقط يجعلها أعظم قيمة). و (هذا ما يجعلها بهذه الروعة).

مثل هذا القول لا يشير أبداً الى اكتشاف حقيقة ما تدعو اليه فكرة الإلحاد، بل يمكن الاستنتاج أن لها معنيين متقابلين، فهي مثلما تؤيد أن الحياة قصيرة، كذلك تؤكد على ضرورة الانتباه لها وأنها ليست الهدف الحقيقي لوجود الإنسان. كما ان هذا القول يعود ليذكرنا بنظرية أن لكل شيء أمر مخالف ومضادد له، كما سبق وأشرنا الى النور والصحة والعلم ـ على سبيل المثال ـ ضد الظلمة والمرض والجهل، كذلك في المقابل أن قصر الحياة لدليل على وجود "طول حياة"، كما أن وجود المادة دليل على وجود "الروح"، ودليل وجود المحسوس، وجود "الغيبي"، بل إن وجود حالة النوم لمن أكبر الدلائل على أن غاية وجود الإنسان في هذا العالم المادي ليس هو الهدف الحقيقي، لما يستغرقه النوم من فترات طويلة قد تمتد الى ثلث حياة الانسان ناهيك عن متطلبات الحياة الأخرى، فبحسبة

بسيطة لا نجد من الحياة السعيدة إلا بضعة شهور أو سنين فقط هي مجمل ما يتمتع به الانسان في هذا العالم المادي، وبذلك لا بد أن يكون هناك غاية وهدف آخر لهذه الحياة يقضي باستمرارها.

/* (لو أن موت الله سيترك خلفه فجوة، فإن كل أمرؤ سيملؤها بطريقته الخاصة).

يتكلم هذا المفكر وكأنه يجلب الانتباه الى مسألة لم يسبق أن لاحظها غيره على مرّ التاريخ، فلو قرانا لكبار فلاسفة الرومان والإغريق واليونان والمصريين والصينيين والهنود والسومريين ممن اشتهروا بالعلوم والحكمة، لوجدنا جلّ اهتمامهم وبحثهم تركز على مسألة الغيبيات ووجود الله من عدمه، والمتتبع لآثار أدبياتهم يجد اتفاقهم على وجود الله، فها هو أفلاطون يقول:

وهذا هو سقراط يقول: (أخص ما يوصف به الباري تعالى: هو كونه حيًا قيوماً لأن العلم والقدرة والجود والحكمة تندرج تحت كونه حيًا، والحياة صفة جامعة للكل والبقاء والسرمد، والدوام يندرج تحت كونه قيوماً، والقيومية صفة جامعة للكل. وكان من مذهبه: أن النفوس الانسانية كانت موجودة قبل وجود الأبدان، فاتصلت بالأبدان لاستكمالها، فإذا بطلت الأبدان رجعت النفوس الى كليتها).[1]

وها هو أرسطوطاليس المعلم الأول أرسطوطاليس، وهو المقدم المشهور والمعلم الأول والحكيم المطلق عندهم، يقول في إثبات وجود الله الخالق، وقد تتلمذ على يد الفيلسوف أفلاطون لأكثر من عشرين سنة. أنه لا بد لكل متَحرك من مُحرك، وهذه السلسلة لا بد وأن تنتهي الى من لا يحتاج الى مُحرك. ثم يثبت أن محرك العالم واحد. وأن الباري مبدع غير محتاج لسواه. (وأن واجب الوجود حيّ بذاته باق بذاته أي كامل في أن يكون بالفعل مدركا لكل شيء نافذ الأمر في كل شيء. وإن الحياة التي عندنا يقترن بها من إدراك خسيس وتحريك خسيس، وأما هناك فالمشار إليه بلفظ الحياة هو كون العقل التام بالفعل الذي يتعقل من ذاته كل شيء وهو باق الدهر أزلي فهو حي بذاته باق بذاته عالم بذاته وإنما ترجع جميع صفاته إلى ما ذكرنا من غير تكثر ولا تغير في ذاته. والصادر الأول هو العقل الفعال لأن الحركات إذا كانت كثيرة ولكل متحرك محرك فيجب أن يكون عدد المحركات بحسب عدد المتحركات فلو كانت المحركات والمتحركات تنسب إليه لا على ترتيب أول وثان بل جملة واحدة لتكثرت جهات ذاته بالنسبة إلى محرك محرك ومتحرك متحرك فتتكثر ذاته).[2]

وأظن أن هناك الكثير من القراء يتفقون معي على أن الأستاذ دوكنز لم يصل بنباهته الى تلك الجبال الشامخة من الحكمة والفلسفة. بل إن فرداً بسيطاً مثلي استطاع الرد عليه لمجرد قراءته عدد من كتب بهاء الله و عبد البهاء. فالبشر خلقوا بمستويات عقلية متباينة ومن الخطا القول بترك كل إنسان ليبحث عن جواهر العلوم بنفسه، فمثل هذه الأمور الكبيرة المعقدة خصّت بها عقول النخبة الحكيمة العاقلة بعد إكتناز كنوز العلوم، وإلا فهي الفوضى الفكرية المدمرة.

---

[1] - الكشكول للعاملي ج 2 ص 493.

[2] - الملل والنحل. صفحة 354.

كما أن هناك نقطة مهمة أخرى، فطالما اتفق جميع علماء الحضارات والاجتماع على أن الأديان كانت موجودة منذ ظهور الوعي البشري وأن الانسان لا يمكنه استجلاب فكرة غير موجودة (معنوية) بقوة إدراك حواس الجسد المادية. من هنا كان لا ب من وجود واسطة امتلكت صفات وقوى روحانية معنوية لنقل الأفكار المعنوية والروحية من عالم الغيب الى عالم الشهود وما هؤلاء إلا من اشتهروا عبر التاريخ بتقديم المعتقدات والأديان مثل الشامان والبدد والآلهات والأنبياء وأمثالهم.

/* (طريقتي الخاصة تحتوي على جرعة كبيرة من العلم، المسعى الأمين والمنتظم للوصول الى الحقيقة عن العالم الحقيقي).

حقيقة الحقيقة لا يوجد ما أشار اليه في صفحات كتابه، ولو كان ذلك صحيحاً لما حجب نصف الحقيقة عن القراء. ثم ما علاقة هذه الحقيقة بالماديات، فالعلم الذي يشير اليه هو بذاته أمر معنوي غير محسوس، إلا إذا ترجم الى مخترعات.

/* كلٌ منا يبني في رأسه نموذجاً للعالم الذي نحن فيه).

دعوة صريحة واضحة للتشتت والتفرق مخالفة تماماً لمسعى فضلاء فلاسفة البشر حيث السعي التام لإتحاد البشرية على فكر خيّر يجمعهم ويوحدهم على تأسيس الإتحاد والسلام بينهم، فالتجارب التاريخية أثبتت طوال عمر البشرية أن التفرق والاختلاف في الرأي ما كان يوما سبيل السلام والطمأنينة.

/* (النموذج الأصغر للعالم هو النموذج الذي احتاجه أسلافنا للبقاء في عالمهم).

بل العكس هو الصحيح، فهذه مغالطة كبيرة، إن تاريخ البشرية يعلن بكل صراحة ووضوح على ان مسعى البشرية كان على الدوام إقامة كيانات اجتماعية كبيرة منظمة، حينما بدأ البشر بالانتقال من الفردية الى العائلة، ثم من القبيلة الى المدينة الى الدولة ثم تأسيس كبريات الإمبراطوريات العالمية. ونحن اليوم بامس الحاجة للتقدم خطوة الى الأمام لتأسيس الإتحاد البشري العالمي العام تحت راية دولة عالمية واحدة وحكومة عالمية وبرلمان حكماء عالمي بلغة عالمية واحدة. إنها المسيرة التاريخية للبشر.

/* (الانتخاب الطبيعي قام ببناء برنامج للمحاكاة وطهره من فيروساته وجعله متأقلماً مع العالم المحيط بأسلافنا في الأحراش الأفريقية).

هذه مغالطة كبرى أخرى، فالطبيعة لا إرادة ولا عقل لها حتى تنظم نفسها، أترك مزرعة فواكه جميلة رائعة دون عناية البستاني أو الفلاح وستجدها بعد فترة قليلة غابة أحراش لا فائدة منها، واترك طفلاً صغيراً دون تربية واعتناء وستحصل على وحش جاهل شرس في مجمل تصرفاته.

/* (دعوني أرسم صورة أخيرة لايصال فكرة قوة العلم للإرتقاء بالوعي ومنح السلام للنفس).

لا يختلف إثنان على الأرض على مقدار فائدة العلم للبشر، فلقد كان هدف الإنسان منذ ظهوره، ولا حاجة لمن يخبرنا اليوم ويذكر البشرية مقدار فائدة العلم في ارتقاء البشرية، فأصغر طفل يسعى في أقصى الأرض يسعى بكل طاقته نحو مزيد من العلوم في كل دقيقة من حياته من خلال الأجهزة التقنية بين يديه.

أما أن العلم يأتينا بالسلام، فهذا أمر بحاجة الى إعادة نظر، حيث أنه بالعلم أيضا صنع الانسان مختلف أنواع الأسلحة المدمرة، وبالعلم ظهرت آفة كبريات حيتان الشركات العالمية وشركات النصب والاحتيال، وبالعلم ازداد عدد الأثرياء وازداد عدد الفقراء، وبالعلم تنتج سموم المخدرات وتبنى لها المختبرات الكيمياوية التقنية، وبالعلم تشن الحروب وتدمر المدن، وبالعلم يختلس اللصوص أموال شعوبهم، وبالعلم تنتشر البضائع المغشوشة وتجنى أموال السحت، وبالعلم يضحك فاقدي الضمائر على البسطاء، وبالعلم تنتشر العلوم الكاذبة، وبالعلم يستولي المدلسين على أموال الناس، وبالعلم يرسل الشباب الى ساحات الموت ليقتلوا تحت شعارات زائفة، وبالعلم تستغل المرأة وتبعد عن مجالات العلم وتحبس في بيتها لخدمة الرجل ويملأ عقلها بالخرافات، وبالعلم يسطير رجال الدين على عامة الجهلاء ليقودهم مثل الأنعام. وبالعلم والرياء تنتشر المفاسد، وبالعلم تتحكم الحكومات بشعوبها وتبقيها جاهلة غافلة، وبالعلم أسقط برجي نيويورك، وبالعلم دمر العالم مرتين..الخ. فالانسان لا يرقى بالعلم وحده يا سيدي ولا يمنح السلام للنفس.

/* من صفحة 268 حتى نهاية الكتاب صفحة 381 يتكلم عن الفيزياء الكونية والذرية في مسائل شرحت بشكل أطول ومفصل ومعقول في كتب فيزيائية مختصة أخرى كثيرة.

وبهذا نصل الى نهاية الرد على ما جاء به من قصص المقاهي والمنتزهات. ولكن النقطة المهمة أنني لم ألحد كما قدم تحديه.

**إنتهى**

# الخاتمة

ركّز الأستاذ دوكنز في كتابه "وهم الإله" بالخصوص على مهاجمة بعض نصوص "كتاب التوراة" المخالفة للعقل السليم المخالفة لقوانين المجتمعات الحديثة والتي يتفق معه الكثيرون على أنها من الإضافات البشرية، وانطلق من خلال ذلك على مهاجمة الفكرين اليهودي والمسيحي وشدد على ذلك بحيث يمكن القول على أنه اعتبره هدف مجمل كتابه. أما لو جُمع ما خصصه للديانة الاسلامية ـ وهي من الديانات العالمية الكبرى ـ فلا أظنه سيتجاوز في عدد سطوره الصفحة او الصفحتين بسبب قلة إطلاعه في هذا المجال. أما الإشارة الى بقية أديان العالم، فلقد انعدمت تماماً ولم يأت على ذكر أي منها، وبقي يهاجم سِفري (التوراة والإنجيل) وكأنه لا يوجد على الأرض كتاب مقدس آخر سواهما.

عند التوغل في قراءة صفحات كتابه ولا نجد ذكراً لمبادئ الديانات الأخرى وخاصة مبادئ الديانة البهائية أو حتى إشارة خاطفة عن أهدافها، يتأكد المرء أنه يخفي أمراً ما عن قارئه تحت عباءة سحره وأن له هدفاً آخر وغاية تختلف عن مناهج الفلاسفة والحكماء والمفكرين والمؤرخين المنصفين والعلماء الطبيعيين الذين لا يبتغون من وراء بحوثهم وتعبهم وسهرهم ودراساتهم وقراءاتهم ومناقشاتهم ومؤلفاتهم وتضحيتهم بسنين حياتهم ومباهجها سوى كشف الحقيقة وتقديم ما يتوصلون اليه من حقائق علمية وفلسفية الى البشر، إذ لا سبيل لتقدم الشعوب وصنع الحضارات سوى المصداقية في البحث العلمي. إن ما يستنتج من ذلك هو أن هناك ذات الهدفين الطبيعيين التي يسعى ورائهما كل إنسان عاقل: (المـال) أو (الشهرة) أو كليهما. أما المشاركة مع بقية علماء وفلاسفة الأرض في صنع حضارة عالمية جديدة، فلو يوجد لها مكاناً بين سطور كتابه، حتى إنه من الواضح الجليّ تعمده في إخفاء الحقيقة وجلب الإنتباه الى أمور جانبية ثانوية بعيداً عن كبريات الأهداف الإنسانية والعالمية.

فطالما كان تنوير الفكر البشري، هدف فلاسفة وعلماء جميع الأمم، وأن كل ما بين أيدينا من علوم ومعارف وفلسفات هو ثمرة جهود أولئك العظماء الصادقين في خدمتهم للبشرية رغم ما نالهم من تعذيب وحبس واضطهاد وقتل وتجرّع سموم وتقطيع أجساد وحرق، ومع ذلك لم ينتهوا ولم يتراجعوا عن عرض ما توصلوا اليه من حقائق علمية مهما كانت مخالفاً لما يتداوله البشر وينتشر بينهم من علوم كانت وما زالت غير مكتملة وبحاجة الى المزيد.

إن إخفاء شيء من الحقيقة شيء غير ممدوح خاصة من عالم بهذا الحجم، كما لا يمكن الظن إطلاقاً أن رجلاً متعلماً مثل "دوكنز" لم يصله خبر مبادئ وأهداف الديانة البهائية الحديثة وهو يعيش في وسط العالم المتقدم أو لم يصله على خبر عنها أو يجلب

انتباهه أمر ما ليعطف على قراءة شيء من أدبياتها، فجواهر أسرار الكون لا تطفو على أسطح بحار العقل ليلتقطها كل من ركب سفينة بحر العلوم.

مثل هذا السبيل غير الواضح، يطعن في جوهر فكرة كتابه فكرة "الإلحاد" ويكشف عريها، فلو كانت فكرة سليمة حقيقية تستند على دلائل علمية مادية حقيقية، لما كان هنالك موجباً لستر أمرٍ وكشف آخر، إن مثل هذا التصرف بحد ذاته، وحتى بغض النظر عن أصل صميمية فكرة كتابه، ليهدمها من جذورها وأساساتها.

إن خلو الساحة العالمية من فكر جديد سليم ومنهج ديانة عالمية حديثة، لا يدعو لركوب موجة الفوضى وتقديم ما يساهم في زيادة إرباك المجتمعات العقل البشري، بل العكس هو الهدف المطلوب، حيث نرى اجتهاد فلاسفة الأرض وعلمائها على إيجاد أي سبيل ومنهج حكيم لوقف تدهور حضارة العالم اليوم، وما يمنعهم عن ذلك، ما هو إلا عدم القدرة على ابتكار منهج يقف نداً أمام سعة حجم مشاكل العالم العصرية. لكن هذا العجز لا يدعونا لاستغلاله والمبادرة للإصطياد في المياه العكرة بغاية فائدة شخصية على حساب فقراء العالم ومظلوميهم، فالدعوة الى الإلحاد ستجرد بالتأكيد الرحمة من قلوب البشر وتزيد الفقراء فقراً والمظلومين ظلماً.

وكما جئنا على إثباته في مجمل الردود والشروحات ....

إن البشرية في هذا اليوم وضع عسير لم يسبق أن مرت بمثله منذ أن وجدت على الأرض، وهي بحاجة ماسة الى فكر ينقذها مما هي فيه من الفقر والجهل والظلم ويوفر لها الأمان والاطمئنان ويضمن لأبنائها مستقبل يجهدون في السعي الى تحقيقه، ويقدم لشبابها ورجالها الهمة والأمل للنهوض متعاضدين لبناء حضارة العالم الجديدة. أما أن ندخلها في نفق الإلحاد المظلم المخيف، فهذا أبعد ما تحتاج اليه أجيال المستقبل الفتية، وهو أبعد ما يكون عما سعى الى بناءه علماء وفلاسفة وحكماء البشرية من فجر الوعي البشري.

## المصادر

كتاب أعاجيب الكون السبع. للمؤلف جيانت فيشنو نارليكار. ترجمة الدكتور داود سلمان السعدي.